الفيصل

مجلة ثقافية شهرية ـ العدد ٢٧٠ ـ ذو الحجة ١٤١٩ هـ ـ أبريل ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 270 - APR.1999



مكة المكرمة: المكان والإنسان

- صناعة الفخار: لغة تشكيلية
- الكتابات في المساجد العمانية
- الباراسايكولوجيا المعاصرة
- الثعابين: جميلة وقاتلة
- التوسع العمراني: نعمة أم نقمة؟
- فصول من سيرة مالكوم إكس

في جميـع مسـاعيهـا

حرصت الفيصلية على تكريس جل جهودها وإمكاناتها لتحقيق هدف واحد. هو كيفية تطوير سبل الحياة في شتى ميادينها والإرتقاء بها إلى أفضل المستويات. ولتحقيق هذا الهدف فقد أقامت الفيصلية شراكات راسخة مع بعض من أشهر الماركات التجارية في العالم.

ففي منازلنا. نجد سوني SONY قد ساعدتنا في تعزيز أسلوب حياتنا اليومية على نحو أكثر متعة وإثارة. بينما نجد ميجاستار أكبر شركات الموسيقى في الشرق الأوسط قد منحتنا البهجة والسعادة بما تقدمه لنا من فنون أصيلة وموسيقى راقية. أما في مكاتبنا ومدارسنا ومنازلنا. فنجد أن HEWLETT PACKARD تواصل باستمرار تقدمها لتحقيق التميُّز النوعي في مجال أتمتة المكاتب. والتعليم والثقافة والمعرفة. والإستفادة القصوى من تقنية المعلومات بواسطة الكمبيوتر. كما نجد أن مئات الآلاف من الأسر في كافة أرجاء المملكة العربية السعودية تفضل حليب ومنتجات الصافي AL SAFI الطبيعية التي توفرها لهم أكبر وأضخم مزرعة ألبان متكاملة في العالم. وفي محلات السوبرماركت والزهور نمدكم بأرقى أنواع الورود والزهور الطبيعية والخضروات الطازجة التي يتم زراعتها بواسطة مؤسسة الفيصلية الزراعية. وفي مجال وقود السيارات نجد شركة Ethyl الرائدة عالمياً في صناعة المواد الكيميائية تقوم بانتاج المواد المضافة ذات الجودة العالية التي يتم استخدامها في تحسين وقود السيارات. كما نجد أن المستشفيات والمستوصفات الطبية تعتمد بدرجة كبيرة على كفاءة أجهزة TOSHIBA Medical Systems الطبية في أغراض التشخيص وغيرها من الأمور الطبية. فمن أجهزة التسلية وأنظمة الكمبيوتر والصناعات الكيميائية إلى منتجات الألبان الطازجة والخضروات والزهور الطبيعية. كرسنا جهودنا وسخرنا إمكاناتنا لنحقق التميُّز والهدف المنشود.

مَجمُوعَة الفيصَليَة

Al Faisaliah Group

شارع العلياء العام – مركز النمر التجاري. ص . ب ١٦٤٦٠ الرياض ١١٤٦٤ المملكة العربية السعودية – هاتف: ٤٦١٠٠٧٧ – فاكس: ٤٦٤٠٤٩٨

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٣ - العدد ٢٧٠ - ذو الحجة ١٤١٩هـ - أبريل ١٩٩٩م

ALFAISAL MAGAZINE - No270 - APR.1999



مكة المكرمة: المكان والإنسان

لمكة المكرمة مكانة خاصة في قلب كل مسلم، فمنها بزغ نور الإسلام، وفيها تنزلت أولى سور القرآن الكريم، وفيها أول بيت وضع للناس. لاسم مكة المكرمة قصة، ولأطوارها السياسية والعمرانية تاريخ، وفي أرضها مواقع أثرية ومئات النقوش التي تعود إلى عصور مختلفة.



رحلة بروست إلى الحجاز

وضع الطبيب الفرنسي أدريان بروست والد الأديب الفرنسي المشهور مارسيل بروست كتابًا عن رحلة حج قام بها في عام ١٨٩٣م، مركزًا حديثه على النواحي الصحية، ومبينًا بعض انطباعاته عن الحياة الاجتماعية في الحجاز في ذلك الوقت. فكيف كانت الصورة في ذلك الوقت حسب منظور بروست؟ .



مالكوم إكس: الخروج من الظلمات إلى النور

عاش الزعيم الأمريكي المسلم مالكوم إكس حياة مثيرة، فقد انتقل من حياة الضياع والإجرام إلى حياة الالتزام والاستقامة بعد أن شرح الله قلبه للإسلام . وكان الحج نقطة تحول كبرى في حياته جعلته يعيد تقويم موقفه من الرجل الأبيض، وضمت ذكرياته في رحلة الحج أحداثًا طريفة ومواقف مؤثرة.

المحتويات



الحج في التاريخ: حكايات ونوادر

حفل كثير من كتب التاريخ والرحلات والفقه بحوادث ونوادر وقعت في الحج، كما أن هناك حكايات تبدو فيها المبالغة واضحة، لعلها كانت تروى من باب الوعظ. فما أهم تلك الحوادث والنوادر؟



الكتابات في المساجد العمانية القديمة

منذ العام السادس الهجري دخل أهل عمان الإسلام طواعية، وتعاقبت الأيام والسنوات والمساجد تزداد انتشارًا وتطورًا في أحجامها ومحتوياتها، وتعد الكتابات جزءًا مهمًا من تكوين المسجد، وهي تفصح عن معلومات عن تاريخ إنشاء المسجد وعمن قام بعمارته، إضافة إلى كونها عنصرًا جماليًا.



الصل الأسود ومصير كليوباترا

الصل الأسود من أخطر الثعابين في العالم، ويعيش في البيئة الصحراوية، وقد ينزل ضيفًا ثقيلاً على الضب في جحره، لذا يُحذر صائدو الضب من أن يلقوا مصير كليوباترا إذا صادفوا هذا الثعبان في جحر الضب. المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات بالحرس الوطني ينتج أمصالاً ولقاحات لسموم الثعابين الموجودة في البيئة السعودية، وهو المركز الوحيد في العالم الذي ينتج مصلاً لسم الصل الأسود.



العميل الذكي يقتحم حاسوبك

تزداد حجم المعلومات المخزنة في شبكة الإنترنت بسرعة مذهلة، لذا عكف العلماء على أن يكون هناك عميل ذكي يمحص في البريد الإلكتروني، ويصنف الرسائل ويفهرسها، ويمرر المكالمات الهاتفية المهمة، ويخبر مستخدمه بفرص العمل الجديدة والطيبة المتاحة، ويمكنه في الحالات الطارئة أن يتصل بمستعمله أينما كان. وهذا العميل الذكي بإيجاز ينجز المهمات الصعبة في جمع المعلومات واتخاذ القرارات.



الباراسايكولوجيا المعاصرة والظواهر الخارقة

هناك بعض الظواهر ـ كقدرة بعض الناس على ابتلاع قطع من الزجاج المكسور، أو مقاومة النار، أو مقاومة سم الأفاعي والعقارب ـ تبدو محيرة للإنسان، مما حدا ببعض العلماء المهتمين بمثل هذه الظواهر إلى دراستها ووضعها تحت مجهر البحث، وقد خرج هؤلاء ببعض الاستنتاجات، ومع ذلك لايزال الغموض يكتنف هذا العلم المعني بدراسة الظواهر الخارقة، الذي يعرف بالباراسايكولوجيا.



صناعة الفخار:
لغة تشكيلية لها مفرداتها

صناعة الفخار من أقدم الصناعات التي عرفتها البشرية، وقد ظلت طريقة التصنيع والخامات والأدوات المستخدمة واحدة منذ بدايتها إلى اليوم، واكتسبت هذه الصناعة على مدى العصور لغة تشكيلية جمالية لها مفرداتها وأساليبها التعبيرية.



التوسع العمراني في المدن.. نعمة أم نقمة؟

تشكل ظاهرة الهجرة المكثفة من الريف إلى المدينة خطرًا على أمن الإنسان وراحته، حتى إن المدينة الحديثة أصبحت تتوسع في العمران أفقيًا وعموديًا بتسارع يشبه تزايد الخلايا السرطانية، فما المشكلات الاجتماعية والخدمية والبيئية المترتبة على تفشي هذه الظاهرة؟



الثقافة والأسلوب

العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمة منذ أن وجدت اللغة، ووجدت الحياة الاجتماعية.

ولكن لماذا تفتقد حياتنا العربية المعاصرة في الشارع والبيت إلى تقاليد لغوية واحدة، ولماذا يفتقد كثير من أدبائنا إلى أسلوب معين يعرفون به؟



الفن المعماري الدانماركي والتأثر بالعمارة الإسلامية

توجد دلائل كثيرة على تأثر الفن المعماري في الدانمارك بفن العمارة الإسلامية، ويرجع هذا التأثر إلى القرون الوسطى، إذ تتضح آثار إسلامية في الكنائس الدانماركية، واستخدمت النماذج المعمارية الإسلامية بتوسع في القرن التاسع عشر الميلادي، وانتشر المهندسون الدانماركيون في العالم الإسلامي من النصف الثاني من هذا القرن مشاركين في رسم صورة المدينة العربية المعاصرة.



الصحافة العربية في الهند

كانت أول صحيفة عربية تصدر في الهند في سنة ١٨٨٠م، ثم توالت بعد ذلك الصحف والمجلات العربية التي كان من أهم أهدافها إيقاظ الوعي الإسلامي في قلوب المسلمين في تلك البلاد، وخدمة اللغة العربية ونشرها فيها، بل إن هذه الصحافة تهتم بأخبار علماء عرب تهملهم صحافة البلاد العربية!!

الفيصل

الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

رسائلكم

استفتاء القراء!!

فإنه لمن دواعي سروري وتقديري الكتابة إليكم وأنتم - رعاكم الله - تقودون دفَّة السفينة وصولاً للهدف الأسمى المنشود.
ولما كنتُ من أصدقاء «الفيصل» القُدامى، فإنه يحق لي - كما أظنُّ - التوجه إليكم اليوم راصداً خطواتكم الجديدة عبر العددين الوليدين (٢٦٥ و٢٦٦)، فقد لا أجانبُ الحقيقة إن قلت: إنهما خطوتان يعوزهما بعض النجاح، والحماسة التي عودتنا إياها الفيصل مع كل انطلاقة وميلاد. فمع عدد رجب من العدد الميلاد، عادة تطلع علينا الفيصل بالأبواب الغزيرة المفيدة، أما العكس فلا.
لذا، فإن كان من طبيعة التغيير والتطوير والتجديد الحذف والزيادة، فإنه ليس بالضرورة أن يكون على حساب الإثراء والتميّز في المادة.
وأفضل فأقول: إن حذف الأبواب التالية على سبيل المثال: دائرة المعارف، المسابقة، وأقلام شابة [تباشير]، والحركة الثقافية، والبريد - في اعتقادي الجازم - أنه خسارة كبيرة للقارئ العربي أينما كان وتواجد. فالأمة يحكمها عنصر الشباب، وهو عنصر ما لم تتبنوه بوصفكم جهة ثقافية إعلامية مسؤولة ومقتدرة سيفتقد إلى عناصر المناعة الثقافية، وسيعاني اغتراباً جديداً عن تراثه الأثيل وواقعه، وسيغدو أكثر ضبابية.
لذا، أناشدكم الله تعالى أن تقيّموا المرحلة، ولو بطرح استفتاء ينهض بالفيصل المجلة من تثاؤبها، ويعيد لها نكهتها التي أوشكت على الفقدان!
معذرة لكم إن بدوتُ قاسياً، لكنني من مُنطلق الحرص على وجهكم الباسم الطيب، كتبتُ لكم هذه السطور لتكون بطاقة واقعية تحتوي على (بورتريه) يجمع خيوطكم الأخيرة التي تحمل لمتابعكم القديم فروقات الماضي والحاضر.

عبدالغني عبدالهادي
المملكة الأردنية - ص.ب ٨٥٤٥ - عمّان ١١١٢١

عدد متميز

لقد سررت جداً وأنا أتصفح العدد (٢٦٨) من مجلة الفيصل الرائدة، وهو العدد الخاص بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وكم كانت سعادتي كبيرة بهذا العدد الخاص، ولقد أعجبني الإخراج الفني والمقالات التي تتحدث عن إنجازات المملكة في عهد الملك عبدالعزيز، يرحمه الله، وكذلك تاريخ الطوابع والعملات.

مهدان جاسم الكواري - دولة قطر ص.ب ٥١٦٣

أبواب وزوايا متشابهة

يسرني بداية أن أعرب لكم عن سعادتي للتطور الذي شهدته مجلة «الفيصل» الغراء مؤخراً، والذي أعاد لها صبغتها الأدبية الفكرية الراقية وخلّصها من ذلك الحشد من الأبواب والزوايا المتشابهة التي كانت تشوّش في كثير من الأحيان على الطابع الثقافي المتزن الذي عرفت به «الفيصل».

محمد بن نذير منصور
سورية - دمشق ص.ب ٣٣٤١٨

البيئة في الفيصل

بداية أسأل الله سبحانه وتعالى لكم دوام التوفيق والنجاح المستمرين، ولابد من أن أزيد من شكري لكم على تنويعكم للمواضيع دون الانزلاق إلى موضوعات ليست فيها فائدة كما تفعل مجلات أخرى!! وتنويع المواضيع من أكثر ما يشدني، فأنا أحضّر رسالة في «قوانين الحفاظ على البيئة ومقارنتها بالنصوص والفقه الإسلامي»، والحفاظ على البيئة - كما هو معلوم - من اهتمامات «الفيصل» وأود بالمناسبة أن أشير إلى الفائدة الكبيرة التي حصلت عليها من خلال هدية «الفيصل» مع العدد (٢٢٠) التي تضمنت قائمة ببليوجرافية عن كتب البيئة بعد أن أهدانيه صديق عزيز.
أتمنى لكم دوام التوفيق والعمل والنجاح، وشكراً لكم بعد شكر الله عز وجل

معاذ يعقوب
دمشق - سورية - ص.ب ٣٥٠٢٣

ساندوتشات!!

اطّلعتُ على عَدَدَيْ (شعبان ورمضان) من مجلة الفيصل. وعلى التغيير الذي طرأ على المجلة هو مسألة داخلية تخصّ المسؤولين عن المجلة، إلا أن من حقي أن أبدي بعض الملاحظات، على الأقل بوصفي من قراء المجلة، إن لم يكن بوصفي أحد كتّابها.
لقد لاحظتُ اختفاء جميع أبواب المجلة دفعة واحدة، ولا سيما الافتتاحية (إطلالة) والصفحة الختامية (على موعد). وهاتان الزاويتان الرئيسيتان أكبر مقياس وأوضح علامة على حيوية أية مجلة.
كما لاحظتُ اختفاء أو ندرة موضوعات (الساندوتش) التي يشغل كل منها صفحة أو أقل من المجلة، وتعلمون أن الموضوعات القصيرة ضرورية جداً بالنسبة للمجلات المنوعة الشعبية كالفيصل والعربي والمجلة العربية. أما الاقتصار على الدراسات التي يشغل كل منها عدة صفحات، فهو من سمة المجلات المنوعة الأكاديمية كالفكر العربي وشؤون عربية أو المجلات الاختصاصية مثل مجلة عالم الكتب.

ياسر الفهد
دمشق - سورية
ص.ب: ٦٧٧١

تقدير ووفاء

سبق أن نشرت «الفيصل» الغراء في زاوية «بين القارئ والقارئ» اسمي وعنواني ورغبتي في الحصول على كتب الشيخ العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله - ونسيت الموضوع - أو كدت أنساه - حتى وصلني ظرف كبير غير منتظر، ولما فتحته وجدت فيه كتاب «في قلب المعركة» للشيخ الإبراهيمي، فشعرت بالامتنان العظيم لمجلة الفيصل والقائمين عليها.

فشكرا جزيلاً لمجلتنا الرائدة على خدماتها الثقافية وأياديها البيضاء على قراء العربية في كل مكان.

وشكراً جزيلاً للأخت الفاضلة سليمة - الجزائرية - التي أرسلت لي الكتاب بعد أن عرفت رغبتي عن طريق مجلة الفيصل.

وشكرا لدار الأمة ببرج الكيفان في الجزائر التي طبعت الكتاب، وأخرجته في هذه الحلة البهية. والسلام.

الطاهر عمارة الأدغم

طالب جزائري بالجامعة الإسلامية العالمية - إسلام أباد

تغيير أم تطوير؟

هرعت كعادتي كل شهر إلى بائع الصحف لأقتني أعظم دورياتي على الإطلاق، وهي مجلة «الفيصل»، ولكن حين اشتريتها هذا الشهر، وكان عددها رقم (٢٦٦) أصابني سخط وحنق شديدان، فأنا لم أجدها مجلة الفيصل التي أعرفها والتي أواظب على اقتنائها منذ أكثر من عام، والتي مع حداثة عهدي بها إلا أنني كنت أشعر دائماً أنني منها وهي مني، فهي بحق كانت مبتغاي بعد طول بحث أعياني على دورية كاملة جامعة، لذلك حين تعرفت الفيصل عزفت بعدها عن أية دورية أخرى سواها لقيمتها المعلوماتية والأدبية ودراساتها المستفيضة الغنية و.. و.... إلخ، حتى اتخذتها مثالاً يحتذى في إعداد دورية أقوم بها في مركزنا الشبابي بمدينتنا.. ولكن..!!

لكن نعود إلى حديثنا الذي من أجله شرعت في كتابة رسالتي هذه، وهو أنني عندما اشتريت مجلة الفيصل هذا الشهر لم أجدها مجلتي المفضلة، ومرجعي القيم عندما أهم في عمل موضوع ما، فقد كانت - والحق لا يُحتجب - في هذا الشهر مسخاً مشوهاً معذرة، ولكن الصراحة منطقي دائماً، نعم فقد كانت كذلك، فمجلة الفيصل لم يعد باقياً منها غير اسمها، أما مضمونها فقد تم تفريغه من كل قيمة كنا نعتادها في أعدادها السابقة، فلقد اختفت كل أبوابها تقريباً، فضلاً عن أنني أخذت أبحث عن أساتذتي الموقرين الذين اعتدت القراءة لهم بكل ثقة ونهم فلم أجد أحداً منهم، ناهيك بعد ذلك عن سوء تصميم المجلة من أول الغلاف الداخلي منها وحتى آخر صفحة، و... و...!!!إنني لأتساءل، هل تغير إدارة المجلة يوجب تبعياً تغيير المجلة نفسها، إن كان هذا التغيير من باب التجديد للمجلة فأنصحكم أن تعودوا لما كانت عليه من قبل بأبوابها الثرية، ودراساتها الغنية، وموضوعاتها المتخصصة، وتصميماتها السابقة الرائعة، و... و... إلخ، فهي كانت بحق موسوعة شاملة تهم الباحث قبل الهاوي، وإلا فستخسرون قراء تلك المجلة الرائعة... أقصد التي كانت كذلك.

أحمد خليل الشال

مساكن بنك الإسكان - عمارة ٣ شقة ٢١ - بور سعيد - مصر

لا آلام!!

بارك الله فيكم وعليكم. وجزاكم الله ألف خير على ما تقدمونه للأمة من نصح وإرشاد وعلم ونوعية. وأتمنى لكم التوفيق.

بحمد الله إنني من المداومين على قراءة الجوهرة «الفيصل» لعدة أسباب، منها أنني وجدت ضالتي فيها وهذا يكفي لتنال إعجابي، وتمتلك قلبي. ومن ثم أصبحت ليلاي التي تُنشد لراحتي، وتخفف عني آلامي وأوجاعي، وتعالج لواعج قلبي، وتطيب جراحاتي. لذا، إني في حبها لا آلام ولا عتب عليّ في ذلك.

أتمنى أن ترسلوا لي العدد رقم ٢٦٤. لأن هذا العدد لم أحصل عليه، لعدة أسباب. فأرجو منكم أن تكرموني به لأنني أحتفظ بكل أعداد المجلة. فاليوم المفقود عندي هو العدد ٢٦٤، فهلا استجبتم لطلبي هذا؟ وجزاكم الله ألف خير ولكم تحياتي ودعواتي الخالصة. والسلام عليكم.

صديق خالد الحاج الإمام

السودان - الخرطوم - ص.ب ١٢٣٩٣

التحرير:

أرسل لك العدد الذي طلبته، آملين أن نكون عند حسن القراء جميعاً.

ردود سريعة

الإخوة جمال أبو الفتوح رجب - المنوفية - مصر، سليم رضوان بو عبيد، الجزائر، جمال عبدالله - تونس:

الأعداد التي طلبتموها ستصل إليكم قريباً، إن شاء الله، ونشكر لكم حرصكم على اقتناء كل عدد من أعداد المجلة، ونبذل جهدنا لكي تتوافر المجلة في الأسواق العربية وغيرها بشكل يتيح الحصول عليها بيسر وسهولة.

الأخ ياسين السقر - ريف دمشق - سورية:

جميع اقتراحات القراء محل اهتمام المجلة، واقتراحك بتخصيص باب أو زاوية للتعريف بمعاني آيات القرآن الكريم والاختلاف بين المفسرين من بين هذه الاقتراحات، إلا أن إقرار باب أو زاوية يحتاج إلى دراسة.

الأخ بغدادي رشيد، قسنطينة، الجزائر:

نعتذر لكم عن تلبية طلبكم بالحصول على كتاب يتحدث عن ملكة الشرق زنوبيا أو عن حضارة تدمر، لأن من الصعب تلبية مثل هذه الطلبات لكثرة ما يرد منها إلى المجلة.

الأخ إبراهيم المتولي السيد إبراهيم - محافظة الدقهلية - مصر:

إصدارات دار الفيصل الثقافية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية وردت في أكثر من عدد من أعداد المجلة، وآخرها العدد رقم (٢٦٥)، وسوف نرسل إليك هذا العدد لتطلع على قائمة الإصدارات.

استدراك

سقط من موضوع «شارلوت برونتي وروايتها جين إير المنشور في العدد الماضي المصادر التي اعتمد عليها الكاتب، وهي:

1- THE LIFE OF THE NOVEL/ DAVID GOLD-KNOPE- CHICAGO: U.OF CHICAGO PR. 1972.

2- A LITERATURE OF THEIR OWN: BRITISH WOMEN NOVE LISTS FROM BRONT TO LESSING / ELAINE SHOWALTER.- PRICENTON: PRINCETON UNIV. PR. 1977.

3- PLOT GNIDE TO 100 AMERICAN AND BRITISH NOVELS/ EDITED BY ABRAHAM H. LASS.- BOSTON: THE WRITER INC. 1966.

4- PLOTS AND CHARACTERS IN THE FICTION OF JANE AUSTEN, THE BRONTES, AND GEORGE ELIOT/ JOHN HALPERIN AND JAMET KUNERT.- HAMDEN, CONN: SHOE STRING, 1976.

مع الاعتذار للإخوة القراء ولكاتب المقالة الدكتور فؤاد حمد رزق فرسوني على هذا السقط غير المقصود.

صناعة الفخار:

لغة تشكيلية لها مفرداتها

محمد فتحي السنوسي

منذ نشأة الخليقة، والإنسان يبحث وينقب ويفكر ويتأمل ويتخيل فيما حوله من مظاهر الطبيعة المختلفة، ومن خلال بحثه المستمر في ظواهر الكون المرئية والغيبية (الميتافيزيقية)، ومحاولته استطلاع المجهول، واستشراف المستقبل، ومع حلمه الدائم نحو المعرفة نشأت الحضارة.



فرن حرق منتجات الفخار

صناعة الفخار...

وحاول الإنسان جاهداً أن يسخر ما حوله من كائنات وموجودات لخدمته، وارتبطت حياته بالمعيشة حول ضفاف الأنهار، ومصادر المياه وفي الأودية، وفكر كثيراً في الأرض التي يعيش عليها، وفي ما تنبته وتنتجه، وبدأ يمارس الزراعة، فارتبط بتلك الأرض ارتباطاً عظيماً، كما بدأ يمارس أنواعاً بدائية من التشكيل اليدوي والمادي مستخدماً الخامات البيئية والمحلية المتوافرة حوله، فكانت الصناعة.

وصناعة الفخار تعدّ من أقدم الصناعات التي عرفتها البشرية، ويكفي أن نشير إلى أن الشواهد والدلائل تشير إلى أن هذه الصناعة - بمعناها العلمي - ترجع إلى أكثر من سبعة آلاف سنة.

فقد ذكر «بتري» أن صناعة الفخار ترجع إلى الأسرة الفرعونية الأولى في مصر (٥٥٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م)، بينما ذكر «ريستر» أنها ترجع إلى الأسرة الفرعونية الخامسة.

والطريف أن طريقة التصنيع والخامات والأدوات المستخدمة فيها واحدة منذ بدايتها حتى الآن، وخاصة الآلة التي يشكل عليها الفخار، والتي تسمى «دولاب الفخار»، أو «العجلة»، وطريقة استخدامها أيضاً موجودة على جدران مقبرة فرعونية في منطقة سقارة بالهرم، وهي من مقابر الأسرة الفرعونية الخامسة، كما وجدت أيضا رسوم لها على جدران مقبرة أخرى بمنطقة بني حسن بصعيد مصر، وهي من مقابر الأسرة الفرعونية الثانية عشرة.

وتقول الباحثة «بلاكمان»(١): وفي المقبرة نفسها نرى أفران الفخار موقدة، وهي دائرية الشكل كالتي توجد حاليا بالوجه القبلي بمصر، وقد صور رجلان يعجنان الطين بأرجلهم على الطريقة الشائعة إلى اليوم.

وأهم مناطق صناعة الفخار في مصر منطقة مصر القديمة - الفسطاط - وتنتشر فيها مصانع الفخار المختلفة.

وفي العصر الروماني (٣٢ق.م - ٣٩٥م) اشتهرت مدن كثيرة بمصر كالإسكندرية، والأقصر وطيبة، والفيوم بصناعة الفخار، وكان العمال يخلطون طينة الفخار المعد للتصدير ببعض أنواع من العطور حتى تظل بها رائحة زكية بعد حرقها في الأفران.

«ويعد الفخار من أهم الفنون التطبيقية الإسلامية، ومن المواد الأثرية القديمة، وترجع قيمته الأثرية إلى كثرة مخلفاته والاعتماد عليه بصفة خاصة في ترتيب مراحل التطور الحضاري والفني، وفي تأريخ طبقات الحفر الأثري، وترتيب الطرز الفنية، كما أنه أقرب الفنون الزخرفية والتطبيقية إلى روح الإنسان»(٢).



جرة من الفخار تشكل لوحة فنية رائعة

وقد عرفت مختلف الشعوب والحضارات الإنسانية هذه الصناعة، بدليل أننا نعثر في مختلف الأماكن التي عاشت الحضارات على أرضها على أوانٍ وقطع فخارية باستمرار.

«والحق أن القاهرة قد ازدهرت فيها أنواع من الفخار كانت تصنع للاستعمال اليومي، وكان موطن صناعتها بمنطقة مصر القديمة (الفسطاط)، ويمتاز فيها الفخار الشعبي بالبساطة وقلة التكاليف، وفي الوقت نفسه لا يخلو من حسن الذوق، ودقة الصنعة، وروعة التخيل والابتكار»(٣).

ويصنع الفخار من خامة الصلصال - «الطين» - وهو خامة محلية ومتوافرة بكثرة، رخيصة الثمن، وتمتاز بأنها شديدة الصلاحية للتشكيل اليدوي والفني، بسبب جودتها وليونتها وسهولة صياغتها تشكيليا من خلال عمل وحدات وقيم زخرفية على سطحها الخارجي، مع سهولة في معالجتها، والتحكم فيها بيسر، وصلاحيتها للأغراض التقنية الوظيفية المختلفة في حياة الإنسان اليومية، وتلبية احتياجاته الأساسية.

مظاهر الإبداع الفخاري

صناعة الفخار هي إحدى الصناعات والحرف الشعبية التي تعد بدورها عنصراً مهماً من العناصر التي تهتم الثقافة المادية - كأحد ميادين علم الفولكلور - بدراستها.

«والثقافة المادية هي التعبير الملموس والمحسوس عن النمط السلوكي تجاه العقيدة والتقاليد والعرف والممارسات الاجتماعية الأخرى، وهذه الثقافة تأخذ طريقها نحو التشكيل بخبرة الجماعة، وحس الأفراد، إلى التعبير عن احتياجاتهم العملية والمعيشية والروحية. وهذه الثقافة الفنية والمادية هي السمة الجمالية، والإبداعية البيئية التي تعرف الإنسان الجمعي وبيئته الخاصة»(٤).

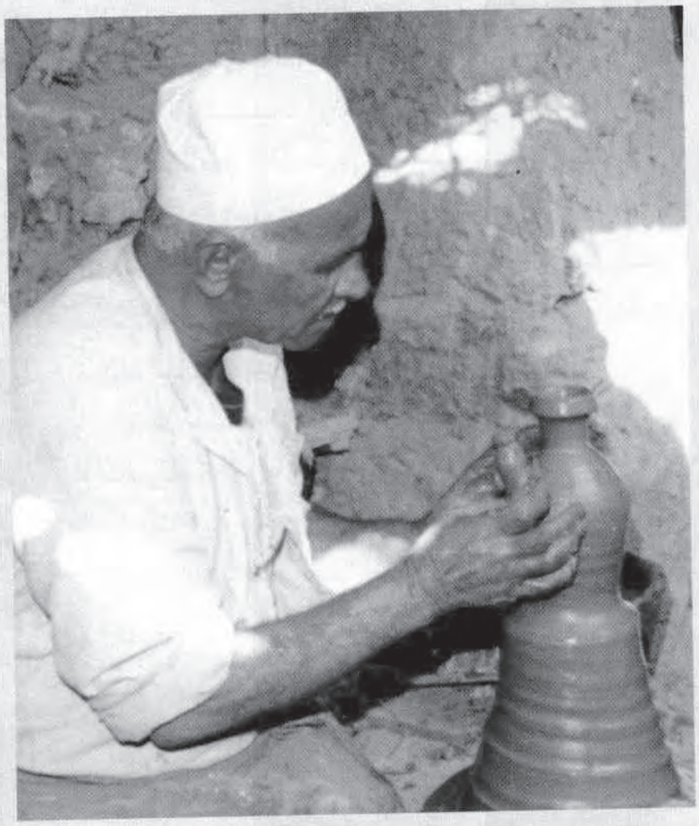


أوانٍ شعبية سعودية من الفخار

ومن أهم منتجات الفخار: القلل والأباريق والدوارق والأزيار التي تستخدم لحفظ المياه، والقدور والجرار والأطباق التي تستخدم لحفظ الطعام، وأطقم الشاي والقهوة كالأكواب والفناجين، والمباخر، والمسارج، والمواقد التي تستخدم للتدفئة، وأوانٍ لحفظ الحبوب والغلال، وأصص الزرع وحجارة الشيشة (النرجيلة)، والقواديس التي تستخدم في بناء أبراج الحمام، وفي تجميل الأسوار والمباني، ومواسير الصرف الصحي، والتحف ولعب الأطفال الشعبية وغيرها.

طريقة صناعة الفخار

توضع كميات الطين الجافة في حفرة مستطيلة الشكل تسمى (الكوز) تبلغ مساحتها ٣ أمتار



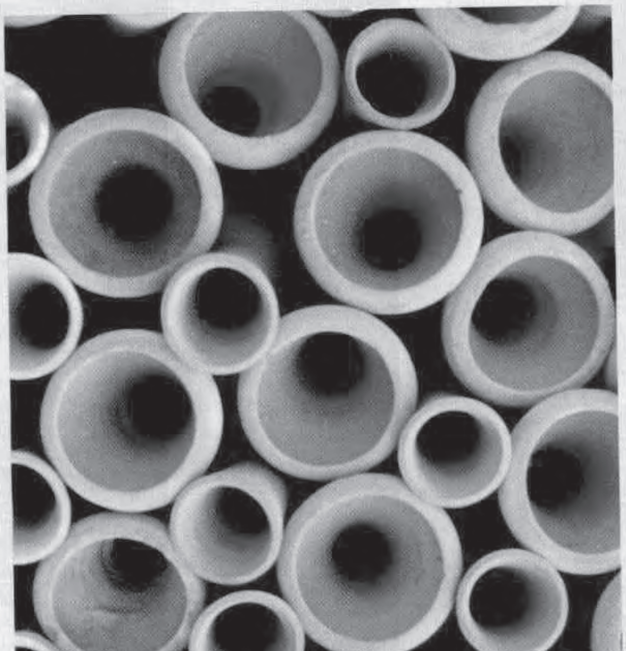
عامل يقوم بتشكيل الأواني الفخارية



أوانٍ فخارية بعد تشكيلها



حفر الرسوم على صحن من الفخار قبل إدخاله الى الفرن



طريقة رص منتجات الفخار في الأفران

عرضًا × ٤ أمتار طولاً، كما يراوح عمقها ما بين ١٠٠ - ١٥٠سم، وتكون في الهواء الطلق، ويوضع فوقها الماء، وتخلط به حتى يصبح قوامها سائلاً ومتماسكًا كالعجينة، ويقوم بهذه العملية عامل ينزل إلى الحفرة (الكوز) وهو عاري الجسد، ويخلط الطينة بأرجله، ويذيبها بتحريكه للمياه بأذرعه، وبعد ذلك يقوم العامل بنقل الطينة السائلة إلى أحواض أخرى مستخدمًا «غربالاً» مصنوعًا من الصاج كمصفاة لحجز أي شوائب أو أحجار عالقة بها، وتظل هذه الطينة في الأحواض لمدة تراوح من عشرة أيام إلى شهر حسب درجة حرارة الطقس، ثم يأتي أحد العمال، ويقسّم الطينة مربعات مستخدمًا بوصة طويلة حتى يتسنى للهواء أن ينفذ إلى باطنها معجلاً بجفافها، ثم تنقل الطينة اليابسة في شكل قطع مستديرة، وترص على حافة الأحواض تمهيدًا لنقلها إلى المصانع لتشكل على الدواليب (عجلة الفخار) بأشكال المنتجات المختلفة.

ودولاب الفخار (عجلة الفخار) طبلية خشبية مستديرة قطرها متر، وتدور حول عمود حديدي يثبت على الأرض، ومائل إلى الخارج بمقدار خمس درجات، ويعلو هذا العمود قرص آخر من الحديد قطره ٢٠سم، يضع العامل عليه الطين، ويدير الطبلية الخشبية السفلى بأرجله، بينما يستخدم يديه في تشكيل المنتجات والمشغولات المطلوبة.

ثم تنقل المنتجات، وتعرض للشمس والهواء، وتترك لتجف تمامًا، وبعد ذلك تنقل إلى الأفران، وترص بها بمهارة عالية، ثم تبدأ عملية حرق الفخار التي تستمر مدة ٢٨ ساعة متواصلة، ثم يترك الفرن مدة ثلاثة أيام لكي يبرد تدريجيًا، وبعد ذلك يفتح الفرن، ويتم إخراج المشغولات الفخارية منه في شكلها النهائي.

وتظل صناعة الفخار لغة تشكيلية جمالية لها مفرداتها وأساليبها التعبيرية التي تتعمق في البعد الإنساني، ووسيلة تعبير ولغة حوار مشترك بين أفرادها وواقعهم المادي والحسي، كما تظل أيضًا تعبيرًا عن أصالة إبداع الجماعة الإنسانية وموروثاتها الفنية والجمالية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتراث التاريخي، وبالبيئة التي خرجت منها، وتراثًا تتناقله وتتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل في تواصل مستمر حي ومتجدد.

المراجع

١- انظر: BLACKMAN, W.S. LES FELLAHS DE LA HAUTE EGYPTE (PERIS 1984)
٢- د. حسن الباشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة.
٣- ناصر خسرو: سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م.
٤- د. هاني إبراهيم جابر: الاستلهام والتوظيف في الفن التشكيلي، مجلة الفنون الشعبية، العدد ٤٣، أبريل/نيسان ١٩٩٤م، مصر.



نماذج من الفخار المكسيكي

الثعابين:
انعزالية خجولة، ولكنها قاتلة!!

خاص: الفيصل

تتميز الثعابين بخاصية فريدة قلما تجدها في غيرها من الحيوانات، فمع خطورتها والخوف منها والقشعريرة التي تصاحب رؤيتها أو حتى مجرد التحدث عنها، فهي في الوقت نفسه،ذات جاذبية خاصة لغريزة حب الاستطلاع الكامنة في الإنسان.



فما إن تعرض حية كما حدث في جناح المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات بالجنادرية حتى تشنف الآذان للسماع عن أنواعها وخطورتها وطباعها الغامضة. ولكي تشبع هذه الرغبة لدى القراء ننشر هذا الاستطلاع عن الثعابين والعقارب، وعن المركز الوحيد الذي ينتج أمصالاً لها في منطقة الخليج العربي، ويمد المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون باحتياجها من هذه الأمصال؛ لأن الثعابين من الحيوانات الانعزالية الخجولة والغامضة؛ فإن عدداً من الأساطير والروايات تناولتها بالكثير من المبالغة، ونسج القصص الخيالية.. فمن قائل: إن الثعابين تطير، إلى من يقول: إن أنثى الثعبان تلاحق قاتل زوجها حتى تنال منه. والحقيقة أن الثعابين من الزواحف، وهي غير قادرة على الطيران بل لا تكاد تسير بحركة دودية أو جانبية.. والثعابين ليس لها حياة أسرية، بمعنى أن الذكر يلقح الأنثى ويذهب في حال سبيله، فكيف يحظى بزوجة مخلصة تلاحق من يقتله؟!.

لا صراع مع الثعبان

يُؤكد هذه المعلومات المدير العام للمركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات الصيدلي محمد بن سليمان الأحيدب الذي يشير إلى أن من أغرب ما نقرؤه في الصحف اليومية من عناوين مبالغ فيها تلك التي تقول: «بعد صراع مثير مع ثعبان شرس فلان يقتل الثعبان وينقذ علاناً». والواقع الواضح أن غالبية الثعابين سواء السامة أو غير السامة ليس لديها لا الشجاعة ولا الإمكانيات للدخول في صراع مع إنسان باستثناء الثعابين ذات الأحجام الكبيرة التي قد تتعامل مع الإنسان على أنه فريسة، وتدخل مع فريستها في صراع تخرج بعده منتصرة في الغالب وهذه لا توجد في المملكة والدول المجاورة، فهي من الضعف بحيث ترغب دائماً في تحاشي الإنسان والهروب منه. لذلك، فهو ينصح دائماً بإحداث نوع من الحركة أو الاهتزاز في أثناء السير ليلاً أو في الأماكن التي تكثر فيها الثعابين؛ لأن

الثعبان - وهو أصم - عندما يشعر بالاهتزازات الحركية يبادر بالهرب محاولاً تجنب الصدام، أما إذا ابتلي بمن يطؤه بقدمه أو يضربه بعصا قصيرة فإنه سيحاول ترك بصماته على المعتدي بعضة أو خدشة تحفظ ماء وجهه في آخر أيام حياته تماماً مثلما تفعل أظافر كاعب صفعها فظٌ غليظ القلب، قوي الجسد، ولا حيلة لها إلا غرس أظافرها في وجهه.

ولا يعني تصوير الثعابين على أنها مخلوقات خجولة وباحثة عن السلم أنها غير قاتلة أو غير سامة، فالثعابين تنقسم من حيث السمية إلى ثعابين شديدة السمية، وثعابين شبه سامة، وثعابين غير سامة، ويحدد ذلك وجود الأنياب، وموقعها في الفك، وهل هي أمامية أو خلفية، وهو موضوع يطول شرحه، كما أن محاولة القارئ التأكد من وجود الأنياب، قد يكلفه حياته.

صائد الضب ومصير كليوباترا!

والمملكة، لكونها مساحة شاسعة من الصحاري والأودية والجبال والسهول والكثبان الرملية، تعيش فيها أنواع كثيرة من الثعابين السامة، وغير السامة، وشبه السامة. ويكفي تعداد الأفاعي والثعابين التي تعيش في المملكة، وتسبب مشكلة طبية لسكانها لمعرفة تعدد الأنواع حسب اختلاف البيئات. ففي المملكة توجد حية أم جنيب أو الحية القرنة التي تعيش في البيئات الرملية، وحية السجاد الشرقي (الحية الرقطاء) التي تكثر في المناطق الصخرية في المنطقة الوسطى، وابنة عمها حية الطفى المنشارية التي تعيش في الجبال، وبين الصخور في المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية، إلى جوار حية أخرى شديدة الخطورة هي الحية النافثة. كما ينتشر الصل الأسود أحد أخطر الثعابين في العالم على الإطلاق الذي يوجد في عدد من البيئات الصحراوية التي يعيش فيها الضب ذلك الحيوان الذي تهوى صيده شريحة كبرى من شباب المملكة بإدخال اليد في الجحر الذي قد يحل بداخله ثعبان الصل ضيفاً ثقيلاً على الضب وهواة صيده، ويشكل خطورة بالغة، فقد يلقى صائد الضب مصير كليوباترا التي يعتقد أن قاتلها هو الصل الأسود، كما ورد في الأساطير.

وتوجد في المملكة العربية السعودية الكوبرا العربية في المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية، وتشكل هي الأخرى خطراً شديداً يهدد سكان تلك المناطق. كما ينتشر في صحارى المنطقة الوسطى والمنطقة الشمالية والجنوبية على حد سواء ثعبان أسود صغير يطلق عليه الثعبان الأسود أو (البثن) كما يسميه العامة، ولعل هذا الثعبان يحاول إقناعنا أن الحجم لا يمت إلى القدرات بصلة، فمع أنه صغير ودقيق جداً، إلا أن سمه زعاف لا يمهل ضحية من ضحاياه ربع ساعة؛ لذا فقد قال العامة عن خبرة: «البثن» عضته والكفن. ومشكلة المملكة مع الوفيات من جراء لدغات العقارب وعضات الثعابين كانت هاجساً يومياً تعيشه المملكة منذ أن أجريت دراسات إحصائية لأعداد ونسب الوفيات بين ضحايا هذه المخلوقات السامة، ووجد أن هذه النسب مرتفعة جداً مقارنة بارتفاع مستوى الخدمات الصحية وتميزها من دول أخرى تقل فيها نسب الوفيات عن المملكة، ووجد أيضاً أن تلك الدول تتميز بأنها تحضر أمصالاً محلية تعادل سموم الثعابين والعقارب التي تعيش فيها.



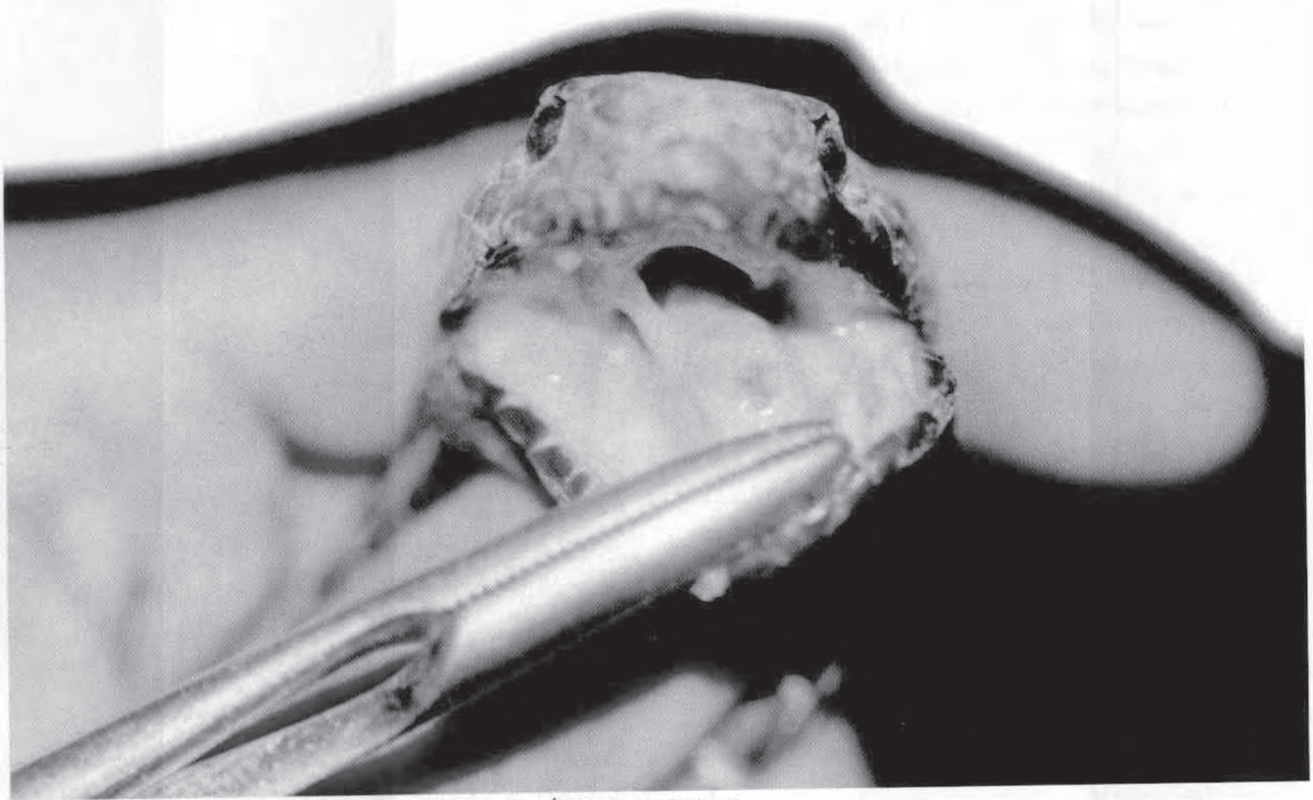
أفعى أم جنيب

سموم وأمصال

وقد نوقش موضوع ارتفاع نسب الوفيات جدياً في عدد من الاجتماعات والندوات المتخصصة التي كان آخرها المؤتمر العالمي حول التطورات الحديثة في مجال العلاج بالأمصال الذي عقد في مستشفى الملك فهد للحرس الوطني بالرياض في ٢٧ شوال عام ١٤٠٨هـ الموافق ١١يونيو/حزيران عام ١٩٨٨م، حيث أكدت توصياتها ضرورة أن تتبنى إحدى الجهات في المملكة إنتاج أمصال محلية عالية الكفاءة لمعادلة سموم الثعابين والعقارب المنتشرة في المملكة، فإنّ ذلك هو الحل الوحيد بناء على حقيقة علمية تقول إن سموم الثعابين والعقارب يتغير تركيبها حسب بيئاتها، وعليه، فإن تحضير الأمصال لها لابد أن يتم باستخدام سموم الثعابين والعقارب نفسها المأخوذة من البيئة نفسها، وأن المصل المستورد لا يعادل سموم الثعابين والعقارب المحلية؛ لأنه حضر لسموم ثعابين مشابهة تعيش في بيئات مختلفة عن بيئة شبه الجزيرة العربية.

المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات

ومنذ ذلك الوقت، أصبح إنتاج أمصال محلية هو هاجس المختصين في هذا المجال حتى تبنى الحرس الوطني بوصفه مؤسسة حضارية، وبتوجيهات من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني، ومتابعة مستمرة من لدن صاحب السمو الملكي الأمير بدر بن عبدالعزيز نائب رئيس الحرس الوطني، إنشاء المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات بالحرس الوطني الذي بدأ عام ١٤١١هـ بتسيير رحلات مكثفة لجمع الثعابين والعقارب من بيئاتها المختلفة في المملكة، وتمكن مع نهاية صيف عام ١٤١٢هـ من جمع الأعداد الكبيرة اللازمة من أنواع الثعابين والعقارب المختلفة في جميع مناطق المملكة بعد أن قام فريق الصيد التابع للمركز بأكثر من مئة رحلة شملت جميع البيئات المختلفة في المملكة، وفي أثناء هذه المدة تم إنشاء مرافق المركز



تهيئة الثعبان لأخذ السُّم



أخذ سم الثعبان الخطوة الأولى في إعداد المصل الواقي



أم جنيب أو الحية المقرنة

المختلفة بدءاً بحظيرة الحيوانات السامة وانتهاء بمناطق التعبئة المعقمة وتجهيزها بأحدث الأجهزة المتخصصة في مجال تحضير الأمصال وتعبئتها، إلى أن أصبح المركز الآن مرفقاً حضارياً يشار إليه بالبنان على مستوى الشرق الأوسط، فهو الوحيد في منطقة الخليج، والثاني في الشرق الأوسط من حيث تاريخ الإنشاء إلا إنه يتميز بالتخصص والتقنية العالية، وإنتاج أمصال متخصصة وأخرى عديدة الكفاءة، تتميز جميعها بانخفاض نسبة البروتين إلى ١٪، بينما الأمصال المستوردة تزيد نسبة البروتين فيها على ٦٪، كما يتميز المركز بإنتاج مصل متخصص لسم الصل الأسود الذي لم يحضر له مصل على مستوى العالم.

مرافق المركز

وتتعدد مرافق المركز، لكل منها دوره في مجال الإنتاج والبحث والجودة النوعية والتوعية والتعريف.

منطقة التحضير: هذه المنطقة هي المرفق الأساسي في المركز، وفيها يتمّ التحضير، والمعالجة الكيماوية، والتعبئة النهائية، وهي تتكون من عدة مناطق، لكل منها دور أساسي في سلسلة طويلة حتى ينتهي المنتج في صورته النهائية في زجاجات معقمة.

مختبرات الجودة النوعية: تعمل بصورة مستقلة، ويتركز عملها على التأكد من جودة المنتج وفاعليته بعد التعبئة.

مختبر الأبحاث والتطوير العلمي: وهو مختبر مزود بأجهزة عالية الدقة والتقنية، وتجري في هذا المختبر جميع أبحاث تطوير الأمصال، والتغلب على الصعوبات، ودراسة جزئيات السم، وفصل الجزء السام من هذه الجزئيات المتعددة، وإلى هذا المختبر والعاملين فيه يعود الفضل في النجاح الباهر الذي تحقق سواء في رفع كفاءة الأمصال أو انخفاض نسبة البروتين فيها.

إسطبلات الخيول: وفي هذا المرفق يحتفظ المركز بما يزيد على ٩٥ رأس خيل تحظى بعناية فائقة سواء من حيث النظافة العامة أو المتابعة الطبية، إذ توجد عيادة بيطرية، وغرف إعطاء التطعيمات، وغرف سحب الدم، وفيها يتم إعطاء الخيل جرعات صغيرة جداً غير سامة من السم، وحثّ دمه لإنتاج مضادات أجسام، ومن ثم سحب الدم بكميات لا تضر بالخيل مطلقاً، وتشبه تماماً التبرع بالدم عند الإنسان حيث يعطي الخيل الدم، ويعيش حياة طبيعية نشيطة.

حظيرة الحيوانات السامة: وهذا المرفق يحظى بشعبية كبيرة جداً حيث يقصده الزوار من كل مكان؛ لأنه يحتفظ فيه بأعداد كبيرة من أنواع الثعابين والعقارب المختلفة وتجري فيه عملية سحب السم من الثعابين والعقارب، ومن ثم تغذية الثعابين والعقارب والعناية بها، كما تحتوي حظيرة الحيوانات السامة على مختبرات خاصة لمعالجة السم وتحويله من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة «بودر»، ومن ثم دراسة الجرعات القاتلة من السم وقدرة المصل على معادلتها.

بيت الحيوانات: في هذا المرفق يحتفظ المركز بأنواع من حيوانات التجارب التي تستخدم في دراسة السم والمصل وإجراء اختبارات الجودة والنوعية مثل الفئران الألمانية البيضاء، والجرذان البيضاء، والأرانب النيوزلندية، وغيرها من الحيوانات التي تستخدم في تغذية الثعابين.

مع أن النشاط الرئيس للمركز هو إنتاج الأمصال، إلا أن له نشاطات أخرى مهمة منها أن المركز وضع ضمن أهدافه الأساسية إضافة إلى الإنتاج وتغطية احتياجات المملكة ودول الخليج والدول المجاورة من الأمصال العالية الكفاءة، وضع أهدافاً أخرى لا تقل أهمية، ومنها على سبيل المثال، الإسهام في عمل اتفاقات (بروتوكولات) علاجية لحالات التسمم بسموم الثعابين في المملكة، وبطبيعة الحال، فإن هذا سيتم بالتنسيق مع المختصين في وزارة



الصل الأسود من أخطر الثعابين في العالم ولا يوجد له مصل إلا في المركز الوطني بالمملكة

الصحة حيث سبق لأحد منسوبي المركز الإسهام بدور أساسي في إعداد بروتوكولات علاج لدغات العقارب في المملكة، وقد أقر هذا البروتوكول، وعمم على الجهات الصحية، وهو مطبق الآن.

أيضاً يهدف المركز إلى تكثيف التوعية بخطورة الثعابين والعقارب، وكيفية تلافيها، وطرق التعامل مع الإصابة، وإجراء الإسعافات الأولية، إلى جانب إطلاع المتخصصين من أطباء وصيادلة ومسعفين على أفضل الإجراءات (الإكلينيكية) للتعامل مع لدغات العقارب وعضّات الثعابين حسب الأنواع المختلفة، وتعريفهم بأنواع الثعابين والعقارب، والتأثير الغالب لسمومها، وطريقة إيقافه بإعطاء المصل من ناحية، وغلق بعض التأثيرات باستخدام الأدوية المناسبة من ناحية أخرى؛ ليتحقق إنقاذ المريض - بإذن الله - وقد قدم المركز بصدد هذا عشرات المحاضرات في كل سنة لجهات صحية متعددة حتى أصبح الطلب على إعطاء محاضرات من هذا النوع كبيراً جداً من المستشفيات الحكومية والخاصة داخل المدن، وفي القرى. كما أن المسؤولين - منذ إنشاء المركز ودراسة الحالات - قاموا بتوزيع أرقام النداء الخاصة بهم في المستشفيات المختلفة، وزوّدوا الكتيبات الصادرة من المركز برقم النداء، وأرقام الهواتف لعرض المساعدة في حالات اللدغ للتعرف إلى الثعبان أو العقرب، وتقديم المعلومات التي تساعد في أسرع علاج وأفضله.

ويقول د. الأحيدب: في البداية كنا نتلقى الاتصال من مستشفى الملك فهد للحرس الوطني بالرياض، حيث نعمل ،حتى أصبحنا نطلب بمجرد وصول المصاب وقبل اتخاذ أي إجراء، أما الآن فقد انتشر الرقم أكثر، وأصبحنا نتلقى الاستشارة من مستشفيات القطاعات الأخرى خارج الرياض وداخلها خلال الأربع والعشرين ساعة، ونحن سعيدون بذلك مع ما نعانيه في أثناء الصيف على وجه الخصوص من كثرة طلب الحضور، وبخاصة أننا كنا ثلاثة من المؤهلين في هذا المجال وأصبحنا اثنين فقط الآن، وأقصد من هم مؤهلون لإعطاء الرأي الطبي المتخصص، ومع ذلك، فإن هذا الدور من أحب الأدوار إلى نفسي ونفس زميلي الدكتور عاطف عبدالسلام حيث باشرنا خلال شهر (تموز) يوليو الماضي فقط أكثر من ست عشرة حالة.

مواقف محرجة وطريفة

وعند أدائنا لهذا الدور تعرضنا لمواقف طريفة، وأخرى محرجة، وهي كثيرة جداً، ولا أنسى منها موقفاً يجمع بين الحرج والحزن معاً، حيث جاءتنا مكالمة عاجلة من المستشفى الوطني بالرياض تفيد بأنهم استقبلوا ملدوغاً بالصل الأسود، وأن حالته خطيرة، وليس لديهم المصل، ويريدون منا إرسال المصل حالاً أملاً في إنقاذ حياته، ولعلمنا بخطورة هذا الثعبان وسرعة قتله، قمنا بطلب سيارة إسعاف، وأخذنا المصل والمستلزمات كافة، وفي الوقت نفسه كان الدكتور محمد إسماعيل حامد رئيس تطوير الأبحاث والجودة النوعية في المركز يتحدث مع طبيب بيطري يعمل في حديقة الحيوان بالرياض، حيث لدغ الشخص ليتأكد منه من نوع الثعبان، وهل هو الصل الأسود فعلاً؟ وأكد له الطبيب البيطري أنه يعرف الثعبان، وأنه الصل الأسود المسمى بكوبرا الصحراء.. توجهنا على الفور وأكدنا لسائق الإسعاف أن الحالة عاجلة جداً، وكان سائقاً سعودياً ماهراً استطاع أن يوصلنا خلال أقل من عشر دقائق مع أن الوقت كان الواحدة ظهراً موعد خروج طلاب المدارس، والمسافة بين موقعنا في خشم العان وموقع المستشفى الوطني بالملز ليست قصيرة، وعندما وصلنا غرفة الطوارئ وجدنا المريض في الرمق الأخير وبدأنا في إعطائه المصل والإسعافات اللازمة لإيقاف تدهور حالته، وفي هذه الأثناء كان الطبيب البيطري للحديقة يتحدث مع الدكتور عاطف معيداً وصف الثعبان، وأصبح لدينا شك في أن يكون الصل الأسود، فطلبت من الدكتور عاطف أن يذهب مع سائق الإسعاف



إلى حديقة الحيوان لإحضار الثعبان.. وعندما أحضر الثعبان كانت المفاجأة أنه الثعبان الأسود، وهو نوع آخر غير الصل، وسميته شديدة جداً، ويقتل خلال دقائق معدودة، وما هي إلا دقائق قليلة بعدها حتى لفظ المصاب نفسه الأخير، وكان شاباً قوي البنية وصل حديثاً من إحدى دول شرق أوروبا ليعمل مسؤولاً عن الزواحف في الحديقة.

وقد حزنا كثيراً لذلك الشاب، حيث لم يكن في مقدورنا إنقاذه، فقد سقط أرضاً بعد اللدغة بخمس دقائق دخل بعدها في غيبوبة حتى مات.

أما الموقف الآخر، فقد حدث معي في إحدى ليالي الجمعة، وبالتحديد الساعة الثالثة والنصف فجراً، عندما ارتفع صوت النداء يحمل رقم غرفة الطوارئ، والاتصال أفادوني أن لديهم ملدوغاً بعقرب، وتوجهت على الفور، ووجدت امرأة في الثامنة والعشرين من العمر تشكو من أن العقرب لدغها في القدم اليسرى، ولكن لا يبدو عليها أي أعراض، كما أنها لم تشاهد العقرب في وقت الإصابة، لكن والدتها شاهدت العقرب في ليلة سابقة في الموقع نفسه، وبفحص القدم بدقة وجدت بقايا شوكة نبات صحراوي، وتمَّ إخراجها، واتضح أن العقرب لا علاقة له بما حدث، وتركناها فترة وجيزة للتأكد والاطمئنان، ثم خرجت.

أما الموقف الطريف فقد واجهه زميلنا الدكتور محمد عاطف أبو زيد حيث استدعي لغرفة الطوارئ نتيجة حضور مصاب بحية أم جنيب كبيرة جداً، وقد قتل أقاربه الحية، وأحضروها لنتعرفها، وحصل التعرف، وبدأ الدكتور عاطف في إعطاء التعليمات، وما لبث أن سمع صراخ المرضات ومن حولهن، ودبت حالة هلع شديدة في غرفة الطوارئ، واتضح أن الثعبان تحرك داخل الكيس حيث لم يكن قد قتل تماماً، فتم قتله، وتم في الوقت نفسه - ولله الحمد - إنقاذ المريض الذي كان قد جاء في حالة صعبة جداً، حيث تورمت ذراعه، وأصبح ثلاثة أضعاف الحجم الطبيعي، مما يدل على تسمم شديد، ولكن بعد أن أعطي المصل شفي تماماً - ولله الحمد - وخرج من المستشفى في وقت قياسي.

منتجات المركز

ينتج المركز ستة أنواع من الأمصال كما يلي:

- مصل متعدد الفاعلية لمعادلة سم الثعابين جميعاً محضر في الخيل، ويغطي سموم الثعابين السامة في المملكة والدول المجاورة.
- مصل متعدد الفاعلية لمعادلة سم الثعابين جميعاً، ولكنه محضر في ذكور الماعز، لاستعماله لعلاج من لديهم حساسية لمصل الخيل.
- مصل متعدد الفاعلية لمعادلة سموم العقارب محضر في الخيل.
- مصل متعدد الفاعلية لمعادلة سموم العقارب محضر في ذكور الماعز.
- مصل متخصص لمعادلة سم الصل الأسود، وسم الكوبرا العربية بكفاءة عالية جداً محضر في الخيل.
- مصل متخصص لمعادلة سم الصل الأسود، وسم الكوبرا العربية بكفاءة عالية جداً محضر في الماعز.

وسم الصل الأسود، وسم الكوبرا العربية مشمولان في المصل المتعدد الفاعلية، ومع ذلك تم تحضير أمصال متخصصة لها نظراً لخطورتها.

المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات: تميز في التقنية وريادة في انتاج مصل الصل الأسود



جانب من حظيرة حفظ الأفاعي والثعابين السامة حية



منتجات المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات بالحرس الوطني

* نشكر الأخوة القائمين على أمر المركز الوطني لإنتاج الأمصال واللقاحات لما أبدوه من تعاون كبير في إعداد هذا الاستطلاع وعلى رأسهم مدير المركز الصيدلي محمد ابن سيلمان الأحيدب.

مقالات

الشعر وقضايا علم الحديث ومسائله

محمد رستم

ليس بعازب عن أذهان الباحثين ما للشعر من وظائف سامية اضطلع بالقيام بها منذ عهود الأدب الغابرة إلى يومنا هذا، فقد كان هذا الضرب من القول وسيلة لشحذ الهمم، وإيقاظ الضمائر، وبعث المستكن في العزم الفاتر، كما أنه كان وسيلة لأغراض النَّفس الإنسانية من هجو ومدح، وإفصاحٍ عن هوى، وتعبيرٍ عن شعور جميل، وإبرازِ لحكمةٍ بليغة، ومثلٍ سائر، وعتابٍ لزمن، وشكوى من حبيب إلى آخره.

ومضى هذا القريض يشق طريقه بين فئات مختلفة من أهل العلم، قائماً بأداء معاني العلوم التي اشتهرت بينها على أحسن وجهٍ، وأجمل طريقة. وكان من بين هؤلاء الفقهاء والمحدثون، وعلماء الكلام والعقيدة، ومؤرخو السيرة، والمتخصصون في القراءات واللغة والبيان وهلم جرّاً.

وكانت عناية أهل الحديث بالشعر عظيمة حفظًا لعيونه، واستشهادًا بجيِّده، وتوسعًا في روايته، ونبوغًا في تعاطيه وقوله(١).

ولسنا نُبعد النُّجعة إذا قلنا: إن الشعر قَدْ خدم أهل الحديث خدمةً جُلّى لَمَّا جادَت قرائحهم بنظم المنظومات العلمية المطوَّلة التي تُقرِّب شارد علم الحديث، وتُذلِّل صعبه، وتبرز مسائله وقضاياه في أبيات يسهل حفظها على الشادين، ويتيسر وعيها عند المبتدئين، وتكون بعدُ موضوع شروح وتعليقات العلماء المنتهين.

وإذا نحن أمعنا النظر في ظاهرة النظم التَّعليمي عند أهل الحديث وجدناها قد مرت عبر طَوْرين أساسيين:

الطور الأول: وفيه اقتصر أهل الحديث على نظم مصطلحات علم الحديث وتضمينها في قصائد ومقطَّعات.

الطور الثاني: وفيه أقبل علماء الحديث على نظم المنظومات العلمية المتخصصة في بيان مصطلح الحديث وفنونه.

وأحسن من يمثل الطور الأول الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فَرْح الإشبيلي المتوفى سنة ٦٩٩هـ(٢)، الذي نظم قصيدته السائرة بين العلماء باسم «الغرامية» والتي احتوت غالب أنواع الحديث(٣) وهي في جملتها تتكون من عشرين بيتًا افتتحها صاحبها بقوله:

غرامي «صحيح» والرجا فيك «مُعْضَل»
وحزني ودمعي «مرسلٌ» و«مسلسل»

ومن خلال قراءة متأنية للقصيدة تعنّ الملاحظات الآتية:

- لم يقصد النَّاظم إلى شرح أنواع الحديث، والاستطراد إلى بيانها في تعريفات وحدود، وإنما كان قصده إيرادها على وجه الإشارة إليها والإيماء.

- تنسجم المصطلحات الحديثية مع رُوح الشِّعر التي تقوم

القصيدة على أساسها انسجامًا تامًا يجعلها تنسكب في موسيقى مونقة، تَخْلُبُ اللُّب، ويطرب لها السمع، فلفظ غريب في قوله:

«غـريبٌ» يقـاسي البـعـد عنك، ومَـا لَهُ
وحَـقِّكَ، عن دار القِلى مـتـحـوَّلُ

لا يُشعر القارئ بأنَّ مراد الناظم الإشارة إلى النوع المسمى بالحديث الغريب(٤)، والذي يسبق إلى الفهم من هذا البيت وصفُ ما يلاقيه مُحبٌ بعيد عن حبيبه، قد طوَّحته النوى بدار يقاسي فيها مرارة القلى، وحُرقة الهجران.

وقس على هذا البيت قوله:

وهَا أنا في أكـفـان هجـرك «مُـدرَجٌ»
تُكلفني مـالا أطيق فـأحْـمِلُ

فلا يرتاب متذوقٌ للشِّعر أنَّه أمام لوحة فنية رائعة، يرى فيها النَّاظم ملففًا في أكفان هجران حبيبه، مدرجًا فيها، يقاسي ما لا طاقة لَهُ به، ومع ذلك فهو صابرٌ متجلد؛ لأنه ليس له من أمره شيء، ولا يذهبن بعدُ ـ من هذا كله ـ مقصود الناظم في إشارته إلى النوع المسمى «مدرج الحديث»(٥)، والقصيدة بطولها تنحو هذا النسق البديع.

ـ يستعين الناظم في أداء المعاني بأنواع كثيرة من البديع، مما يُظهر دُرْبته في هذا العلم، وطول نَفَسه فيه، وتمكنه من مادته، فهو مثلاً في قوله:

أقـضي زمـاني فـيك «مـتَّـصِلٌ» الأسى
و«منقطعًـا» عَـمَّـا بـه أتوصل

يطابق بين «متَّصل» و«منقطع» جامعًا بينهما في مقابلة ينساب لها الكلام انسيابًا.

ـ قد يذكر الناظم في البيت الواحد عددًا من المصطلحات الحديثية، لكنَّه يترفق في إيرادها مُفتنًا، بحيث لا يؤثر في حسن الرَّصف، وجزالة اللفظ، ورشاقة المعنى، انظر إليه يقول:

فـ(مـتَّـفق) جـفني وسُـهـدي، وعَـبـرتي
وَ(مُـفـتـرق) صـبـري و(قلبي) المُبَلبل

فقد اشتمل البيت على ثلاثة أنواع من علوم الحديث، وهي المتفق والمفترق(٦) والمقلوب.

كانت عناية أهل الحديث بالشعر عظيمة، حفظًا لعيونه، واستشهادًا بجيده، وتوسعًا في روايته، ونبوغًا في تعاطيه وقوله



غلاف «ألفية الحديث»

ـ يوغل الناظم في استعمال الصور المادية، والرموز الحسية تلطفًا في بيان شدة وجده، وعظيم عشقه، فتبدو أبيات قريضه لوحات مجسدة نابضة بالحركة والحياة.

فالمستمع إليه يقول:

وأجـريتُ دمـعي فـوق خـدِّي «مُـدبَّجًـا(٧)»
ومـا هي إلا مـهـجـتي تتـحـلل

يتمثل الناظم أمامه وقد اغرورقت عيناه، وجرت دموعه على خدِّه، وهو في ذلك مُروَّع القلب، دائب المُهجة.

وقلَّ مثل ذلك في قوله:

فـرفـقًـا بـ (مـقطوع)(٨) الوسـائل مَـالَه
إليك سـبـيلٌ، لاَ، ولاَ عنك مـعـدل

وبعدُ فليس من غرضنا ـ في هذه العُجالة ـ تحليل هذه القصيدة تحليلا أدبيا، ينسينا مكانتها عند أهل الحديث، ولوعهم بها حفظًا ودراسة وشرحًا، لذلك نشير إلى أنه رواها عن ناظمها كبار الحفاظ كالدمياطي (ت:٧٠٥)، واليونيني (ت:٦٥٨هـ) (٩)، كما أقبل جمعٌ من العُلماء على شرحها، وحلِّ مشكلها، وبيان غامضها، ومن بينهم:

ـ العلامة عز الدين بن جَماعة (٧٤٩ ـ ٨١٩هـ)، الذي وضع عليها ثلاثة شروح من بينها شرحه الذي سماه «زوال النزح عن منظومة ابن فرح»(١٠).

ـ شرح محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي المتوفى سنة ٩٤٢هـ(١١).

ـ شرح العلامة قاسم بن عبدالله بن قُطلُوبُغَا الحنفي المتوفى سنة ٨٧٩هـ (١٢).

ـ شرح العلامة عمر بن عبدالله بن عمر الفهري الفارسي (١١٨٨هـ) الذي سمَّاه «المقترح في شرح أبيات ابن فرح»(١٣).



غلاف شرح ألفية العراقي

وإذا انتقلنا إلى الطور الثاني الذي مَرَّ به النظم التعليمي عند أهل الحديث، وجدنا أشهر منظومات العلم تتكون من:

- «التبصرة والتذكرة»، وهي منظومة في ألف بيت للإمام الحافظ عبدالرحيم بن الحسين العراقي (٨٠٦ هـ)، وقد ضمَّنها كتاب ابن الصلاح، وتَعَقَّبَهُ مع زيادات ضافية، وفوائد ممتعة نافعة.

- الهداية في علوم (علم) الرواية، للعلامة الحافظ شيخ القراء في زمانه شمس الدين أبي الخير محمد بن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ(١٤).

- ألفية الحديث للإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ.

- المنظومة البَيقونية لعُمر بن محمد بن فتوح البيقوني الدمشقي ١٠٨٠هـ، وهي في ستة وثلاثين بيتًا، و«تمتاز بعذوبة النَّظم، وسهولة العبارة، حتى إنَّها لتصلح مذكرة للطَّالب في هذا العلم»(١٥).

- منظومات نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر للحافظ أحمد بن علي بن حجر ٨٥٢ هـ. ومن بين أشهرها:

أ - نظم نخبة الفكر في علم الأثر لحمد بن محمد بن حسن التميمي (٨٢١هـ)(١٦).

ب - عقد الدرر في نظم نخبة الفكر: نظم الشيخ أبي حامد محمد العربي الفاسي (١٠٥٢هـ)(١٧).

ج - قصب السكر نظم نخبة الفكر: للعلامة محمد بن إسماعيل الصَّنعاني ١١٨٢هـ، وقد طبعت مع شرح عبدالكريم ابن مراد الأثري عليها(١٨).

وبقراءة لأهم هذه المنظومات، تتضح المعالم الأساسية التالية المميزة للنَّظم التَّعليمي عند أهل الحديث في القرون المتأخرة:

- معظم هذه المنظومات قد كُتب في عصور الركود الفكري في العالم الإسلامي الذي اعترى جميع المناحي العلمية، ومنها الحديث، وخاصة بعد القرن التاسع الهجري. «إلا أن ذلك لايعني التوقف والانقطاع، بل لأنه لم يظهر فيه كبير تجديد وإبداع، وليس هناك مشاركات كبيرة متميزة»(١٩).

وغلب على هذه المرحلة الفكرية طابع المشاركة في جميع العلوم الإسلامية من فقه وتفسير وقراءات ولغة ونحو، وبلاغة وتصوف «وهذه المشاركة في العلوم هي التي أوجبت تكثيف المعرفة في متون تُحفظ، أو منظومات تُتَداول يسهل الاطلاع عليها، وعلى أكبر قسط من فنونها وتخصصاتها، وأصبحت بين أيدينا كتب تضم عدداً من مختصرات العلوم تُسمى مجموعة المتون، وسرت المقولة: «من حفظ المتون نال الفنون»(٢٠).

- تناولت هذه المنظومات - في أغلبها - كتاب ابن الصلاح (ت:٦٤٣هـ) «معرفة علوم الحديث»، بالاختصار مع بعض الزيادات والاستدراكات مرافقةً بالتَّعَقُّبات والمناقشات، فالعراقي يقول:

نَظَمْتُها تذكرةً للمبتدي
تذكرةً للمنتهي والمُسْنِدِ
لخصت فيها ابن الصلاح أجمعَهْ
وزدتها علْمًا تَراه مَوْضِعَه(٢١)

- يختلف الأداء الفني في هذه المنظومات عن سابقه في الطور الأول، فهو يُعنى عناية خاصة بشرح المصطلحات الحديثية، والإتيان بمختلف التعريفات لأنواع علوم الحديث، مع ذكر الخلاف في قضايا المصطلح، وتحديد مواطن النِّزاع، والمتأمل في هذا الجانب يلاحظ:

أولاً - وجود ظاهرة تَعلُّق الأبيات بعضها ببعضٍ، ومن ذلك أمثلة كثيرة منها قول الصنعاني:

والطعن إمَّا أن يكون بالكذب
فسَمِّه «الموضوع» والتَّركُ يجب
أو تهمة كانت به لمَنْ روى
فإنَّه المتروك اسْمًا لاسِوى
أو غلط فيه يكون، فاحشًا
أو غَفلةٍ، أو يفعل الفواحشا(٢٢)

وظف علماء الحديث الشعر لتقريب شارد علم الحديث وتذليل صعبه، وإبراز وسائله وقضاياه

ثانيا ـ الاقتباس من الأحاديث النبوية لضرب الأمثلة، وتوضيح الغرض المقصود، ومن ذلك قول العراقي في تعريف «الحسن»:

والحَسَن المشهور بالعدالهْ والصدق راويه إذا أتى له
طُرُقٌ أخرى نحوها من الطرق صححته، كمتن «لولا أن أشق»(٢٣)

ثالثا ـ توافق آخر حرف من الشطر الأول، مع آخر حرف في الشطر الثاني من البيت الواحد، بأن يكون الحرفان من جنس واحد كقول الجزري:

ثم «المناولة» حيث قُرِنَتْ إجازة صحّت، وإلاّ بَطَلَتْ(٢٤)

أو يكون الحرفان قد توافقا في الحركة كقول الصنعاني:

فسمّه الأقران، ثمَّ إن أتى يرويه ذا، عَنْ ذا، وهذا عنه ذا
فإنَّه «مُدبَّجٌ» هذا ومَن يَرْويه عمَّن دونه، فلْتَعْلَمَن(٢٥)

ـ كان من نتيجة ما سبق أن كثر التعقيد اللفظي في بعض هذه المنظومات، ووُجدت للتكلف والغموض أمثلة كثيرة، مما دعا إلى وضع الشروح المختلفة عليها، وتفاوتت حدة التكلفة من منظومة إلى أخرى، فألفية الحافظ السيوطي أقل تكلفا، وأسلس أسلوبًا، وأخف مُؤنة من غيرها، ولذلك تراهُ يقول منوّها بذلك: «... مع ما حوته من سلاسة النَّظم، وخَلَتْ من الحشو والتعقيد»(٢٦).

على أنّ كثرة جريان الألسن بهذه المنظومات، ألانَ من صَعْبها، وخفَّف من تكلفها، وذلَّلَ تعقيدها.

ـ بعض هذه المنظومات أجمع للمادة العلمية من بعضٍ، فألفية السيوطي مثلا قد استَوْعبت عِلْمًا جمًّا، مماً بعث ناظمها على أن يقول:

وهذه ألفيةٌ تحكي الدُّرر منظومةٌ ضمَّنتُها علْمَ الأثر
فائقةٌ ألفيةَ العِراقي في الجَمْعِ، والإيجاز، واتِّساق(٢٧)

الهوامش

١ـ كتبنا مقالاً ضافيًا عن «شعر أهل الحديث» يسر الله نشره.

٢ـ انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ للثعلبي (١٤٦٨/٢) إحياء التراث العربي، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السُبكي (٢٦/٥) الطبعة الثانية دار المعرفة. وشذرات الذهب لابن العماد (٤٤٣/٥) طبعة سنة ١٩٨٨ دار الفكر.

٣ـ التاج السبكي «طبقات الشافعية» (ج٥/ص١٣).

٤ـ وهو اصطلاحًا مارواه واحدٌ وانظر: مقدمة ابن الصلاح (ص١٣٦) دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩، والمنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي لبدر الدين ابن جماعة (ص٥٥). الطبعة الثانية. دار الفكر ـ دمشق.

٥ـ وهو ما أدرج في الحديث من كلام بعض الرواة متصلاً به من غير فصْل، انظر: التقريب والتيسير للنووي (ص ٣٨) دار القلم العربي ـ حلب.

٦ـ المتفق والمفترق ـ باسم الفاعل فيهما ـ هو المتفق خطًا ولفظًا من الأسماء، لكن افترقت المسميات، كالخليل بن أحمد ستة رجال، وانظر: تدريب الراوي (٣١٦/٢)، دار الفكر.

٧ـ المدبج: أن يروي كل من القرينين عن الآخر عائشة عن أبي هريرة، وأبي هريرة عنها. انظر: فتح المغيث (١٧٤/٣). دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٣.

٨ـ المقطوع: ما ينتهي إلى التابعي قولاً أو فعلاً.

٩ـ تقديم بسام عبد الوهاب الجابي لشرح قصيدة غرامي صحيح (ص ٩) للشيخ بدر الدين الحسني. دار البصائر ـ سورية.

١٠ـ ذكره له السيوطي في بُغية الوُعاة (٦٥/١) الطبعة الثانية ١٩٧٩م، وتوجد منه إحدى وعشرون نسخة خطية بدار الكتب المصرية، كما أنّ له نسخة أخرى بخزانة تطوان بالمغرب تحت رقم ٦٥٩م.

١١ـ انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢٨٦/١). طبع دار المعارف ـ مصر، ١٩٦٢.

١٢ـ انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٣٢٩/١). دار الفكر ـ بيروت.

١٣ـ توجد نسخة خطية لهذا الكتاب بالخزانة العامة بالرباط.

١٤ـ وقد شرحها السخاوي في «الغاية في شرح الهداية»، وحقق هذا الشرح في رسالة علمية بجامعة أم القرى، ثم يُحقق الآن بكلية الآداب بالرباط.

١٥ـ د. نور الدين عتر «منهج النقد في علوم الحديث» (ص٦٩)، دار الفكر بدمشق الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.

١٦ـ انظر: الرسالة المستطرفة (ص٢١٦) للكتاني. طبعة دار الفكر بدمشق ١٩٦٣م.

١٧ـ الرسالة المستطرفة (ص٢١٧).

١٨ـ وللتوسع في باقي منظومات نخبة الفكر انظر مقالتنا «كتاب نزهة النظر للحافظ ابن حجر وأثره في الدراسات الحديثية» في مجلة «الإحياء»، المغربية، العدد الرابع، رقم ١٦، سنة ١٩٩٤ (ص١٦١–١٦٤).

١٩ـ د. فاروق حمادة: «تطور دراسات السنة النبوية، ونهضتها المعاصرة وآفاقها» (ص٤٣) دار إحياء العلوم ببيروت ١٤١٣هـ.

٢٠ـ تطور دراسات السنة النبوية.. (ص٤٧)

٢١ـ انظر: شرح التبصرة والتذكرة (ج١/ ص٨). للعراقي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٢ـ انظر: شرح قصب السكر نظم نخبة الفكر لعبد الكريم بن مراد الأثري، (ص٦٨ – ٧٣)، طُبع في المدينة المنورة.

٢٣ـ يشير إلى حديث: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاة» أخرجه الترمذي، وانظر شرح التبصرة والتذكرة (ج١/ ص٩٢).

٢٤ـ الهداية في علم الرواية (لوحة ٣)، نسخة جامعة أم القرى برقم ٨٩ مصطلح الحديث.

٢٥ـ انظر شرح قصب السكر نظم نخبة الفكر (ص ١١٤و ١١٥)

٢٦ـ انظر البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر للإمام السيوطي (لوحة١)، مصورتي الخاصة عن نسخة شيخنا الدكتور زين العابدين بن محمد بلا فريج التي صوّرها عن نسخة الأحمدية بحلب.

٢٧ـ انظر ألفية الحديث للسيوطي (ص٢٤) بشرح أحمد محمد شاكر، دار المعرفة . بيروت.



نحن مسبوقون

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

العداوة

الطب بأقسامه المختلفة المتعددة، ما يختص منها بالتشخيص وما يختص بالوقاية، وما يختص بالعلاج، وما يختص بالجراحة، إلى درجة عالية، تتطور بسرعة مذهلة يوماً بعد يوم، نتيجة التجربة والأبحاث، وما ساعدت به الأجهزة الحديثة، التي تدخل في الكشف إلى الأعماق، وتَخْبُرُ كُنْهَ أصغر المخلوقات.

ويجد الطب تشجيعاً من القادرين، لمقابلة متطلبات البحوث فيه. وعالم الطب بتخصصاته المتعددة في تسابق بين القائمين على فروعه، في الدولة الواحدة، وفي الدول الأخرى.

وسوف نرى أشياء باهرة، وإنجازات مبدعة ما عاش بنا زمننا، وامتدت أيامنا، قياساً على ما تم، وحكماً بما رأيناه في هذا المجال المهم، الذي يلمس حياة الناس، وصحتهم، وهي أغلى ما عليهم.

هذا في زماننا، أما في زمن آبائنا فشهدت العصور المتوالية ركوداً في هذا الجانب في بعض المجتمعات، ونهضة ونشاطاً في مجتمعات أخرى، وروي لنا عن عصر الجاهلية في الجزيرة العربية روايات، تحمل قصصاً اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، والصحيح بالمكذوب، والمعقول بغيره، والواقع بما لم يقع.

أما في المجتمع الإسلامي، وبعد أن تلامست الحضارات، وصبت في بوتقة مجتمع واحد في العصر العباسي، فقد ازدهر الطب، وتطور بالتقاء علومه بعضها مع بعض، ووصل إلى درجة لايزال الطب الحديث يبني بعض أسسه عليها، وسيظل؛ لأنها أسس ثابتة، وما أمر ذاك الذي كان يحمل في جيبه حفنة من التين المجفف، يتناول منها إذا أحسّ بأنه على وشك أن يغمى عليه، ببعيدة عنا، وما هذا إلا من نقص السكر عنده، وهذا أساس في الطب، حدوثه، وعلاجه.

وأُلِّفت في الطب كتب، ووُصفت فيها أمراض، ووضع لها العلاج، وكان العلاج ناجعاً، وثابتاً، متى ما عُرف المرض، وحدد موضعه، ومدى تغلغله، وكان بين الأطباء اتفاق في هذا، عندما لا يكون للاجتهاد نصيب، ولا للاختلاف مجال.

وتقدم علم الأدوية عندهم، فوصفوا منها ما يحتاج إليه المرض بنوع الدواء، ومقداره، ووقته، ومدته. وأصبح هناك متخصصون، وبرز بينهم بارعون، وتنافست المدن بوجود النطاسي فيها، من خبير الأقرباذين، والطبيب، وتنافس الخلفاء في تقريب النابه، وتشجيعه.

وبقي غير العربي يحظى بالسمعة عند الناس، على الرغم من تفوق بعض العرب، تماماً كما هو حادث اليوم، واضطر - سخرية - بعض العرب أن يتسمى باسم غير عربي، ليجذب الناس، وليثبت وجوده، إلا أن مرور الزمن، وبراعة بعض العرب هي التي شقّت له الطريق إلى القمة، واعتُرف به من علية القوم، وهم القدوة، واكتشف الناس أن في بحرهم لآلئ، ومن بني قومهم جواهر، تماما كما هو حادث اليوم، وكما هو حادث في مجتمعاتنا العربية.

وبرز القدامى في الإبداع في الجراحة وما يتصل بها، إجراءً لها، وتفنناً في آلاتها وأدواتها، حتى إن كثيراً مما هو مستعمل في أرقى مستشفيات العالم لا يختلف عنها شكلاً، وقد تتغير المادة المصنوعة منها فقط، وقد قام الدكتور فؤاد سزكين بعمل مجيد، إذ صنع نماذج لما كانوا يستخدمونه من هذه الآلات، وعرضها في معهده في فرانكفورت، ومن رآها من أصحاب هذا الفن لا يكاد يصدق أن مثلها كان يستعمل في تلك الأزمان.

وتصل الدقة في عملهم إلى عمل جراحة للكُلى، لاستخراج الحصوات، وقد تقرر أن يجري الطبيب لأحد الخلفاء عملية جراحية، يستخرج بها حصوة من كليته، إلا أن الدواء الذي أعطاه الخليفة في تلك الليلة جاء بالفائدة المتوخاة، وخرجت الحصوة دون الحاجة إلى جراحة.

ومن نظر في كتب الأولين يجد رياضاً من الحقائق الباهرة التي لا يعلم عنها أبناء اليوم، ولا يتوقعون أنه قد وُصل إليها قبل زمنهم، ومن الأمثلة على الإبداع في حقول الجراحة القصة الآتية:

يقول الأمير أسامة بن منقذ، وهو يتحدث عن الحرب وتجربته فيها، والحوادث التي حدثت عرضاً فيها:

«أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكره مع ابن ملاعب، وجرح عمي عز الدولة - رحمه الله - في ذلك اليوم عدة جراح، منها طعنة طُعنها في جفن عينه السفلاني، من ناحية الماق، ونشب الرمح في الماق، عند مؤخر العين، فسقط الجفن جميعه، وبقي معلقاً بجلده من مؤخر العين، والعين تلعب، لا تستقر، وإنما الجفون التي تمسك العين، فخاطها الجرّاح، وداواها، فعادت كحالها الأولّة، لا نعرف العين المطعونة من الأخرى».

(كتاب الاعتبار:٧٨)

وهكذا جراحة دقيقة، في مكان حساس، أجريت بإتقان متناه.

أإحيـــاء للتـــراث أم إســـــاءة لـه؟!

إبراهيم السامرائي

يُهرع نفر من المحققين إلى نشر نصوص مزيّفة، ويجتهدون في تحقيقها، بل يبالغون ويتجاوزون الحدّ، ويقدّمون بين يدي هذه النصوص مقدِّمات يسطون فيها أن النصّ مزّيف، وأنه نسب إلى الخليل بن أحمد، ولم يعرف للخليل بن أحمد شيء من هذا، ولكنهم يثبتون على غلاف الكتاب شيئًا غير هذا، فيقول الدكتور رمضان عبدالتواب مثلاً: كتاب الحروف للخليل بن أحمد الفراهيدي(١).

أتراه ظن أن بصنعته هذه قد يوهم الدارسين أن الكتاب للخليل، وأنهم بذلك يقبلون عليه، ثم هو يروج بعد ذلك، أم تراه قد فعل هذا استجابة لرغبة الناشر التاجر الذي لا يهمه إلا رواج الكتاب؟ ولو أنه أثبت على غلاف الكتاب عبارة: «المنسوب إلى الخليل بن أحمد»، لم يكن للكتاب قيمة، ولم يفز الناشر بما يحقق له الربح.

إن كان هذا أو ذاك فالرغبة في النشر، أو الشهوة فيه - إن جاز لي هذا التعبير- ضرب من التدليس.

ولننظر فيما أثبته الدكتور عبدالتواب في «مقدمته»، ثم نضيف إلى ذلك ما وقفنا عليه من فوائد، وكل ذلك يجعلنا نطمئن إلى أن الكتاب لم يكن للخليل، بل هو منحول عليه في حقبة متأخرة.

قال الدكتور رمضان في مقدمته (ص ١٢ - ١٣):

«والكتاب الذي ننشره اليوم في «الحروف» ينسب للخليل بن أحمد، ولم يذكره واحد ممن ترجموا له، فقد ذكروا أنه ألّف : الإيقاع ، والجمل، والشواهد، والعروض، والعوامل، والعين، وفائت العين، والمعمّى، والنغم، والنقط والشكل. ولم يعدّوا هذا الكتاب من مؤلفاته».

ويضيف الدكتور رمضان:

« ويبدو أن الكتاب مزيّف، ومع ذلك، فقد كان معروفًا لدى الإمام أحمد بن محمد الرازي (المتوفى حوالي سنة ٦٣٠هـ) الذي ذكر له روايتين في كتابه: «الحروف»، كما كان معروفًا لدى الحافظ الذهبي (المتوفى سنة٧٤٨هـ)، الذي اختصره وكتبه بخطه. كما أن الإمام الفيروزآبادي (المتوفى سنة ٨١٧هـ)، نقل عنه في كتابه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» وكذلك اقتبس منه الإمام السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ) في كتابه: «المزهر».

أقول: كأن المحقق الدكتور رمضان قد عزّ عليه بعد قوله: «يبدو أن الكتاب مزيّف» أن يذهب إلى آخر المطاف، فراح يعطي نصه المزيّف شيئًا من الثقة في ذكره أن الرازي والذهبي والسيوطي قد ذكروا الكتاب، ونقلوا منه.

ولكن المحقق سكت عن خلو كتب المتقدمين الذين جاؤوا بعد الخليل من شيء من هذا النص المزيف، فلم يشر ابن فارس في «معجم المقاييس»، ولا في «المجمل» إلى الكتاب، وليس في «جمهرة ابن دريد»، ولا في «لسان العرب» شيء من هذا الكتاب.

والغريب أن مادة الكتاب المنسوبة إلى الخليل في هذا النص قد أخذها المتأخرون، وقيّدوها بالخليل، وأنها لم تُرو عن أحد من معاصري الخليل، ولا ممن سبقه بقليل، أو خلفه بقليل أيضًا، وأكثر من هذا أني لم أجد شيئًا من مادة

الكتــاب في «كتــاب العين»!! ثم قـال الدكـتـور رمـضـان عبدالتواب:

«ومن العـجـيب اخـتلاف المخطوطات فـيـمـا بينهـا في التعبير، ونسبة البيت الواحد من أبيات الاستشهاد إلى أكثر من شاعر في هذه المخطوطات، بمعنى أن ينسب البيت في مخطوطة إلى شاعر معيّن، ثم ينسب البيت نفسه في مخطوطة أخرى إلى شاعر آخر، ويروي الفيروزآبادي معظم أبيات الكتاب غير منسوبة إلى شاعر معين».

ثم يسأل المحقق الدكتور رمضان فيقول:

«فـمن هو الـذي زيّف هذا الكتــاب؟ ومـا عـمـر هذا التزييف؟ إننا لا نعرف ذلك بالطبع، وعلى أيّة حـال، فإن مخطوطـة «أياصوفيا» مكتوبة في القـرن الثامن الهـجري. هذا إلى أن كلاً من الفيروزآبادي في «بصـائر ذوي التمييز» ومرتضى الزبيدي أخذاً [كذا] عنه في «تاج العروس» قد

واحـدة، ذكـر فـيهـا بيت مـن أبيات الكتاب فـي غيـر سـيـاق الخليل، وهو:

نونان نونان لم يخططهما قلمٌ

في كل نون من النونين عينان(٢)

فهـو ثاني بيتين في: «كـتاب فيه ما يقرأ من آخره كـما يقرأ من أوله» للتبريزي، نشره كروتكوف في مجلة الآداب والعلوم، ببغداد سنة ١٩٥٨م.

كمـا يوجدان في كتـاب: «ألف باء» للبلوي (٢/٣٥٢)، وفي كتاب: «إعراب ثلاثين سورة» لابن خالويه..».

ويخلص المحقق في آخر مقدمته إلى القول:

«ومع مـا يكتنف هذا الكتـاب من شك في مـؤلفه، فلن يخلو نشره من فائده.!».

أقول: إذا كانت المادة مزيّفة، ومعاني الحروف «محض خيال» كـمـا قـال المحقق، فأية فـائدة نلتمسـهـا في المكذوب

شهوة النشر جعلت محقق كتاب «الحروف» لا يثبت على غلافه أنه منسوب منحول

نقلا من كتاب «الحروف» ولم يشكّا في نسبته إلى الخليل بن أحمد، وكذلك الإمام السيوطي في كتابه «المزهر» والإمام الرازي في كتابه: «الحروف..».

أقـول: كـأن المحـقق الدكـتـور رمـضـان أراد بـعـبـارته الأخـيـرة أن يرمّ بناءه الذي شاده بادئ ذي بدء، فـذهب إلى أن الكتــاب مـزيف، ولكنه لـم يسـتـطـع أن يذهب إلى آخـر الشوط، فيدّعي نسبة الكتاب، ذلك أن مـادة الكتاب تعلن أنه مزيّف كما يستفاد من قول المحقق:

«غـيـر أن ما يثـيـر العـجب حـقًا، هـو معاني الحـروف نفسها، تلك الحروف التي تطلق على حروف الهجاء كذلك، ففي قليل من الحـالات يمكن إيجاد علاقة بين مـعنى الحرف وأصله، مـثـل «البـاء» و «النـون» ومع حـروف «الكاف» يمكن ربط معناه: «المصلح للأمور» بالأصل: «كـافٍ» وما عدا ذلك من المعاني فهو خيال محض».

أقول: لقد اعـتـرف المحقق بأن المعاني المثـبتة التي ادّعى نسـبتهـا إلى الخليل «خـيال محض»، وكـان عليه أن يـقول: إنها كذب وافتعال.

وقال المحقق:

«وأبيـات الاسـتـشـهـاد في الكتـاب لا توجـد في دواوين الشعراء الذين تنسب إليهم، ولا في أي مكان آخـر، فيما عدا

المفتعل؟

ألم أقل: إنهـا شـهـوة للنشـر، ولِمَ لم يثبت على غـلاف الكتاب أنه منسوب منحول؟.

ثم تكلم المحـقق على الأصـول المخطوطة للكتب وهي سبع، وكل مـنهـا يخـتـلف عن الآخـر في المادة وفي نسـبـة الشواهد، وفي الطول والقصر(٣).

ولننظر إلـى شيء من مـادة الكتـاب دليـلاً على أنه من مادة مـزيّفـة لا قيمـة لهـا، ولا يمكن أن تكون من علم الخليل بن أحمد:

الألف: الرجل الحقير الضعيف، قال أوس:

هنالك أنت لا ألف مهينا

وقد علق المحقق فقال:

في (ب و ز)(٤): هو الـرجل، وفي (ج): هو الـفـرد من الرجال، وقيل: هو الرجل الـغـريب، وفي (هـ): الألفُ: الفرد من الرجال، وفي (م): الألفُ: الرجل الذي لا زوج له، ولكن كل فـرد لا شبيه لـه ألِفٌ، وفي «البصـائر» ٢/١١: الألف: الرجل الفرد.

أقـول: إذا كــان هذا هو النص علـى اخـتـلافـه في هذه الأصـول المخطوطة، فكيف جـاز للمحقق أن يخـتـار كلامًـا مـغـايراً مـضـاداً من نسـخـة أخـرى، وهو الرجـل الحـقـيـر الضعيف.

ثم إن الشاهد قد نُسب في اختيار المحقق إلى أوس، وهو في (ب): أبو نواس، وفي (ج): قيل للسيد الحميري، وفي (هـ): ومنه قول السيد [كذا].

ثم اختلفت الأصول المخطوطة في نص الشاهد، ففي (ج) «فلا ألف هناك ولا مهيب»، وفي (هـ): «هنالك لا ألِف ولا مهينا»، وفي البصائر ١١/٢:

هنـاك أنـت لا ألِـف مـــهـين
كـأنك فـي الـوغـى أسـد زئيـر

وفي (وز): «وقيل السخي والفرد في الفضائل».

أقول: وهذا الاختلاف والعبث في كل معنى من المعاني المثبتة في الكتاب بحسب ما جاء في الأصول المخطوطة.

ولا بد من اختيار معنًى آخر، وهو ما جاء في «الخاء»:

الخاء: شعر الاست [إذا كثر وطال] قال المنقري:

أين النظرات النحوية واللغوية والبيانية التي تقتضي الاهتمام والتدقيق والتحرير في كتاب «الجمل»؟

لإسـتك خـاء فـي الـتـواءٍ كـأنه
حـبـال بأيدي السـاقـيـات المواسح

وقد جاء في تعليق المحقق:

في (ب و ز): «هو شعر..»، وفي (م): الخاء: «شحم الاست إذا كثر، وقيل: العجلة!!»، وفي «البصائر» ٥٢٠/٢: قال الخليل: «الخاء عندهم: شعر العانة وما حولها»، وفي «تاج العروس»: «والخاء: شعر العانة وما حواليها، وأنشد الخليل....».

وأما ما ورد في قائل البيت فالاختلاف كثير، ففي (أ): «المنقر[كذا]، وفي (هـ): «وقال بعض الأعراب»، وفي (ج): «قال الشاعر»، وهو غير منسوب كذلك في «البصائر» ٥٢٠/٢، و«تاج العروس».

أقول: فكيف اختار المحقق النسبة إلى المنقري؟ سامحه الله.

ثم يأتي الاختلاف في كلمات الشاهد، وهو أمر عجب، وقد أثبت ذلك المحقق.

وشاهد ثالث أختم به هذا الموجز، وهو معنى «الذال»:

«الذال: عُرف الديك، قال الحارث اليشكري:

بـه بـرصٌ يـلـوح بـحـاجـبـيـه
كـذالِ الـديـكِ يـأتلقُ ائـتـلاقـا».

وقد علق المحقق فقال:

في «البصائر» ٤/٣: «قال الخليل:الذال: عُرف الديك»، وفي «تاج العروس»: «ومما يستدرك عليه: الذال: عُرف الديك، قاله الخليل»، وفي (ب): «هو عُرف ..».

أقول وينبغي أن نلاحظ أن الفيروزآبادي في «البصائر» والزبيدي في «تاج العروس» يقيدان المعنى بأنه مما قاله الخليل.

ولكن أليس عجبًا ألا تكون هذه الغرائب مذكورة في «كتاب العين»، وهو صنعة الخليل؟!.

ثم إن الحارث اليشكري الذي اختاره المحقق هو في (ب): الحارث البكري، وفي (ج) أبوالعسنجور!! وهو غير منسوب في «البصائر»، ولا «تاج العروس».

كما أن في نص الشاهد اختلافًا كبيراً في هذه الأصول المخطوطة.

أقول: أفبعد هذه يحتفل المحقق فينشر هذه الصنعة؟

كتاب الجمل في النحو

تصنيف الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الناشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

أقول: هكذا كان مثبتًا على غلاف الكتاب؛ وعلى هذا يكون الكتاب من مصنفات الخليل بن أحمد.

نعم لقد ورد في مصنفات الخليل كما ذكر في المصادر كتاب «الجمل» والسؤال الآن: أهذا هو كتاب الجمل الذي أشارت إليه المصادر؟

أقول: لنحتكم إلى ما قاله المحقق الدكتور فخرالدين قباوة في مقدمته:

«أما بعد، فهذا كتاب الجمل في النحو المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي. أضعه بين أيدي العلماء والباحثين، ليكون مادة للدراسة والتوثيق والتحقيق، ولسوف يثير، فيما أرى، أمواجًا مختلفة أو متناقضة من الآراء والتوجهات والنقد والتقويم، تساهم في توضيح معالمه

وتسديد منعطفاته، وحل مشكلاته».

أقـول: كـأن المحـقق أدرك أن هذا الكتـاب غـريب في مـادته، بعيـد عمـا عـرفناه من علم الخليل في «كتـاب سيبويه». اتصف بأقوال وتوجيهات نحوية لا نجدها في غير هذا الكتاب، بل إن جل ما فيه قد عبّر عنه النحاة المتقدمون والمتأخرون بشيء آخر يبتعد عما في هذا الكتاب.

ثم إن المحـقق قـد أثبت في هذه الأسطر أن الكتـاب منسوب إلى الخليل بن أحمد، فما باله لم يثبت مثل هذا على غلاف الكتاب؟ أكان هذا الضرب من التمويه بل التدليس إرضاءً للناشر، وعملاً على ترويج الكتاب؟.

ليس هذا من أمانة العلم، ولا من شرائط النشر العلمي.

ولنتابع المحقق في مقدمته التي أراد أن يرمّ بناءها، فتوجه إلى الدارسين مستعيناً بهم على اجتياز العقبات والمعضلات والتحدّيات(٥).

هذه كلها «تفتح أبوابًا جديدة في ميـادين المصطلحـات والمذاهب والتوجهات والأحكام النحوية، وفي الهياكل الكبرى التي سيطرت على تاريخ النحاة والنحو».

أقول: هذا الذي ذهب إليه طالبًا عون الدارسين يعفيه من تبعات نسبة باطلة، ألم يفطن إلى أن هذا الجـديد الغريب في مادة الكتاب ومصطلحه لا يوجد في «كتاب» سيبويه، وهو من مصادرنا في معرفة علم الخليل في النحو واللغة؟!.

لقد احتفل المحقق بهذا الكتاب المنسوب إلى الخليل فقال:

«فهو يحمل بين دفتيه ألوانًا من العلم متميزة، ولمحات من الفكر قديمة مستجـدة، ونماذج من النظرات النحوية واللغوية والبيانية تقتضي الاهتمام والتدقيق والتحرير».

أقول: لقد أطال الدكتور قباوة في إطراء كتابه هذا وتجاوز الحدّ، وأهل الرأي يتفقون على غير هذا، لأن ما في الكتاب بعيد عن علم النحاة المتقدمين، فأين هي «النظرات النحوية واللغوية والبيانية» التي تقتضي الاهتمام والتدقيق والتحرير؟.

وقال الدكتور قباوة:

«وهو، وإن كان يعتمد منهجًا تقليديًا في تصنيف موضوعات الإعراب، يضع لهذه الموضوعات أطرًا خاصًا،

وتفريعات متشعبة متشاجرة[أراد مشتجرة] تمثل مرحلة عريقة في القدم لفهم معاني النحو وجزئياته وكلياته».

أقول: كأن كل هذا أراد به المحقق أن يقلل من قولته: «المنسوب إلى الخليل»، فراح يشير إلى دقائق تميّز بها الكتاب.

ثم قال المحقق: وهو ينسب إلى الخليل إمام العربية تبويبات غريبة متميّزة وتقسيمات وتوجيهات وأحكامًا وأقوالاً ومصطلحات، ما كان يعرفها المؤرخون والدارسون.

أقول: هلا كان هذا دافعًا إلى أن يتحقق «المحقق»، وينظر في «كتاب سيبويه» فينظر علم الخليل ومصطلحه؟.

ويقول المحقق في هذا: «وهو يقدّم عددًا وافرًا من المصطلحات في الإعراب والصرف والأدوات، بعضه غريب كل الغرابة لا تجد له صدىً في الكتب القديمة

أراد المحقق إعطاء نصه المزيف شيئًا من الثقة بإيراد أن الرازي والذهبي والسيوطي قد ذكروا الكتاب، ونقلوا منه



غلاف «المفصل»

والمتأخرة والمعاصرة، وبعضه الآخر حمل في التاريخ دلالات انقرضت، أو خالفت ما عرفه النحو في مذاهبه واتجاهاته ورجالاته».

أقول: كان على المحقق أن يفطن إلى هذا، فيتأكد أن هذا الكتاب ليس للخليل، وأنه منحول عليه، ذلك أن المصطلح النحوي واللغوي غير واف في كتاب سيبويه، وأن الخليل كان يصل إلى المادة النحوية بجملة يشرح بها ما يريد، فأين هذا من هذه الكثرة في المصطلح.

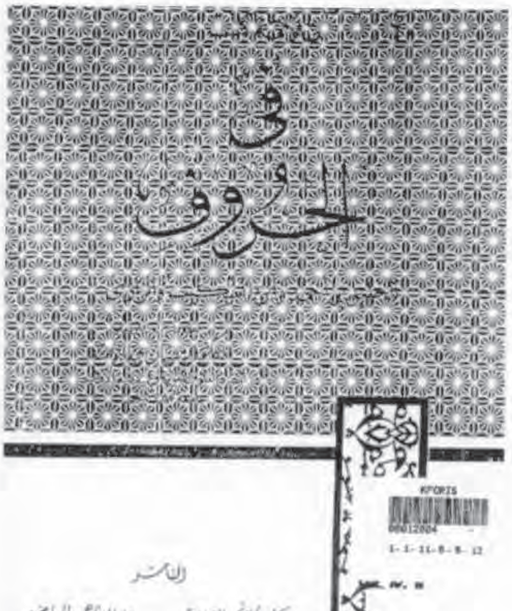
ولنا دليل آخر على أن الكتاب مصنوع محمول على الخليل نلتمسه فيما ذكر المحقق:

«وهو يورد مجموعة من الآيات الكريمة، في صور لا نجدها فيما وصل إلينا من تاريخ القراءات والتفسير للقرآن الكريم، وقد بدا لي أن بعض تلك الصور هو من أوهام المصنّف أو النساخ أو المستملين، فرددته إلى طريق الصواب، وأن البعض الآخر توجيه نحوي ليس له في القراءات نصيب».

أقول: وهل يعقل أن يكون هذا من علم الخليل؟!

ويقول المحقق أيضاً: «وهو يروى عشرات من الشواهد الشعرية في مسائل الإعراب، ومعاني الحروف لا تجد لها موئلاً، أو لروايتها مصداقًا في مصادر النحو والشعر ومراجعها المعروفة، أو لا تستطيع تحقيق نسبها، أو تحديد أصحابها من الشعراء والرجّاز».

أقول: وهذا كله لم يثن المحقق عن عمله وعن نسبة



غلاف «في الحروف»

الكتاب إلى الخليل، وهومحض ادّعاء وكذب.

ويقول المحقق أيضاً: «وهو يبسط أحكاماً وتوجيهات في الإعراب واللغة والبيان تفتقدها كتب النحو والمعجمات وأمّهات المطوّلات والحواشي ومصادر علم العربية في تاريخه ودراساته وتقويمه».

أقول: ومع كل هذا يبقى هذا المجموع المزيّف من صنع الخليل كما يريد المحقق!!

ويلتمس المحقق المعاذير ليظل متشبثًا بنسبة الكتاب إلى الخليل، فهو يقول:

«وهو يضمّ في طياته نصوصاً وعبارات وشواهد، لا يشك في أنها مقحمة ألحقها علماء أو نسّاخ أو قرّاء بعد الخليل، فالتبست بالأصل، وتناقلها الناسخون على أنها جزء منه في حين أنه يضم أيضاً أمثالها عرفت في مذهب الخليل وأقواله...».

ويقول المحقق، فيشير إلى مسائل، هي حجة عليه، كقوله:

«... فبيما أنت مشدود إلى دقة التقسيم، وعمق الفكرة، وجلاء المعنى، وبعد النظر....، إذ يفجؤك ظواهر من الاضطراب والتداخل والإحالة، وبينما أنت مأخوذ بالتعريفات الدقيقة الوافية، والأحكام والقيود المسدّدة.. إذا بك تصدمك شذرات من التعريفات السطحية العامة الفضفاضة، والأحكام القاصرة.. وبينما أنت مستسلم لفصاحة الكلم ونصاعة العبارة... إذ تتعثر بنتوءات من تلوّي التعبير، وهلهلة النسج، وانقطاع السياق».

أقول: كأن الكتاب قد أخذ على المحقق تفكيره وجهده، فهو على عُواره مشغول به، وهو يقول:

«وقد كنت كلما قرأت هذا الكتاب منذ اطلعت عليه عام ١٣٨٠هـ تحضرني هذه المعالم والمعاني متلاحقة تثقل كاهلي ونفسي وتشعرني بالقصور والعجز أن أتصدى لها، أو أسير في ركابها، فإذا بي أعرض عنها، وفي ضميري وخزات وحسرات».

ويبدأ المحقق شيئًا آخر يدعوه «تاريخ حياة الكتاب» أشار فيه إلى أن المؤرخين والمعاصرين قد ازوروا عن الكتاب، واستخفوا به، وأحاطوه بالطعن في النسب، والتوهين للسبب، والازدراء للقيمة العلمية.

وقال: «فأول ما يصادفك من هذا الكتاب مشكلة الاختلاف في اسمه. إنه يسمّى الجمل، وجمل الإعراب، ووجوه النصب، والمحلّى، وجملة آلات الإعراب، وجملة آلات العرب، وجملة آلات الطرب، والنقط والشكل.....».

وأقول: إن هذه الاختلافات الغريبة تدفعنا إلى أن نقول: إنه مادة مصنوعة يملؤها الزيف، لا يمكن أن تكون للخليل.

ثم إذا كان الكتاب هو «الجمل» فكيف تخلو مادته ممايتصل بالجمل، وليس فيه من الجمل، إلا قول صاحبه في فاتحته:

هذا كتاب فيه «جملة الإعراب»، ...ثم يشرع بوجوه النصب، وهي كثيرة، يتبعها وجوه الرفع، ثم وجوه الخفض، ثم يتحول إلى جُمل الألفات، وهي أنواع الألفات كألف الوصل، وألف القطع، وألف الاستفهام و....

ويتحول إلى اللامات، كلام الصفة، ولام الأمر، ولام

الخبر، ولام الجحود، و.....

ويأتي بعد ذلك جُمل الهاءات كهاء السنخ، وهاء التنبيه، وهاء التأنيث، و.....

وكذلك التاءات والواوات، واللام ألفات، والفاءات والنونات والباءات، ومواد أخرى.

وجملة هذا كله لا يتصل بـ «الجمل» في أي وجه من الوجوه.

ويقول المحقق:

«ولعل مصدر نبذ الناس له أن أقدم خبر وصل إلينا عنه يتضمن الطعن في نسبه وزعزعة الثقة به. فأول ما نلقاه من تاريخ «كتاب الجمل» هذا هو موقف ابن مسعر المفضّل بن محمد المعري (ت: ٤٤٢هـ). فهو في ترجمته لأبي بكر بن شقير (ت: ٣١٧هـ) يقول عنه: «له كتاب لقبّه الجمل، وربما نُسب هذا الكتاب إلى الخليل، يقول فيه: النصب على أربعين وجهاً، والرفع كذلك»(٦)

وقال المحقق: «وعندما ترجم ياقوت (ت: ٦٢٦هـ) للخليل بن أحمد الفراهيدي، ذكر له بضعة مصنفات فيها «كتاب الجمل»(٧) غير أنه كان قد عرض من قبل، لترجمة ابن شقير، وأورد فيها ما يلي:

«قرأت في كتاب ابن مسعر أن الكتاب الذي ينسب إلى الخليل، ويسمى الجمل، من تصانيف ابن شقير هذا».

ولما ترجم صلاح الدين الصفدي (ت:٧٦٤هـ) لابن شقير جاء في تلك الترجمة: «ويقال: إن «الجمل» الذي ينسب الخليل هو لابن شقير»(٨).

وكأن السيوطي (ت:٩١١) يعتمد في ترجمتي الخليل وابن شقير على معجم الأدباء.....

ويقول في حديثه عن ابن شقير: «وقرأت في طبقات ابن مسعر أن الكتاب الذي ينسب للخليل، ويُسمى المحلّى، له»(٩).

ويأتي صاحب «روضات الجنات» محمد بن باقر الخونساري (ت: ١٣١٢هـ) فيورد مصنفات الخليل كما هي عند ياقوت والسيوطي(١٠).

وصاحب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» محمد محسن يشير إلى أن العنوان هو «النقط والشكل»، وهكذا يستمر الشك في الكتاب ونسبته إلى الخليل لدى بروكلمان، والزركلي، وكحالة، ورمضان ششن.

وقطع محمد خير الحلواني بعدم نسبة الكتاب إلى الخليل مستدلاً على ذلك بما فيه من إشارة إلى كتاب مختصر للمؤلف نفسه، ومن نقله عن الخليل وعمن

إذا كان الكتاب هو «الجمل» فكيف تخلو مادته ممايتصل بالجمل؟ وقد قطع الحلواني بعدم نسبه الكتاب إلى الخليل لما فيه من اضطراب وتخليط

عاصره، أو تأخر عنه، ومن ألغاز نحوية ومصطلحات كوفية أو غريبة، واضطراب وتخليط لا يمكن أن يصدر عن الخليل(١١).

أقول: والكلام في تراث الخليل، وأمر نسبته إليه كثير جداً.

ثم عرض المحقق للنسخ المخطوطة، وماتشتمل عليه من شجون في اختلاف النص، وأسماء المخطوطات، وغير هذا.

ولكن المحقق مضى في التحقيق والدرب وعر موحش، لكنه اجتهد فأكثر من تعليقاته خدمة للنص، وهذا هو دأبه في أعماله الجادة الأخرى.

ثم آتي إلى نص الكتاب، فأجد فيه وجوه النصب (ص٣٤-١١٦)، وفيها الغرائب التي تتسم بخصوصية لا نعرفها في كتب المتقدمين والمتأخرين.

ومن هذا: «النصب من قطع»

مثل قولك: هذا الرجل واقفاً، وها أنا ذا عالماً، قال الله جل ذكره: *وهذا صراط ربك مستقيماً*. **الأنعام**:١٢٦، ومثله: *وهذا بعلي شيخاً*. **هود**:٧٢. على القطع، وكذلك: *وله الدّين واصباً*. **النحل**: ٥٢، وكذلك: *هو الحق مصدقاً*. **فاطر**:٣١.

معناه: وله الدين الواصب، وهو الحق المصدّق......، فلما أسقط الألف واللام نصب على قطع الألف واللام.

أقول: وهذا كله لدى النحاة من باب «الحال»، ولم أجد من قال بهذا القطع، والحال غير الصفة.

وجاء في الكتاب: «النصب من التفسير».

قولهم: عندك خمسون رجلاً، نصبت رجلاً على التفسير.

أقول: والتفسير مصطلح كوفي بمعنى التمييز، وكيف يكون هذا من علم الخليل؟.

ومن الغريب أن مصطلح التمييز موجود في الكتاب فقد ورد: والنصب على التمييز، كقولهم: أنت أحسن الناس وجهاً، وأسمحهم كفًا.

وفي الكتاب: النصب بـ (حتى) وأخواتها.

أقول: القول إن حتى ناصبة هو قول الكوفيين، وأما الخليل وبعده سائر البصريين فعندهم أن النصب بـ «أن» مضمرة بعد «حتى».

وفي الكتاب إشارة إلى الكوفيين في باب النصب بالتعجب فقد ورد:

الاختلافات الغريبة في كتاب «الجمل» دليل على أنه مادة مصنوعة يملؤها الزيف، ولا يمكن أن تكون للخليل

«... وحدّ التعجب ما يجده الإنسان من نفسه عند خروج الشيء من عادته. وقال الكوفيون: هذا لا يقاس عليه، لأن قولهم: ما أعظم الله لا يجوز أن نقول: شيء عظّم الله، فردُّ عليهم قولهم. وقال البصريون: لا يذهب القياس بحرف واحد.

أقول: الكلام على الكوفيين والبصريين لا يمكن أن يرد في نص الخليل بن أحمد؛ ذلك أن الكوفيين لم يكن لهم وجود حقيقي في حقبة الخليل بن أحمد.

ونقرأ في هذا الكتاب من الغرائب التي يشوبها الإغماض قول صاحب الكتاب:

«والنصب الذي فاعله مفعول، ومفعوله فاعل».

مثل قول الله - عز وجل - في آل عمران: *قال ربِّ أنّى يكونُ لي غلامٌ وقد بلغنيَ الكبَرُ*. الآية: ٤٠.

والحدثان للمخلوقات لا للكبر. ومثل قوله: *واشتعل الرأس شيبًا*. **مريم**: ٤٠. والحدثان للشيب لا للرأس، ومثله: *ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة*. **القصص**: ٧٦ معناه: لتنوء العصبة بمفاتحه. وقيل: معنى «تنوء» تذهب.......

ومن خصوصيات هذا الكتاب، وطريقة تأتيه إلى الغرض شيء ينفرد به، ومنه:

«والنصب من اسم بمنزلة اسمين» مثل قولهم: أتاني خمسة عشر رجلاً، ومررت بخمسة عشر رجلاً، وضربت خمسةَ عشرَ رجلاً. صار الرفع والنصب والخفض بمنزلة واحدة؛ لأنه اسم بمنزلة اسمين، ضُمّ أحدهما إلى الآخر، فأُلزمت فيهما الفتحة التي هي أخف الحركات.

وكذلك نقول في معد يكرب، وحضرموت، وبعلبك بمنزلة اسمين.

أقول: ليس العدد المركب كأحد عشر وأخواته كالاسم المركب مزجًا.

خاتمة

وأنت تجد في هذا الكتاب من الغرائب والخصوصيات ما لا نعرفه من كلام الخليل الذي أثبت في كتاب سيبويه، ولا تسأل عن الموضوع المصنوع من الشواهد، ولا عن التفسير والتأويل الذي لم نعرفه لدى النحاة متقدميهم ومتأخريهم، فكيف ندعي نسبته إلى الخليل؟

وهذا نظير ما عرضنا له في الكتاب الأول، وهو «الحروف»، وكلاهما مزيّف منحول محمول على الخليل، وفي الذي بسطناه من كلام المحققين وكلام أهل العلم وما عرضناه من تعليقاتنا دليل كاف على ما ذهبنا إليه.

وهذا يدفعنا ألا نغلو، فنتجاوز العلم حبًا في النشر وتسويد الصفحات.

وأقول أيضًا: إذا كان الكتابان للخليل، وهما في علم العربية، في نحوها وصرفها ومعجمها، فقد كان لي أنا الذي حققت كتاب العين مع محقق آخر أن أقف في بعض مادته مما يتصل بما جاء في هذين الكتابين اللذين حُملا على صاحب «العين» لم يكن لي هذا، فأذهب بعد هذا إلى أنهما مزيّفان كما ذهب المحققان.

الهوامش:

١. كتاب الحروف: رسالة صغيرة تقع في خمس عشرة صفحة، ولم تكن هذه الصفحات كلها مادة الكتاب، بل كان نصيب الكتاب من كل صفحة دون الثلث، وأكثر من ثلثي الصفحة هو تعليق المحقق الدكتور رمضان، وهذا يعني أن نص الكتاب لا يتجاوز أربع صفحات.

والكتاب جزء من مجموع «في الحروف» نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢. أقول: هذا بيت من بيتين من أبيات الألغاز المصنوعة، والبيت الأول، وهو ما كنا نحفظه ونحن صبية شداة، هو:

عينان عينان لا عينان باصرة

في كل عين من العينين نونان

وبعده نونان نونان.......

....

٣. أشار المحقق إلى وجود نص الكتاب في «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين، وقد نبه المحقق إلى هذا صديقه الدكتور حاتم الضامن.

أقول: وصاحب «أعيان الشيعة» يدرج الخليل بن أحمد بين رجال الشيعة، وهو يذكر النص بهذه المناسبة. والذي نعرفه من مصادرنا أن الخليل كان شديداً في السنة، وأنه تحول إلى مذهب الإباضية فردّه إلى السنة صاحبه أيوب السختياني.

٤. الأحرف هي رموز المخطوطات التي اختارها المحقق.

٥. التحديات، كلمة رزقت الشيوع، واستعملت جمعاً لتقابل الأصل الأجنبي الذي ترجمت عنه. وليس لنا أن ندخل «التحديات» و «الأطر» في الكلام على مادة نحوية قديمة.

٦. تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين، ص٤٨ - ٤٩، ومعجم الأدباء ٣/١١، وبغية الدعاة، ١/٣٠٢.

٧. معجم الأدباء، ١١/٧٤.

٨. الوافي، ٦/٣٤٩.

٩. بغية الدعاة، ١/٣٠٢.

١٠. روضات الجنات، ٣/٣٩٣.

١١. المفصل في تاريخ النحو العربي، ١/٢٥٨-٢٦٢.

الثقافة والأسلوب

جلال الخياط

حين نبحث عن وحدة في الثقافة، بصفتها مصطلحًا حضاريًا، ونتطلع إلى تحقيقها، نضع أمامنا هدفًا رائعًا وصعبًا، يتطلب جهدًا وعمقًا ونقدًا ذاتيًا وجماعيًا، ماضيًا وحاضرًا، تراثًا ومعاصرة.



فالوحدة في الثقافة: الوجه الحقيقي للأمة، أو الثقافة الموحدة تعني منهجة التقاليد الثقافية، وتأطير معطياتها الأدبية والعلمية، وإشاعة قيم معينة فيها، نتبناها، ونؤمن بها، ولا نحيد عنها، وبتتابع الأيام تصبح عادة ـ نظامًا ـ اشتراعًا إبداعًا. ونحن نشكو من تعثر الثقافة، وانسياب الهدف، واضطراب القيم، وتعتيم الرؤية، وطغيان المزاج على الموضوعية، والنزق الشخصي الذي يعيق التكامل الفكري.

إن الوحدة الثقافية تعني وجدانًا فكريًا موحدًا، وموقفًا محددًا، وتربية من نوع خاص أدبيةً وعلميةً ونقديةً، لم تعهدها كتب التربية ونظرياتها، فهي تعني الأصالة والبحث عن الذات عبر المجتمع الموحد، والتقاليد الواحدة، وترمي إلى الإبداع، والأساليب المتميزة، والثبوت الحضاري. إنها ضمير الأمة، وإسهامها في النماء، ومكانها في التاريخ، وفاعليتها في الماضي والحاضر والمستقبل، والاندماج الكلي في مخاض فكري هائل يشع إلى العقل بما يغنيه أدبًا وعلمًا.

وحين نقرن التراث بالمعاصرة، ونبعث التاريخ في أبهى صوره، حضورًا فاعلاً، ونشترط الأدب زهو انتصار جماعي عبر

الإبداع الفـردي، ومن خـلال تطور الفكر الإنساني، وبسمات محلية هي أساس في العالمية، ونثبّت تقاليد ثقافية بلغة ندرك كيفية التعامل معها في البيت والشارع والمعهد والمختبر. وفي مجالات الخلق والعطاء، نبدأ الخطوات الأولى في طريق الوحدة الثقافية: المظهر الحضاري الرائع.

ولأننا في بدايات العصر الحديث، تنصبّ جهودنا في اختصاصات متنوعة للوصول إلى المجتمع الموحد للبحث عن الذات والأصالة فيها. وإلى أن تتضح، وتتأكد الوحدة الثقافية نبقى نعاني تشتت الأذواق والأعمال والنزعات، وطغيان المزاج، وافتقاد الروح العلمية، والتخبط اللغوي في تجريب أو غير تجريب، فيما نعني ولا نعني حين

أقام أبو تمام روابط جديدة بين الألفاظ، وتفرد المتنبي بخصوصية في الأداء الشعري، فتأججت الخصومة حولهما

نتحدث أو ننشئ، وباتباع قديم رثّ، أو معاصر كسيح في الأدب، والسلوك الاجتماعي، والتصرف اليومي والتطلع والرغبة والطموح.

ومن الصعب أن نرسّخ فجأة تقاليد ثقافية ذات منهج موحد تنبعث عن عقلية واضحة المنطلق في مجتمع واسع ممتد، بمستويات متباينة، وخطوط من الثقافة متنوعة، وتجاذب وتناقض بين الماضي والحاضر، واستعمار وعدوان وحجب وشجب لتقدم الإنسان في أرض نتوقع منه الكثير بعد ضمور المقومات الحضارية طوال الأزمنة الضائعة من هجوم التتار إلى مطلع هذا القرن.

وليس من السهل أن نعيد ترتيب التاريخ واللغة والعقل والوجدان، وأن نقف عند قضية خطيرة وجديرة بالبحث: الوحدة الثقافية، نظاماً وثبوتاً وتقاليد.

ولنشر إلى مسألة واحدة: اللغة والاندماج الكلي فيها حين تشكل مع عشرات غيرها في مجالات من الاختصاص متنوعة، أساس البحث في شيوع الوحدة الثقافية. ومع لغة الأدب والإبداع، لا ننسى لغة الحياة اليومية، وهذه وتلك يمكن أن نؤطرها بمقولة صغيرة كبيرة: أن نعني حين نستخدم اللغة ما نقول، أو نعرف ما نريد، أو ندرك أسلوب عرض ما يدور في أذهاننا من أفكار وألاّ نشوه اللغة بالزمن الممتد، تفصيلاً لا ضرورة له، وألا نضيّع ذلك الزمن في لغة يمكن أن تبدو بطبيعتها، منذ أن استقامت، أعلى تركيباً، وأمتن بناءً ونسجاً وقدرة وتكثيفاً ومرونة على إقامة علاقات جديدة بين ألفاظها في الحديث اليومي، وفي الإبداع العقلي، أدباً وعلماً، وتلك قضية حضارية، واللغة: «عرضة للتطور المطّرد في مختلف عناصرها: أصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها، وإن تطورها هذا لا يجري تبعاً للأهواء والمصادفات، أو وفقاً لإرادة الأفراد، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة، مطّردة النتائج واضحة المعالم.. لا يد لأحد على وقف علمها.. فليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطور لغة ما، أويجعلوها تجمد على وضع خاص، أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي»(١).

وحين نسير في الشارع، ونستمع إلى متحدث عابر، وآخر، وآخر، وفي المقهى، والبيت، واجتماع اللجان، وقاعة المحاضرة، وبين أناس في مستوى ثقافي، يُفترض أن يكون واحداً، نجد أن التعامل مع اللغة، عند هؤلاء ضرب من ضياع، لا وجود لتقاليد لغوية واحدة، أو وعي لغوي في الفكر وتداعي الكلمات، ولا شك في: «أن العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمة منذ أن وجدت اللغة، ووجدت الحياة الاجتماعية. فجوهر الإنسان إنما يكمن في لغته وحساسيته وحياته الاجتماعية»(٢)، وأن يدرك كيف يعبر عن أفكاره؟ وينبغي «للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني، على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»(٣).

إن هناك فروقاً فردية وأمزجة وظروفاً لا تجعل من لغة الحديث واحدة متحدة، وقد تختلف عند الفرد، في ظرفين متشابهين. ولكن اللغة تحولت عندنا إلى نوع من الخلط، لا نعرف، في كثير من الأحيان، كيفية إقامة علاقات بين ألفاظها؟ ولا روابط بين الجمل والفقر، ولا ندري كيف تكون المحادثة جسراً بين شخصين، وتوصيلاً بين جماعتين؟ ولا يمكن أن نرجع الأمر كله إلى اللغة، ولكن إلى قسم كبير من المتكلمين بها، والفكر الموجه للتعبير، والهدف المراد من الإفصاح عما يدور في الخلجات، وهنا تصبح التوعية اللغوية بين الناس ضرورة، فإن تأكد هذا الواقع في جزء من مدينة، فكيف نعمل على بناء تقاليد لغوية في مجتمع نود أن يكون واحداً متكاملاً؟.

ولندع الحديث اليومي، ولنأت إلى خير من يتعاملون باللغة، لنرى ضرباً آخر قاتلاً من ضياع لغوي عند شعراء وكتاب يفترض فيهم أن يمثلوا أعلى مستويات هذه اللغة إشراقاً وابتكاراً وإبداعاً، ولا أقصد الخطأ اللغوي، فأمره هين، وتصحيحه سهل، ولكن أعني الأساليب، وما يختص به مجتمع من طرائق في التعبير، وكيف يصل أديب إلى أسلوب يعرف به ويدل عليه، ويكون علامة وسمة وقيمة في الإبداع؟ وقد أقبلت الأوقات الصعبة على الشعراء، فلا قيمة لأية قصيدة دون تفرد صاحبها بجملة شعرية خاصة، وهذا ما يوقعنا في ارتجال التجريب، ونمطية العطاء، وتعقيد المضمون، «اللغة عند الناس، شأن عام من شؤون حياتهم، فهي وسيلتهم المشتركة في التفاهم والتفكير منذ وجدوا، لكنها، في الشعر،

تكتسب طابعًا خاصًا، فمهمة الشاعر أن يرتفع باللغة من عموميتها، ويتحول بها إلى صوت شخصي، أن ينظمها من خلال رؤيته وموهبته، في أغنى الأشكال تأثيرًا، مستثمرًا دلالاتها وأصواتها، وعلاقات بنائها وإيقاعها على نحو فريد، فبقدر ما يتميز الشاعر في خلق لغته الخاصة يتجلى إبداعه. فاللغة بهذا المعنى، تكاد تؤلف جوهر الشعر، ولا عجب إذن، أن حظيت لدى القدماء بكل تلك العناية والاهتمام، حتى لكأن النقد اللغوي هو عمود النقد العربي برمته، وحتى لكأن غرام العرب بالشعر إنما كان منصرفًا، قبل كل شيء، إلى غرامهم بلغته»(٤).

التقاليد اللغوية الثابتة نتيجة جهد بشري، فردي، جماعي، حضاري، تاريخي، أدبي. وبعد شيوع تلك التقاليد تأتي براعة الأدباء في تشكيله خاصة الألفاظ يتميزون بها، وتكون تلك التقاليد قاعدة لها، تُظهر قدرة الأديب على استخدامه اللغة، واكتشاف طاقاتها الكامنة بإقامة علاقات جديدة بين ألفاظها.

وعن طريق النقد اللغوي - ويخطئ من يظن أنه النحو، أو البحث عن الخطأ والصواب، أو قل ولا تقل - يمكن أن نهتدي بوعي وتأنٍ إلى الأساليب الخاصة.

«إن لغة الأدب لا تقتصر على نقل الأفكار فقط، بل هي - إلى جانب تأديتها هذه الوظيفة الأساسية - غاية بنفسها، أو هي أداة الخلق الفني، لا تلتزم أحيانًا الإطار اللغوي الشائع، ولو اتبع الأديب التركيب اللغوي الاعتيادي لكان كلامه نوعًا من التقليد البحت، أو شكلاً من أشكال الكلام الذي يفتقر إلى الأساس الأول الذي يبني عليه أي خلق أدبي، وهو رؤية الفنان الذاتية، وقدرته الخاصة في صياغة أثره الفني في صورة جديدة، تدهش القارئ، وتلفت انتباهه إلى عبقرية الأديب في استخدامه للغة»(٥).

وعلى الرغم من قصور النقد المعاصر في هذا المجال، وهرب النقّاد والكتاب منه، أو إعراضهم عنه، نرى أن النقّاد العرب القدامى أولوه عناية كبيرة لم يلتفت إليها المعاصرون، أو يستغلوها، ويطوروها.

وللجاحظ آراء في هذا المجال، والشعر عنده «ضرب من النسج، وجنس من التصوير»(٦)، ويرى الآمدي «أن حسن التأليف، وبراعة اللفظ يزيد من المعنى المكشوف بهاء وحسنًا ورونقًا حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد»(٧) وليس المقصود بالتأليف ما نعرفه اليوم، ولكنه النظم والانسجام بين الألفاظ، وبراعة الكاتب في تكوين النص الذي لا يشبه غيره. وقد لخص الآمدي نظرات نقدية كثيرة في تأكيده الغرابة التي ينفرد بها ذلك النص، وذكره الزيادة التي يقدمها، ولم نعهدها قبله.

ويقول ابن رشيق القيرواني: «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى، واختل اللفظ كان نقصًا للشعر، وهجنة عليه.. إن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة»(٨). ويرى ابن طباطبا: «ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أوقبحه، فيلائم بينها؛ لتنتظم له معانيها؛ ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وتمامه فصلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه، كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت، ويتفقد كل مصراع، هل يشاكل ما قبله؟»(٩).

ويقول ابن الأثير: «ومن عجب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دقّ فهمه، وجلّ نظره»(١٠).

وما هذه الآراء إلا أمثلة، وغيض من فيض: «والنقد اللغوي جانب من جوانب عناية العرب بلغتهم، ووسيلة من الوسائل التي اتخذوها لبيان سحرها، والحفاظ على سلامتها ونقائها. لقد عرف العرب النقد اللغوي، وتوسعوا فيه، واهتموا به في مصنفاتهم، حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن العرب لم يعرفوا غير ضربين من النقد: الأول هو النقد اللغوي، والثاني هو النقد البياني الذي يقوم على نقد الصور البلاغية المختلفة، والكشف عن طبيعتها، والتفنن في شرحها، وإبراز مواطن الجودة والرداءة فيها»(١١).

ويمكننا من خلال ما نقرأ عن العصر العباسي أن نرى تقاليد لغوية شاعت، وأن وحدة ثقافية معينة كانت قائمة، وإلا لما وجدنا رد الفعل قويًا بإزاء ما فعله أبو تمام من محاولة إقامة روابط جديدة بين الألفاظ

اللغة في العلم وسيلة فقط لأداء المعنى بدقة ووضوح، بينما براعة الأديب في البعد عن النمطية السائدة وإشراك القارئ في العملية الإبداعية

وصولاً إلى جملة شعرية خاصة به، ولما تأججت الخصومة حول المتنبي، وأحد أسبابها تفرده بخصوصية في الأداء الشعري، فالتقاليد اللغوية الثابتة، والوحدة الثقافية القائمة تخضع للتبدل والتطور أيضًا، وتتبع التحولات الاجتماعية التي تفرضها الأزمنة المتعاقبة.

إن اللغة كائن حي، ومادة الأدب الأولى، ولا يمكن للقوالب الجاهزة أن تمدها إلا بما يشل حيويتها، ولا فضل لناقلها أو مقلدها أو محاذيها، وتزهو اللغة باستمرار باستنباط علاقات جديدة بين ألفاظها، في الأدب بأنواعه، فتغتني وتتسع بالأساليب المتنوعة.

واللغة في الأدب وسيلة وغاية لتوصيل المعنى والإيحاء به، وتطويقه واستيعابه، وتقديمه بشكل جمالي معين، ولا يمكن أن تمد اللغة المنشئ بعطاء جيد من دون هذين الشرطين، والإحاطة بدور اللفظة في الأدب، لا تتكامل إلا باندماجها مع ما تؤديه من معنى مع الألفاظ الأخرى، فلا فصل بين شكل ومضمون، وإن عددنا اللغة أداة توصيل في العلم، فإن ذلك لا يصح في الإبداع؛ لأن الإيحاء جزء من الجو الأدبي الذي يقدمه النص الجيد، واللغة في العلم وسيلة فقط لأداء المعنى بدقة ووضوح، ومعادلة متزنة بين الشكل والمضمون. وبراعة الأديب تبرز في حريته باستخدامه لألفاظ ذات وشائج خاصة تبتعد عن النمطية السائدة، وفي

النقد اللغوي يعين الأديب على خرق العلاقات المألوفة وإقامة أخرى جديدة في النص لتقديم مضمون معاصر للقراء

مزجه بين الشكل والمضمون، وإيصاله إلى القراء خلقًا أدبيًا متحدًا رائعًا، فيكون للنص هيكل متماسك، وجو واحد، أو عالم خاص، إن صح التعبير، ويصير القارئ شريكًا في العملية الإبداعية يدرك أن لذلك النص بناءً داخليًا معينًا.

وتتطلع القصيدة أيضًا إلى بعدي التجربة الخاصة والعامة، فهي من جهة لا تصدر من داخل حين تعرض لتجربة الشاعر الخاصة ضمن إطار عام، ولا تنبع من خارج إذ تتناول موضوعًا عامًا من خلال موقف الشاعر الشخصي، وتفتقر إلى ما يقيدها، فتضرب في فراغ، وحين لا تفصح القصيدة عن تجربة أو جزء من تجربة، وتنحو إلى المطلق دون المقيد، تؤكد لنا أن الشاعر لا يبحث عما يغني وجوده بالتجارب الحية، إنه يخشى التجربة، ولا يعرف لها معنى، ولا يتمثل تجارب الآخرين، فتتشابه أيامه، وتتحدد معانيه، وتضيق آماده الفكرية، ويخبو التوهج الذي يمد شعره بصيرورة وتبدل دائمين، إنه لا يدرك روح المغامرة في الفكر والكشف والإبداع، أو يهرب منها، ويتجنبها حتى في مخيلته.

إن القصيدة تقع في وهدة التجريد بادعاء التجريب الذي يوهم الشاعر بتفرد ما، ولا يفرق الشاعر تحت وطأة أكثر نرجسية تعويضًا عن نقص في الموهبة والثقافة والتجربة، بين نظم قصيدة واكتشاف قارة جديدة، ويريد لها ما يريده لهذه من شيوع وشهرة.

ويلجأ شعراء، أحيانًا، وتعبيرًا عن الخيبة، إلى الغموض المفتعل، والمعاني المغلقة بدعوى العمق، وحمل المتلقي أن يتمثل النص الأدبي بمعاناة تضفي عليه نوعًا من الاعتداد وتمنحه بهجة الاكتشاف، وتتراكم قصائد لا يفهمها أحد، ولا يقوى ناظمها على شرحها، ولا تنفع معها مقولة أبي تمام: لم لا تفهم ما يقال؟.

أصبح الشعر صعبًا حين صار القارئ لا يحتفل بالأشعار الرخيصة التي تعرض معاني وأحكامًا معروفة متداولة مستهلكة، كما قرأنا لقسم من شعراء العصور المتأخرة، ولفريق من شعراء النصف الأول من القرن العشرين، ويرفض الغموض المصطنع، ويكاد يرهقه التجريب المتواصل من دون جدوى، وصار الأسلوب المتفرد شرطًا ونتيجة للأصالة الحقة والتجارب الثرة، والثقافة الواسعة والموهبة النادرة.

إن النقد اللغوي يُعنى بالأساليب، ويعين الأديب على التمكن من تميز واضح بخرق العلاقات المألوفة، وإقامة أخرى جديدة في النص، تقدم مضمونًا معاصرًا يهم جمهرة القراء، ولا ينحسر بالتعبير عن المواجد الفردية الخاصة. والأسلوب المبدع عند أديب أو أكثر أقصى مايمكن أن يطمح إليه الأدب والنقد في عصر أو عصور.

وللموضوع أهمية حاسمة في الشعر تبلورت وظهرت بوضوح قبل سنوات، بعد جيل الرواد، حين حتّمت زمنية نافذة بطموح لا حدّ له، أن يكون للشاعر المعاصر أسلوب جديد لا انقطاع بينه وبين موروثه، يتطور مع الأيام، ويتخذ مواقع جديدة. فالشاعر: «لا يتلقى لغته عن الماضي، فهو يرث نظامها الصوتي والدلالي والنحوي، مثلما يرث نظامها البلاغي الذي يجسّده تراثها الأدبي بمختلف أشكاله.

وموقف الشاعر، من حيث كونه مقلدًا أو مجددًا، إنما يتحدّد في ضوء علاقته بالماضي ونظامه وبالحاضر ونظامه، فاللغة من جهته هي أقوى ما يربط الشاعر بالماضي، وهو لا يستطيع الإفلات من نظامها أو تحطيمه كليًا، بمعنى أنه لا يستطيع إلغاء الماضي إلغاءً مطلقًا. وهو، من جهة أخرى، يرى في تراثها الأدبي رؤية جمالية .. لحالات وأوضاع إنسانية وثقافية لم تعد مثالاً للكمال في نظر الحاضر، مادام لا يستطيع أن يرى الحياة، أو أن يفكر بالطريقة التي فكر بها السابقون، ثم هو لا يستطيع أن يكتب باللغة التي كتبوا بها»(١٢).

ليس الأسلوب هو الرجل ... وحده... ولكن الأسلوب هو الأمة.

الهوامش:

١ـ د. علي عبدالواحد وافي: اللغة والمجتمع، ط٢، القاهرة، ١٩٥١م، ص٩١.
٢ـ د. هادي نمر: علم اللغة الاجتماعي عند العرب، بغداد، ١٩٨٨م، ص٩.
٣ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٣٩.
٤ـ د. عدنان حسين العوادي، لغة الشعر الحديثة في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٥م، ص٩.
٥ـ د. نعمة رحيم العزاوي: النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٨م، ص١٣.
٦ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، ج٣، ط١، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٣٨م، ص١٣٢.
٧ـ أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج١، ط١، تحقيق أحمد صقر، القاهرة، ١٩٦١م، ص٤٠٢.
٨ـ ابن رشيق القيرواني: العمدة، ج١، القاهرة، ١٩٠٧م، ص٩٤، ١٠٣.
٩ـ محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٢٤.
١٠ـ ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، ط١، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٣٩م، ص١٤٣.
١١ـ العزاوي: ص٢٤، وينظر مصدره.
١٢ـ العوادي: ص١٦١.

الكتابات في المساجد العمانية القديمة

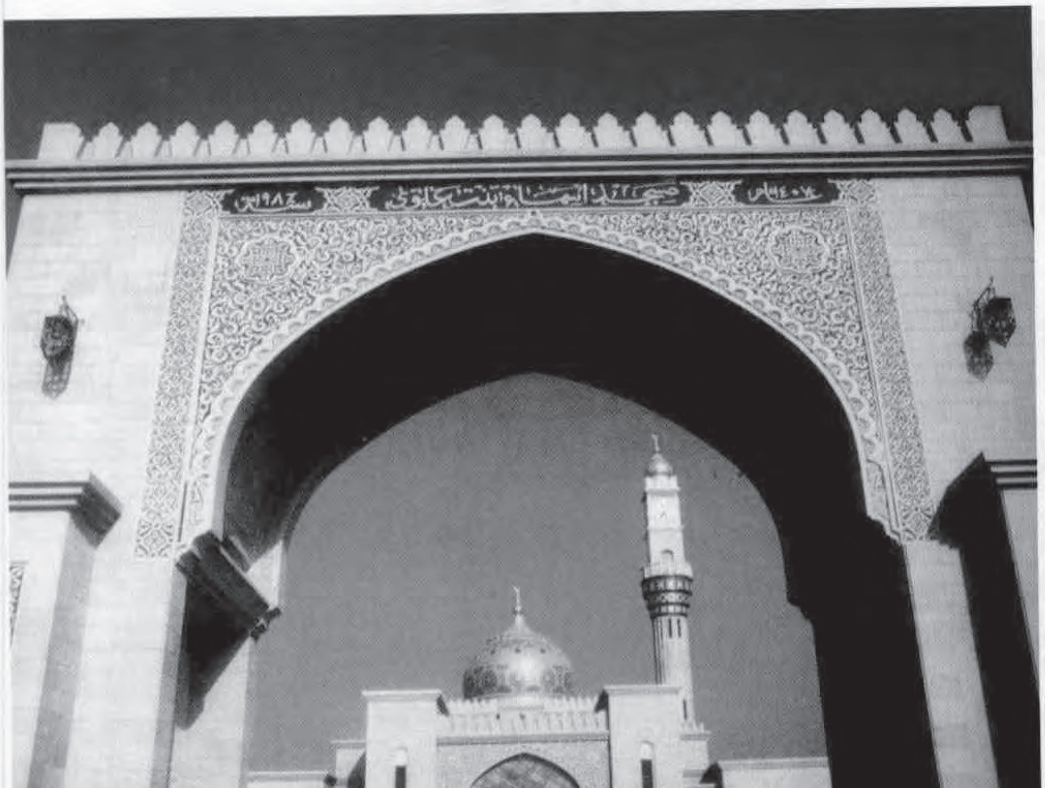
إبراهيم بن عبدالرحمن الهدلق

المسجِد، بكسر الجيم: اسم لمكان السجود، والمسجَد، بالفتح: جبهة الرجل حيث يصيب السجود، والمسجِد، بكسر الجيم: الحصير الصغير. والمسجِد شرعًا: هو الموضع الذي يسجد فيه. وفي حديثه صلى الله عليه وسلم «جعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا»(١).

كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعدّ أول مسجد بسيطًا، جدرانه من اللَّبِن، وجزء من سقفه من سعف النخيل، والآخر مكشوف، أما عماده فكان من جذوع النخيل.

وعلى غرار مسجده صلى الله عليه وسلم بنيت المساجد في البصرة والكوفة، وتطورت عمارة المساجد في الدولة الأموية.

تأثرت عمارة المساجد بالجانب الروحي، وصارت من أبرز فروع الفن الإسلامي.



مسجد أسماء بنت علوي

المسجد في القرآن الكريم

ورد اسم المسجد مفردًا وجمعًا في القرآن الكريم نحو ثلاثين مرة، وسنورد بعض هذه الآيات الكريمة.

يقول الله تعالى:

وأقيموا وجوهكم عند كلِّ مسجدٍ وادْعوه مخلصين له الدِّين. الأعراف:٢٩

ويقول أيضاً:

يا بني آدمَ خُذوا زينتكم عند كُلِّ مسجدٍ وكُلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يحب المُسْرفين. **الأعراف: ٣١**

وقال في محكم التنزيل:

لَمسجدٌ أُسِّس على التَّقوى منْ أوّل يومٍ أحقُّ أن تقوم فيه. **التوبة: ١٠٨**

وقال عز من قائل:

وأنّ المساجد لله فلا تدْعُوا مع الله أحدًا. **الجن: ١٨**

المسجد في السنة المطهرة

يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

«*من بنى مسجداً لله، بنى الله له في الجنة أوسع منه*»(٢).

وفي رواية: «*من بنى مسجداً لله ولو مثل مفْحص قطاة بنى الله له قصراً في الجنة*»(٣). ويقول أيضاً:

«*من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتًا في الجنة*»(٤).



مسجد العوينة في وادي بني خالد: نجد الشهادة كوفية الأحرف في جزئه الأعلى، وفي الإطار الخارجي المستطيل ثلاثون ختما منقوشا بأشكال زهرية، يعود هذا المحراب إلى القرن العاشر الهجري



جمال العمارة في مسجد مدينة آدم

دور المسجد

المسجد مكان لقاء المؤمنين، ومركز انطلاقهم منذ عهد الرسالة، وأول مسجد في الإسلام مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، نزل فيه الوحي، وتلقت الأمة فيه علوم دينها، ومنهج حياتها، فخرجت من الظلمات إلى النور، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن التخلف إلى التحضر والصدارة، فكان مسجده صلى الله عليه وسلم منبع حياة هذه الأمة، ومصدر هدايتها إلى يوم القيامة، فيه تفقه الناس في أمور دينهم ودنياهم، وفيه تشربوا مبادئ العدل ونظم الحكم الإسلامي.

في المسجد يُكتب القرآن الكريم ويحفظ، وفيه ترتل آياته بالليل والنهار، وفيه يتجرد الإنسان لمناجاة ربه، ومحاسبة نفسه، وتؤدى الصلوات الخمس، والجُمع، ومن منبره تُلقى الخطب في كل ما يهم الأمة المحمدية دينيًا ودنيويًا، وفيه يجتمع أعلام الأمة من المسلمين أهل الحل والعقد، وهو في الحقيقة مركز ديني اجتماعي.

محتويات المسجد

كان المسجد في البداية يتسم ببساطة البناء والتكوين، حيث كان مسجده صلى الله عليه وسلم من اللبن، وسقفه من سعف



مسجد الكبرة: يظهر على المحراب اسم الصانع واسم ابنه الذي أعانه على إنجازه، وتاريخ عمارته في عشرينيات القرن العاشر للهجرة

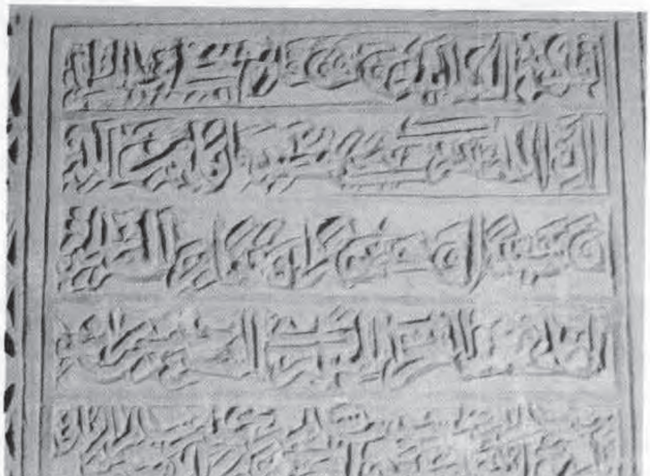
النخيل، وأعمدته من جذوعها. ثم تطور تكوين المسجد بعد ذلك وفق تطور الحياة ومقتضياتها، فأصبح يشتمل على ملحقات مختلفة منها الدينية والثقافية والاجتماعية، فزاد حجمه اتساعاً، وأصبح يضم الملحقات الآتية: الأروقة، والرباطات، والزوايا، والمحاريب، وغرف التدريس والإيوانات، وغرف التعبد. كل هذا التطور حدث في العصور الإسلامية المتعاقبة إضافة إلى العناية بفن العمارة الإسلامية، والأعمدة المحورية، وغيرها من مميزات الهندسة المعمارية الإسلامية.

وفي العصر الحديث أُدخل على المساجد الكثير من الفنون الهندسية المعاصرة، ومن أهمها القباب الكبيرة، والمنارات الشاهقة، والزخارف الحديثة التي تميزت بلمستها الروحانية، وأدخلت عليها إضافات متعددة لا سيما الأجهزة الحديثة،





مسجد الشرحة في مدينة نزوى، يظهر على المحراب اسم الصانع وسنة بنائه ٩٢٤هـ



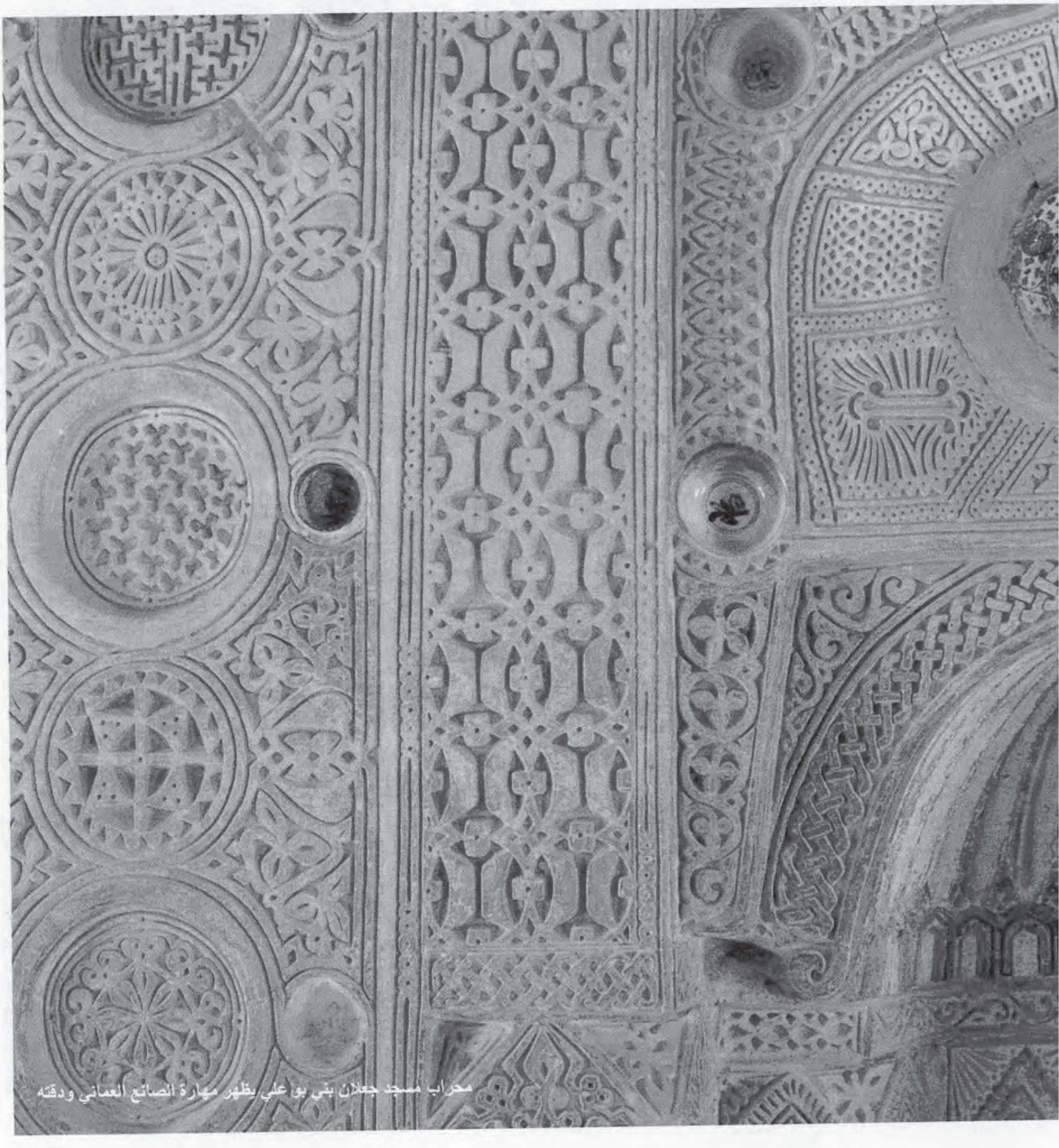
كتابة المحراب في المسجد الجامع بقرية «مقزح» التابعة لولاية «إزكي» الذي يعود إلى سنة ١٠٢٩هـ/١٦١٩م، تبرز فن نقش المحاريب في تلك الفترة

وألحقت بها دورات المياه، وأماكن الوضوء، وسكن العاملين.

العمارة الإسلامية والمسجد

برزت العمارة الإسلامية فنّاً متميزاً له طابعه الذي يعبر عن خصوصيته، وهو يبعث في النفس هدوءاً وسكينة، فترتاح العين لرؤيته، ويأخذ النفس بعيداً لتسبح في الأجواء الروحية لارتباطه بالعقيدة الإسلامية السمحة.

ويعدّ المسجد محور العمارة الإسلامية، وتشهد بذلك معظم المساجد، ومن أروع النماذج قبة الصخرة في بيت المقدس التي ظلت، وستظل مصدر إعجاب ورمزاً لروعة الفن المعماري الإسلامي، وهناك المسجد الأموي بدمشق، وجامع قرطبة في الأندلس، ومسجد السلطان أحمد في إسطنبول المسمى بالمسجد الأزرق، ومسجد مالويا ذو المنارة اللولبية في سمارا بالعراق.



محراب مسجد جعلان بني بو علي يظهر مهارة الصانع العماني ودقته



محراب مسجد الشواذنة في نزوى يعود إلى سنة (٩٣٦هـ/١٥٢٩م)، ويبلغ ارتفاعه أربعة أمتار ويتجاوز عرضه ثلاثة أمتار

كما تجلت هذه العمارة الإسلامية الراقية في قصر غرناطة، وغيره من القصور.

مما سبق نجد أن الحضارة الإسلامية هي حضارة روحية مصدرها إلهي، وحضارة هذا شأنها كان لابد أن تترعرع في كنف المسجد الذي يعدّ مصدر إشعاع علمي، ومدرسة أخلاقية تربوية، ومكان عبادة.

المساجد في عُمَان

منذ أن اعتنق أهل عُمان الإسلام طواعية في العام السادس الهجري شيّد الصحابي الجليل مازن بن غضوبة السعدي العماني الذي كان يسكن مدينة سمائل أول مسجد في عُمان، ويسمى حالياً بمسجد «المضمار»، وكان هذا المسجد نقطة البداية لانتشار المساجد وعمارتها في هذا البلد المسلم.

وتعاقبت الأيام والسنوات، والمساجد تزداد انتشاراً وتطوراً في أحجامها ومحتوياتها.

كانت المساجد في عُمان تتسم في السابق بعدم وجود منارات عالية، بل يوجد امتداد لسقف المسجد في إحدى الزوايا، وهو إشارة إلى المسجد، كما توجد فتحة في السقف للرقي إلى سطح المسجد متصلة بالداخل بسلم يوصل إليها، وهناك أيضاً أماكن خاصة لتبريد الماء الموجود في الأواني الفخارية، إضافة إلى آبار الماء للشرب والوضوء، كما تعد الكتابات جزءاً مهماً من تكوين المسجد، إذ يُفتن في زخرفتها، وهي تفصح عن معلومات مهمة عن تاريخ إنشاء المسجد، وعمن قام بعمارته.

ومن المساجد التي تدل على عراقة هذا البلد، وازدهار الفن المعماري فيه الآتي:

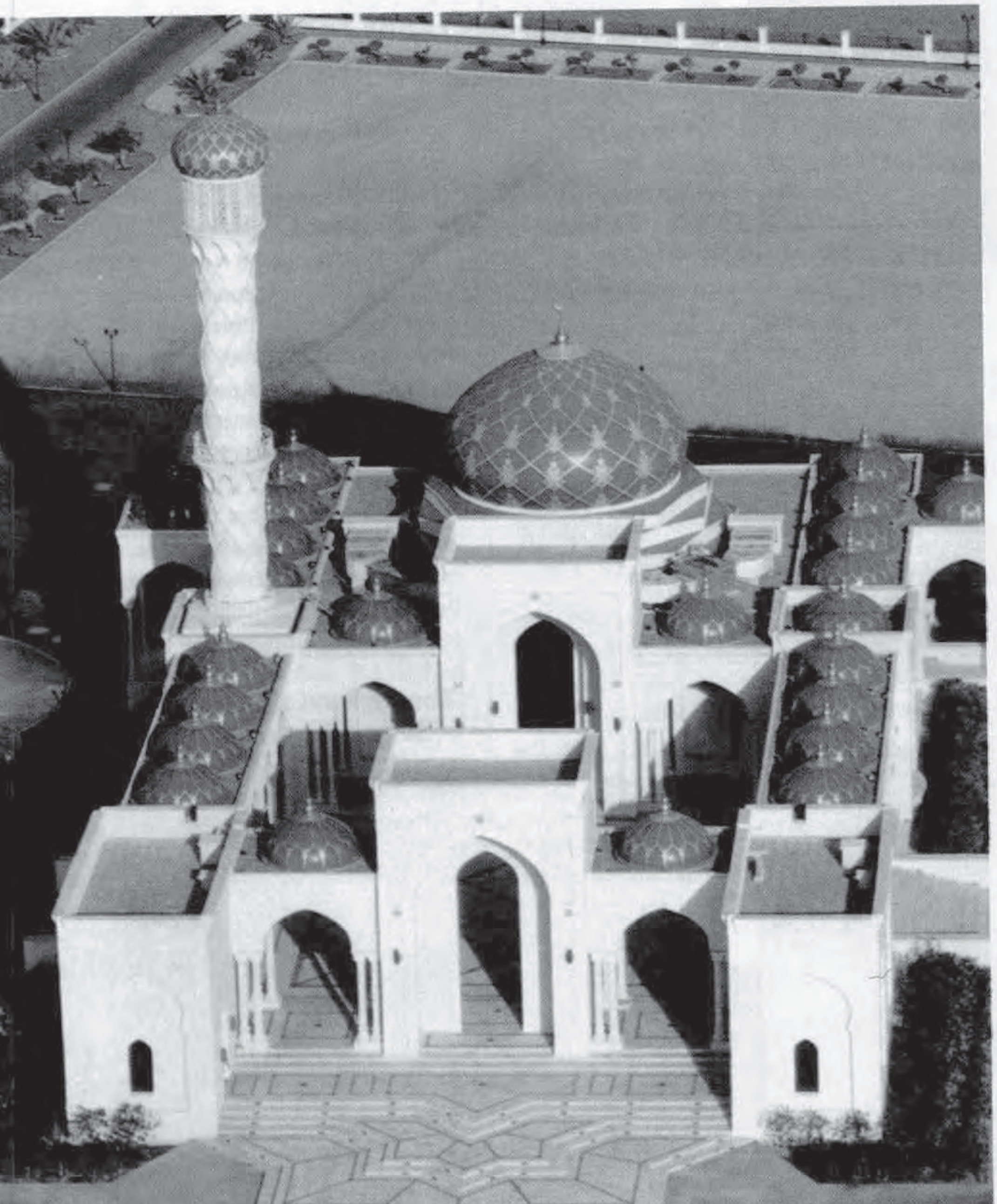
مسجد الشواذنة

يقع هذا المسجد بمحلة العقر، إحدى ضواحي مدينة نَزْوى، حيث يقوم بين المساكن التقليدية ببومته(٥)، وقد بني من الصاروج(٦)، وحالته جيدة، يتعهده أبناؤها بالصيانة، ويترددون إليه، ويقوم بدوره بكل واجباته خير قيام.

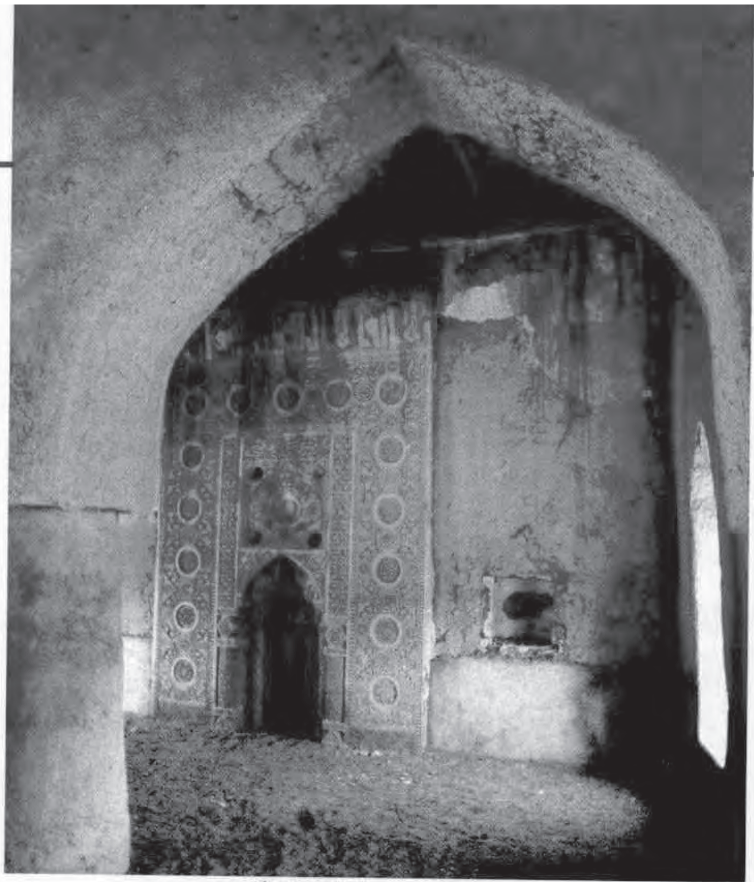
في باحته الخارجية غرفة الوضوء، وعلى جدارها الشمالي تجويف(٧) صغير يسميه أهل الحارة «مسجد القبلتين».

محراب المسجد يعود إلى سنة (٩٣٦هـ/١٥٢٩م). يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، ويتجاوز عرضه ثلاثة أمتار، أتلفت يد الزمان أجزاء منه، فإكليله(٨) مثلاً لم يبق منه إلا القليل، وواجهته العليا تحتلها حروف الشهادة، كوفية الشكل.

إطاره الخارجي مستطيل الشكل، زهري الأشكال يحوي هو الآخر خمسة عشر ختماً(٩) محفوراً تتخللها أختام أصغر حجماً، تختلط فيه الأشكال الهندسية بالزهرية.



مسجد الزلفى بالسيب



محراب مسجد العالي بولاية منح

إطاره الداخلي يستند إلى عمودين ملصقين فوق تجويف المحراب. يرتسم قوس بزخارفه المختلفة، وأجوافه الخمسة المرصعة بالخزف الصيني، واحد منها داخلي، أما الأجواف الأربعة الأخرى فعلى الزوايا الأربع لإطار القوس، على هذا القوس نجد كتابة مزدوجة متشابكة الحروف نسخية الخط، أنيقة، كلماتها، موزعة على مستويات مختلفة، كما في أساليب النحت التقليدية، وهذا مضمونها:

«أقام في هذا المحراب المبارك علي بن إبراهيم العوفي، وعمر بن سلمان بن خالد، وخلف بن عمر بن أبي سعيد، والمساعد فيه الشيخ ربيعة بن عبدالله، وإبراهيم بن محمد العوفي، وحمد بن ربيعة بن قاسم وجماعة المسجد - رحمهم الله.

والصانع له عيسى بن عبدالله بن يوسف في رمضان سنة ست وثلاثين بعد تسعمئة من هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا، وغفر لهم جميعًا وللكاتب».

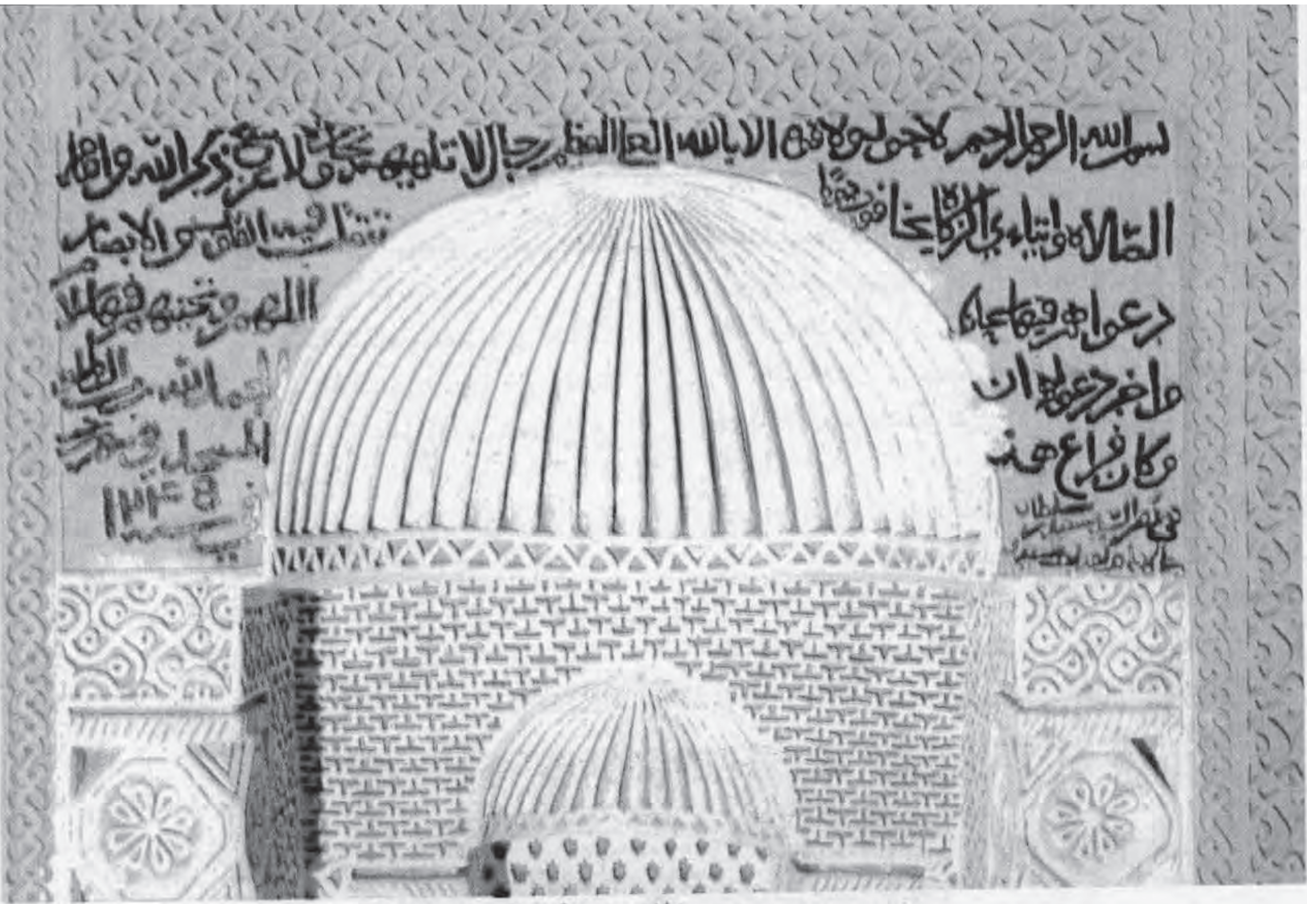
وهذا المسجد كان صرحًا علميًا تخرج فيه الكثير من العلماء والأدباء والمفكرين، والكثير من الفقهاء الذين كانوا مصدر إشعاع في الأرض العُمانية، لا يزال هذا المسجد عامرًا بالصلوات، وهو على حالته السابقة منذ بنائه (٩٣٦هـ / ١٥٢٩م).

مسجد العالي

يقع في المحلة القديمة بولاية (منح)، وهو مسجد متوسط الحجم بني محرابه في عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، وبه نقوش هندسية جميلة، وكتابات مختلفة، أهمها الآيات القرآنية.



مسجد مازن بن غضوبة وهو من أقدم المساجد في عمان



مسجد الأغبري بمدينة سمائل

وهو بسيط البناء، مكعب الشكل، صاروجي المادة، عرض محرابه يناهز المترين ونصف المتر، وارتفاعه أربعة أمتار.

في القسم الأعلى من محرابه تقرأ الشهادة، وقد نقشت بخط كوفي مزهر، تليها كتابة نسخية هذا نصها: «أقام في هذا المحراب الشيخ الأعظم ذو الجود والكرم عبدالله بن وهب عفا الله عنه للمؤمنين يوم يقوم الحساب. وقع الفراغ من هذا المحراب يوم الثلثاء [الثلاثاء] يوم ثلثة [ثلاثة] عشر من شهر رجب سنة تسع بعد تسعمائة من الهجرة النبي صلى الله عليه وسلم».

«ومن الملاحظ أن يوم ١٣ رجب ٩٠٩هـ كان يوم الاثنين لا يوم الثلاثاء. وهذا خطأ غريب».

وفوق الإطار الداخلي المستطيل تتتابع الكتابة مزدوجة على سطرين يعجّ الثاني منهما بكلمات غير متساوية الارتفاع مزاجية إلى حد أنها تقفز منه في النهاية لتحتل مكاناً في السطر الأعلى، وهذا نصها:

«عمل هذا المحراب العبد الفقير الراجي رحمة ربه وغفرانه عبدالله بن قاسم بن محمد بن هميمي المنحي، وكتب خطه بيده».

«بسم الله الرحمن الرحيم تاريخ مبنى مسجد العالي عمره الله بالمسلمين، وكان الفراغ يوم ثمانيةٍ من شهر جمادى الآخرة سنة ست وسبعين بعد ثمانمئة مائة سنة من هجرة الرسول صلعم [صلى الله عليه وسلم]، وكان القائم ببنائه الشيخ وهب بن أحمد، وأحمد بن سليمان، وحسن بن سليمان بالقاسم، وأحمد بن .... وكان السياد (؟) للمسجد».

كما يلاحظ هنا أنه علاوة على ذكر تاريخ عمارة المحراب - قد تم ذكر تاريخ الانتهاء من عمارة المسجد، ولازال هذا المسجد عامراً بالصلوات.

مسجد المزارعة

يقع في محلة المزارعة بمدينة (سمائل)، وهو مسجد متوسط الحجم، والمحراب في حالة يرثى لها، أصابه خراب ملحوظ، وتهدم جزء من سقفه، فتبعثر حطامه في أرجاء المسجد.

محرابه يعود إلى سنة (٩٧٤هـ/١٥٦٧م) يشهد على مستوى صانعه الفني والحرفي على الرغم من تصدعه.

تفيد كتابته، مع تصدع الكثير منها، أن صانع المحراب هو طالب بن مشمل المنحي.

تحت ما تبقى من الإكليل نقرأ أحرف الشهادة كوفية كبيرة، بعرض الإطار الخارجي سبعة عشر ختماً تصل بينها خطوط ملتوية، جوف(١٠) بعضها فارغ، فقد زخارفه الخزفية، زخارف هذا المحراب تتوقف عند علو معين فوق سطح أرضيته، كتابته ثلاثية الأقسام، حروف كلماتها يغطي بعضها بعضاً، وتتوزع على سطور غير منتظمة، نقرأ في القسم الأول، بعد البسملة، الآية الأولى وجزءاً من الآية الثانية من سورة «الفتح». أما القسم الثاني فقد زال بطريقة شبه كلية، ولم تصمد منه إلا بعض الحروف، ربما حروف آية قرآنية، لكونها تنتهي بـ «صدق الله العظيم».

ونقرأ في القسم الثالث من هذه الكتابة اسم الصانع وتاريخ الانتهاء من عمارة المحراب شهراً وسنة.

جامع نخل

يقع بمدينة (نخل)، ويسمى «المسجد الكبير»، وهو من المساجد القديمة، يعود محرابه إلى سنة ٩٩٤هـ/١٥٨٦م. نالت من أجزائه يد الزمن، لكنها لم تنل من رونقه، يبلغ عرض واجهته مترين ونصف المتر، أما ارتفاعها فيتعدى ثلاثة أمتار.

تعرض إكليل هذا المحراب لبعض التلف دون أن يسيء ذلك إلى أناقة الكتابة التي في ظله.

داخل إطاره الخارجي الأختام المألوفة، تفصل بينها تجاويف من خزف، نقرأ في القسم الأيمن المؤلف من أربعة أسطر «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب» عمل الأستاذ الفطن الماهر طالب بن مشمل بن عمر بن محمد.

أما القسم الأيسر من الكتابة فيحتوي على سبعة أسطر قليلة الوضوح، يمكننا أن نقرأ منها ما يلي:

«تاريخ عمارة هذا المحراب المبارك ٩٩٤ سنة هجرة الرسول، وذلك في دولة السلطان الأعظم... بن مالك(؟) بن بلعرب بن .... أقام بعمارته العبد الفقير لله سالم بن حمد بن عبدالسلام.

المسجد الجامع

يقع بمدينة نزوى التاريخية، وهو واحد من أقدم مساجد السلطنة وأهمها. إذا تأملنا هذا المسجد من الخارج شاهدنا بنايته الضخمة، فيها برج شامخ، وأبواب من الخشب الخالص، وبناء صغير لوضوء المصلين.

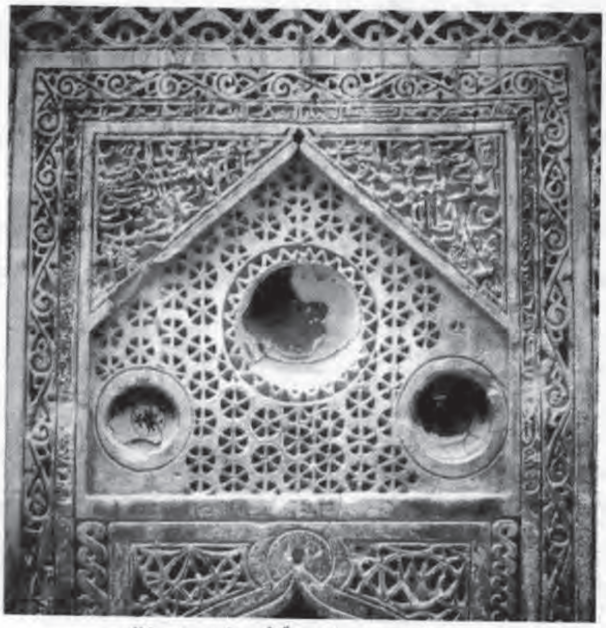
فإذا ما دخلنا المسجد وقفنا مشدوهين أمام محرابه الرائع الذي يشهد على مهارة صانعيه ومصمميه، وعلى مستواهم الفني والتقني العالي. فنحن أمام واحدة من أعلى الإنجازات مستوى وفنًا، تشهد دون أيما شك على خبرة جصاصي القرن السابع للهجرة، وبراعتهم في ترويض الجص، وفن نقشه مهارة لم يرقَ إليها أي أثر آخر في هذه المنطقة إلى يومنا هذا، كما لم يرق إلينا من هذه المحاريب أقدم منه، فهو دونما شك أقدم محاريب المنطقة، وربما أقدم محاريب السلطنة على الإطلاق.

حالة المحراب العامة لا بأس بها، على الرغم من التلف الذي لحق بأطراف الجدران من جراء السنين، وأعمال الترميم غير المتقنة، وهذا التلف لحق أيضًا بأجزاء المحراب السفلية وخاصة في داخل التجويف، فاستحال معه قراءة السطرين اللذين في أسفله، بينما لم يلحق أي ضرر يذكر بالكتابة الكبيرة والمهمة التي على جانبي المحراب وذات الحروف الكوفية الزهرية المزخرفة الأنيقة، وفيها جزء الآية(١٦) من «سورة غافر» وهذا نصها: يمينًا: «لمَن المُلْكُ اليوم» يسارًا: «لله الواحد القهَّار».

والمحراب جُملةً مَربعُ الشكل يبلغ طوله ثلاثة أمتار، أما عرضه فأقل من ذلك بقليل.

إطاره الخارجي تحيط به من الداخل والخارج كتابات قرآنية كريمة، منقوشة بخط كوفي رائع لا نراه مستعملاً في العصور اللاحقة.

بين طرفي الإطار المذكور، ومن أسفل اليمين إلى أسفل اليسار نقع على اثنين وعشرين ختمًا، يحمل كل منها رسمًا زخرفيًا مختلفا. أما الكتابة الخارجية التي على إطار المحراب، فتبدأ في أسفل الزاوية اليمنى، وترتفع فوق جبهته، ثم تنزل إلى أسفل الزاوية اليسرى، فتدور حولها داخليا، وتعود لترتفع حتى منتصف الإطار الأيسر وتلتقي فيها مع الكتابة الداخلية، جزؤها الأعلى تغطيه طبقة من الإسمنت أُلصقت فوقها بسبب عملية ترميم حديثة العهد. نص الكتابة يحمل بعد البسملة الآيات الست الأولى من سورة «المؤمنين»، وتاريخ بناء المحراب في شهر ربيع الآخر ٦٥٠هـ /حزيران/يونيو ١٢٥٢م.



محراب مسجد العوينة في وادي بني خالد

إنّ المتتبع للمساجد القديمة في عُمان يجد عدة ملاحظات نذكر منها:

- عدم وجود المنارات فيها بوجه عام عدا ارتفاع بسيط به فتحة موصلة إلى سطح المسجد، ويسمى (بالبومة)، باستثناء بعض المساجد التي بنيت في ولايتي (عبرى وشناص)، ولا يوجد تفسير دقيق لذلك، مع ملاحظة أن هذه المساجد حديثة نسبيًا إذ يقدر عمرها بثلاثمئة عام فقط.

- لا توجد بها قباب، ولكن هناك ظاهرة تستحق الاهتمام، وتوجد في ولاية (جعلان بني بو علي)تُميِّز مساجدها القديمة، وهي أن أسقفها تتكون من مجموعة من القباب يحدد عددها مساحة المسجد، ولايزال بعض تلك المساجد باقيًا حتى الآن.

- وجود عدد كبير من المساجد بين الجبال والأودية البعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان وتسمى (مساجد العُبَّاد)، ونرى ذلك جليًا في ولايات (نزوى - بهلاء - الرستاق)، وهي - كما جاء في بعض الروايات - مقر للعلماء والأئمة والعباد الصالحين الذين يفرون إليها للاعتكاف لعبادة رب العباد بعيدًا

عن شؤون الحياة ومشاغلها.

ولاشك أن ذلك من الخصوصيات التي تتمتع بها المساجد في عُمان.

- وجود عدد من المساجد على حيطانها وأعمدتها كتابات قديمة تدل على قدم تلك المساجد من جهة، ومن جهة أخرى على جودة المواد المستخدمة في البناء وفي الأحبار التي كتبت بها تلك الكتابات، وخير مثال على تلك المساجد (مسجد شجاع الذي يقع في ولاية عبري)، حيطانه ممتلئة بالكتابات المختلفة، ومن أبرز ما كتب تواريخ وأحداث مرت بها (عُمان) في فترات متعاقبة، من أهمها تاريخ خروج (العجم) من مسقط، وكان ذلك في عام (١١٠٢هـ)، وتعدّ تلك الكتابات سجلاً حافلاً بالتواريخ والأحداث.

- وجود الكثير من المساجد مبنية داخل الحصون والقلاع، وتعدّ جزءاً من تلك المواقع الحصينة، ودليلاً على اهتمام العُمانيين - حتى في الظروف القتالية - بالمساجد وعمارتها، والتفقه فيها، وتعلم أمور دينهم. ونذكر منها: (مسجد حصن عبري، ومسجد حصن ينقل، ومسجد قلعة الرستاق، ومسجد حصن جبرين).

- معظم المساجد لها أموال موقوفة لأجل خدمتها من قديم الزمان، ومازالت مستمرة؛ لأن وجود دخل للمسجد من ذلك الوقف يعطيه خاصية الاستمرار والتحديث، ويمكن من رعاية شؤونه.

و - تتميز المساجد بالبساطة في بنائها من حيث الشكل الخارجي الذي يتكون من الحوائط المبنية بمواد الطين والحجر أو الصاروج. ويوجد في إحدى الزوايا شكل على هيئة قبة صغيرة يطلق عليها اسم «البومة»، ولها فتحة صغيرة للارتقاء منها إلى سطح المسجد، حيث وضع بالداخل سلم خشبي ملتصق بالزاوية، إضافة إلى الفناء الخارجي للمسجد الذي يطلق عليه اسم الصرح. أما في الداخل فتتكون من عدد من الأعمدة والأروقة والأقواس، وذلك حسب مساحة المسجد. كذلك توجد بها محاريب مختلفة الأشكال والأحجام، لكنها تتميز بالبساطة والأناقة في آن واحد، وبعض الجوامع بها منبر على هيئة سلم له درجات تتفاوت في عددها.

أما النوافذ والأبواب فهي من الأخشاب، والسقف يتكون من خشب (الكندل) أو جذوع النخيل أو الأشجار الأخرى التي تتسم بصلابتها، وتحمل ثقل السقف.



محراب المسجد القديم في بلدة «القابل»

- وجود عدد من المساجد فيها محاريب ذات نقش متميز. في مرحلة من مراحل التطور في بناء المساجد ظهر الاهتمام بالمحاريب حيث استحدث فن النقش بمادة الجص، وكان ذلك في القرن السابع الهجري، وازدهر في القرن العاشر الهجري، وامتد إلى نهاية القرن الثالث عشر.

ويعد الصانع عبدالله بن قاسم بن الهميمي، والصانع مشمل بن عمر بن محمد وولده طالب مدرسة لهذا الفن، وهؤلاء الثلاثة من ولاية (منح)، فقد ازدهر على أيديهم فن النقش على المحاريب. وتتكون النقوش من آيات قرآنية كريمة والشهادتين بخط كوفي جميل مع تواريخ الإنشاء، وأسماء من قاموا بتمويل البناء والصناع الذين صنعوا هذه المحاريب، إضافة إلى نقوش هندسية بديعة.

وما زال عدد غير قليل موجوداً حتى الآن يقاوم عوامل الاندثار والتهدم.

الهوامش:

١- رواه أبو داود في سننه.
٢- جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل محمد بن يوسف أطَّفَيِّش • (ت: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).
٣- رواه ابن ماجه.
٤- رواه ابن ماجه.
٥- البومة: قبة صغيرة فوق سطح المسجد، يُخرج منها لإصلاحه.
٦- الصاروج: المادة الأولية المستعملة في الأبنية التقليدية.
٧- تجويف: أعمق جزء وأخفضه في قلب المحراب.
٨- إكليل: التاج الذي يزين جزء المحراب الأعلى.
٩- ختم: شكل دائري منقوش ومزخرف يتردد في عدد زخارف إطارات المحاريب.
١٠- جوف: حفرة مزخرفة بالخزف الصيني.

المراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- سنن أبي داوود.
٣- سنن ابن ماجه.
٤- جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل، محمد بن يوسف أطفيش.
٥- دليل المساجد في سلطنة عُمان، وزارة العدل والأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ، سلطنة عمان.
٦- الكتابات في المساجد العمانية القديمة، د. ايروس بلد يسيرا، ط١، ١٤١٤هـ، وزارة التراث القومي والثقافة.

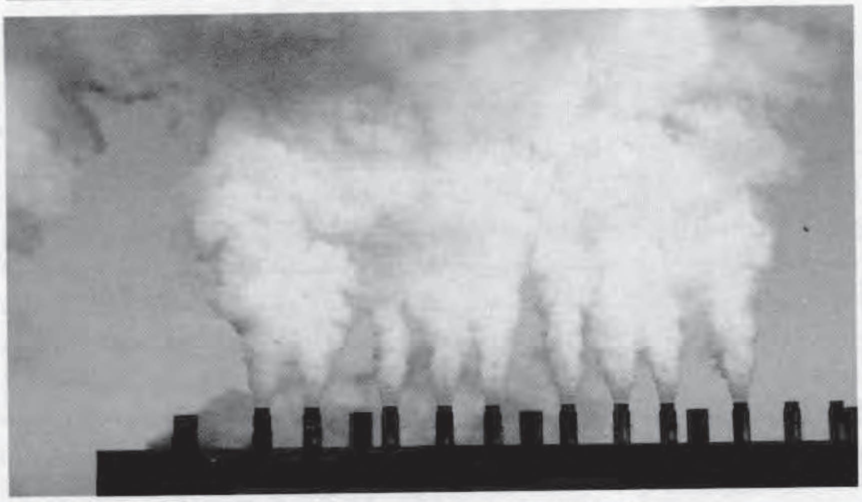
التوسع العمراني في المدن: نعمة أم نقمة؟

محمد فيض الله الحامدي

الإنسان اجتماعي بالطبع، فهو يسعى إلى تحقيق حاجاته الحيوية والأمنية، كالغذاء والماء والتواصل الاجتماعي لحماية النسل والتكاثر. وظلت الحاجة الأمنية التي تحقق له الراحة والاستقرار هي الهاجس الأكبر في حياته، فدفعته للتجمع في مجموعات كبيرة، وتطلَّب ذلك تأمين مأوى لحماية الأفراد من عوامل الطبيعة والوحوش الضارية، وكذلك إدارة اجتماعية من نوع ما، لتأمين الحاجات الحيوية (البيولوجية) بشكل منظم، فظهرت المجتمعات البدائية التي تفتقر إلى الاستقرار في حواضر عمرانية ثابتة، ثم تطورت البشرية باتجاه الاستقرار والتحضر في مدن ذات عمارات تحقق أهدافًا مختلفة، «فمن الخيمة في الصحراء إلى رحلة حول القمر، ومن نار الموقد في الكهف إلى التدفئة المركزية، ومن ثقب في الحائط إلى المسطحات الزجاجية، ومن ضوء الشموع إلى الأسقف المضاءة، كانت رحلة الإنسان هي الهدف الثابت في العمارة»(١)



المدينة الحديثة تتوسع أفقياً وعمودياً بتسارع يشبه تزايد الخلايا السرطانية



الضباب الدخاني من مشكلات التلوث في المدن الكبرى

وحاول كثير من علماء التاريخ والاجتماع والفلاسفة، تفسير نشوء المدن بإرجاعها إلى سبب رئيس أو مجموعة أسباب لا مجال لتفصيلها هنا، ونكتفي بالإشارة إلى أبرز النظريات الحديثة التي فسرت نشوء المدن، وهي:

نظرية كارل وايت فوجل KAREL WITT FOGEL، ونظرية جوردون تشايلد GORDON CHILD ، ونظرية روبرت آدامز ROBERT ADAMS، ونظرية الضغط في الكثافة وتكوين الدولة.

وهناك آراء أخرى في نشأة المدن والحواضر، والمدن الحالية تتمتع بأكثر المعايير التي تضمنتها النظريات السابقة.

وما يهمنا في هذه الدراسة هو : نتائج التوسع العمراني في المدن الحالية، أهو نعمة تحقق الأمن والاستقرار والراحة للإنسان؟ أم نقمة يدفع ثمنها الإنسان المتحضر من راحته وصحته وحياته؟

يقول شبنجلر SPENGLER: «لقد أنجبت مياه الريف ذات يوم السوق والبلدة الريفية، وغذتها بأفضل دمائها، واليوم تمتص المدينة العملاقة الريف من دون أن ترتوي، وهي تطالب باستمرار، برفد موجات جديدة من البشر لكي تلتهمهم إلى أن تموت هي ذاتها من النزف في بيداء قفر»(٢).

ويشير شبنجلر إلى ظاهرة الهجرة المكثفة من الريف إلى المدينة بسرعة لا تتناسب مع التطور العمراني، فتؤدي هذه الهجرة إلى مشكلات مستعصية، وبمرور الزمن تصبح المدينة محاطة ببيداء قفر لعدم الاهتمام بالزراعة في الريف، ودوافع الهجرة إلى المدينة معروفة، وهي توفر الخدمات والحاجات الاستهلاكية، وفرص التعليم والعمل فيها بشكل أكبر مما في الريف.

والهجرة المكثفة من الريف إلى المدينة، تدفع إلى التوسع العمراني بصورة متزايدة على حساب المخطط التنظيمي في أكثر الأحيان، فتنشأ أحياء جديدة محرومة من الخدمات الأساسية كالماء، والكهرباء، ومجاري الصرف الصحي، فالمدينة الحديثة تتوسع في العمران أفقيًا وعموديًا بتسارع يشبه تزايد الخلايا السرطانية، وقد عبَّر عن ذلك: لوكوربوزيه LECOURBUSIER بقوله: «إن المدينة الحديثة سرطان ذو صحة جيدة»(٣).

وإذا كانت دوافع نشأة المدن في التاريخ مُسوَّغة بصراع الإنسان مع الطبيعة



سوء التخطيط وكثافة وسائل النقل عاملان أساسيان في مشكلة التلوث البيئي

من أجل تأمين الاستقرار والأمن والراحة، فإن التوسع العمراني الحالي، والتركز البشري في المدن بهذا الحجم له نتائج خطيرة على أمن الإنسان وراحته.

فبقدر سعي الإنسان إلى الراحة والرفاهية والصحة في المدينة، يتعرض للقلق والاضطراب والمرض. لقد ظهرت بدءاً من المنتصف الثاني للقرن العشرين أصوات تنادي بالحد من ظاهرة التمركز في المدن، والتوسع العمراني، وتنادي بالتخطيط السليم للمدينة، لتأمين الخدمات الأساسية، وتأمين الراحة النفسية والجسمية للإنسان، وتسابق المهندسون المعماريون في وضع تصاميم للأبنية الضخمة، وابتكرت مواد جديدة للبناء، لتقلل من النتائج السلبية المرافقة للتوسع العمراني، فالتصاميم الحديثة توفر مساحات كبيرة في البناء لنفوذ ضوء الشمس، ومنافذ للتهوية، وتصاميم تقلل من ظاهرة الصدى والضجيج، وتؤمن في الوقت نفسه الخدمات الضرورية للإنسان، وتؤمن له الراحة، وتقاوم بعض ظواهر الطبيعة كالزلازل والأعاصير في المناطق التي تتعرض لهذه الكوارث باستمرار. وقبل أن نلقي الضوء على المشكلات التي يخلقها تمركز الإنسان في المدن والتوسع العمراني، نقف عند نظرة العرب قديماً للمدينة وشروط بنائها وتخطيطها، بعد الفتوحات العربية الإسلامية، والاستقرار في الأمصار التي وصل إليها الفتح، فتأسست مدن جديدة وتطورت مدن كانت قائمة سابقًا، فأخذت مظاهر الطابع العربي الإسلامي، وكان اختيار موقع المدينة يتم وفق شروط لخّصها ابن الربيع المتوفى سنة ٨٨٥م بستة شروط وهي:

«سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء والذعار، وأن تحاط بسور يعين أهلها»(٤).

وتذكر معظم المصادر الجغرافية والتاريخية التي اهتمت بمواضيع الحواضر والمدن الشروط الواردة أعلاه بشكل أو بآخر.

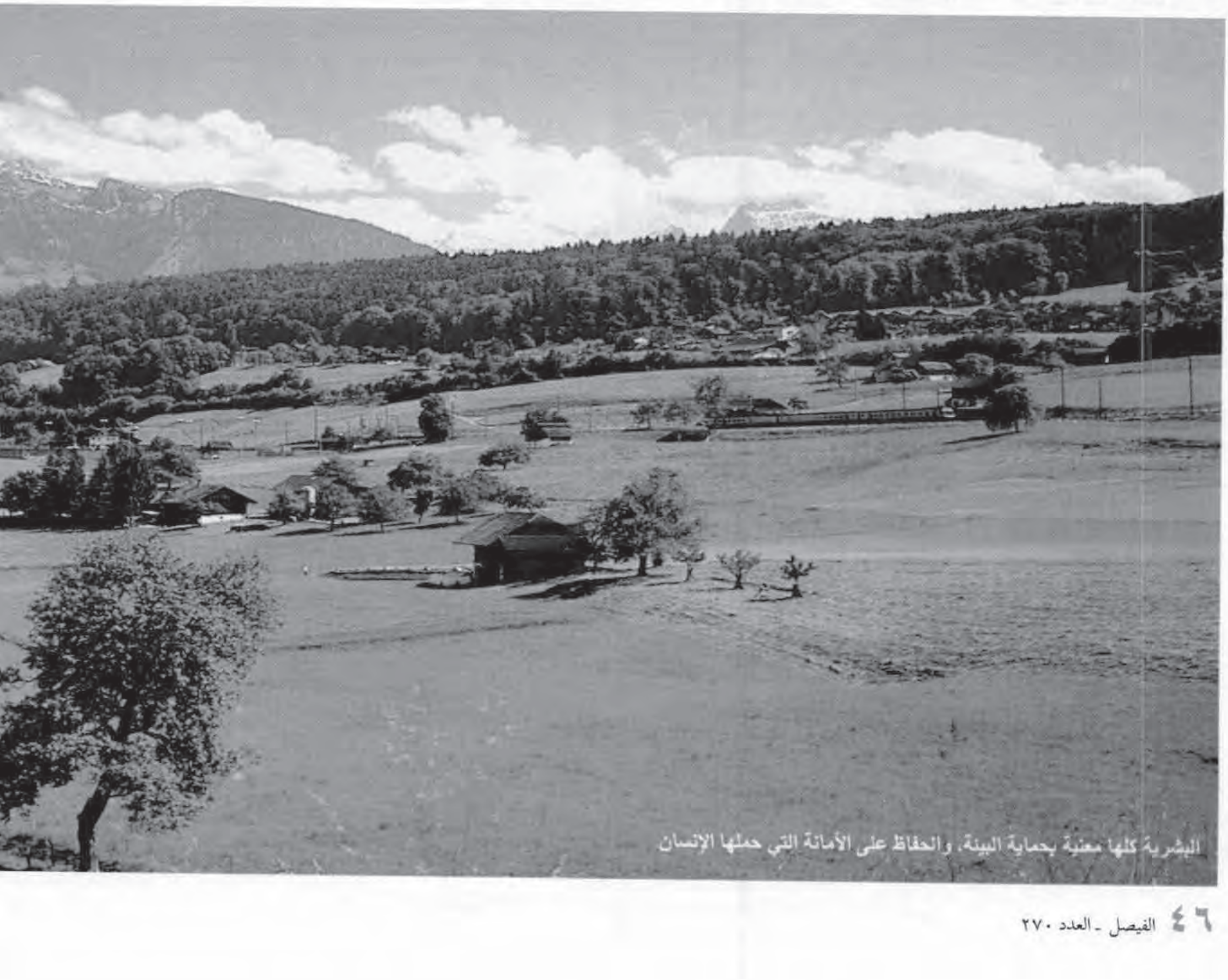
يذكر أبو ذرع أن أحسن مواضع المدن أن تجمع بين خمسة أشياء وهي:

«النهر الجاري، والحراث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها، وأمر سبلها، وكف جبابرتها»(٥).

ويذكر ابن خلدون: «أن ما تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمان، دفع المضار، وجلب المنافع»(٦).

نلاحظ أن شروط اختيار موقع المدينة وحاجة المدينة إلى الماء النقي للشرب، ولأغراض أخرى، وسهولة توفير الغذاء سواء بالزراعة أو التجارة، بوقوع المدينة على طريق القوافل، وقربها من مصادر الوقود، والأهم هو اعتدال المناخ، ونقاوة الهواء، بالإضافة إلى سبل الحماية من الأعداء.

وقد اهتم العرب بتخطيط المدن، وتحديد مواقع المنشآت كالمساجد ودور العبادة بشكل عام، والمشافي والحمامات والأسواق، واهتموا بالشوارع والساحات العامة، ولم يهملوا الجانب الجمالي في العمران «وقد أشاد المؤرخون والرحالة باتساع شوارع المرية وتونس ورباط الفتح وطرابلس والإسكندرية والقاهرة، ومنهم من بالغ في إبراز ذلك على سبيل المفاضلة، مثل ابن جبير الذي أشاد باتساع شوارع الإسكندرية، وذكر أنه لم يرَ بلداً أوسع مسالك منها. وعندما وصف التيجاني شوارع طرابلس قال: «رأيت شوارعها، فلم أرَ أكثر منها نظافة، ولا أحسن اتساعاً واستقامة؛ وذلك لأن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً إلى آخرها في هيئة شطرنجية»(٧).



البشرية كلها معنية بحماية البيئة، والحفاظ على الأمانة التي حملها الإنسان

إن ما ذكرناه يؤكد اهتمام أجدادنا بتوفير الراحة، ومستلزمات الحياة الكريمة لسكان المدينة، وتوفير الحماية والأمن والاستقرار لسكانها، فهل توفر مدننا الحالية الراحة والأمن والاستقرار لسكانها؟

المدينة المعاصرة ومشكلاتها

لا يوجد مقياس محدد للمدينة، ولكن يمكن الحديث عن سمات مشتركة بين التجمعات السكنية كافة التي تتصف بصفات المدينة، وعلى سبيل المثال: في القطر العربي السوري، في نظام الإدارة المحلية، كل تجمع سكاني يتجاوز عدد أفراده عشرين ألفًا يصنف كمدينة، وما دون ذلك يصنف كبلدة، والقرية تجمع سكاني لا يتجاوز خمسة آلاف نسمة، وقد يتجاوز عدد سكان المدينة أكثر من مليون نسمة، بل ملايين الأفراد. وحجم المدينة من حيث العمران واتساعها الأفقي والعمودي يتناسب مع عدد السكان؛ لذلك كلما كان عدد السكان أكبر كانت احتمالات المشكلات في المدينة أكبر، ويمكن تصنيف مشكلات المدينة المعاصرة بصورة عامة في ثلاث مجموعات، تتفرع بدورها إلى مشكلات قد تكون قابلة للحل، أو مستعصية تحتاج إلى إمكانات كبيرة.

- مشكلات اجتماعية: وتنتج من التفاوت الاجتماعي، ومستوى الدخل الفردي، والتربية والتنشئة بشكل عام.
- مشكلات خدمية: ومردها عدم توافر الخدمات الضرورية للسكان كالمياه، والإنارة، والصرف الصحي وتعبيد الشوارع وغيرها.
- مشكلات بيئية: ومن أسبابها التلوث والضوضاء.

وهذه المشكلات تعد من أخطر ما تعاني المدن الكبيرة منه؛ لأنها عامة، ولا يستثنى من تأثيرها أحد، وخطرها متزايد، وسنوضح بشيء من التفصيل المشكلات البيئية.



المشكلات البيئية

إن أخطر المشكلات التي يتعرض لها سكان المدن الكبيرة هي المتعلقة بالبيئة، لأنها تضر بصحة الإنسان وراحته، ويمكن وضعها تحت بندين: مشكلة التلوث، ومشكلة الضوضاء.

أولاً ـ مشكلة التلوث: تعاني بعض المدن من مشكلات التلوث، كتلوث مصادر مياه الشرب، وتلوث مصادر الإنتاج الغذائي النباتي، وتلوث الهواء في المدن بسبب تراكم القمامة في معظم أحياء المدينة، وبقائها عدة ساعات أو عدة أيام، فتساعد على انتشار الأمراض والأوبئة في الفصول الدافئة، لتكاثر الجراثيم فيها، وتكاثر الذباب والحشرات الأخرى الناقلة للأمراض.

وتفتقر معظم الأسواق الشعبية في مدننا إلى النظافة بسبب الازدحام من جهة، وقلة الوعي الصحي من جهة ثانية.

وأخطر مشكلات التلوث في المدن الكبيرة: تلوث الهواء، وسنشير إلى ظاهرتين لهما علاقة بتلوث الهواء وهما: الضباب الدخاني، والانقلاب الحراري.

الضباب الدخاني: SMOG لفظة مركبة من مقطعين، من SMOKE وتعني الدخان، FOG وتعني الضباب، وفي بعض المراجع تُعرَّب لفظة SMOG بكلمة منحوتة (الضبخن).

يتشكل الضباب الدخاني في أجواء المدن الكبرى التي يتجاوز عدد سكانها عدة ملايين نسمة مثل: لندن، وطوكيو، ومدينة المكسيك، والقاهرة أحيانًا.

والمدن العربية الأخرى لها نصيب من هذا الضباب الدخاني بنسبة معينة لا تصل إلى حد الفتك، ولكن لها تأثيراتها على الجهاز التنفسي بشكل عام.

وكان الاعتقاد سابقًا أن الضباب الدخاني يتشكل من دخان المصانع المجاورة للمدن الكبيرة، وتبين فيما بعد أن الغازات المنطلقة من عوادم النقل المختلفة هي السبب الرئيس في حدوث هذه الظاهرة.

فعندما يحترق الوقود في محركات السيارات، تتأكسد الجزيئات العضوية وتتفكك إلى نتائج نهائية هي: بخار الماء، وغاز ثاني أكسيد الكربون، وأحيانًا يكون الاحتراق ناقصًا، فتنتج مركبات مختلفة، وبتأثير الأشعة فوق البنفسجية الآتية من الشمس، يحدث تفاعل كيماوي غريب، غير معروف النتائج، فيتكون الضباب الدخاني، ويتسبب في احتقان الأغشية المخاطية، والتهاب العيون وإدماعها، وإثارة السعال، وتنتهي بعض حالات الإصابة بالاختناق، كما حدث في لندن وطوكيو والمكسيك(٨).

وتفيد بعض التقديرات أن عوادم السيارات تحتوي أكثر من مئة مركب من الهيدروكربونات، ومنها «مادة البنزوبيرن BENZOPERENE التي تتشكل من احتراق الوقود، ومن القار المستعمل في تعبيد الطرقات، وأسطح المباني، ومن نيران الزيوت البترولية، وصناعة المطاط، كما توجد في دخان السجائر، ويجمع الباحثون على أن البنزوبيرن من أخطر الملوثات المسببة للسرطان»(٩).

الانقلاب الحراري TEMPERATURE INVERSIO

في الظروف الطبيعية عندما يسخن سطح الأرض بتأثير أشعة الشمس، يسخن الهواء الملامس لسطح الأرض، فيتمدد ويرتفع إلى الأعلى، ليحل محله هواء أبرد؛ ولذلك تكون درجات الحرارة في الهواء القريب من سطح الأرض أكبر منها في المستويات الأعلى، أي كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، انخفضت درجات حرارة الهواء.

«وفي ظاهرة الانقلاب الحراري، وهي تحدث في المدن الكبيرة، ذات العمارات الشاهقة، تستقر طبقة من الهواء الدافئ فوق طبقة من الهواء البارد القريب من سطح الأرض. وبسبب ثقل الهواء البارد، فإن هذا الوضع يبقى مدة طويلة، لا يتجدد الهواء، فتتجمع الغازات والشوائب، ويزداد تركيزها بسرعة كبيرة»(١٠).

حدث الانقلاب الحراري في لندن في عام ١٩٥٥م فأودى بحياة ٤٠٠٠ شخص، وفي طوكيو في عام ١٩٧٠م فأودى بحياة ٨٠٠٠ شخص، والمشكلة تتركز في عدم تحرك الهواء، وعدم تجدده فوق المدينة، وكذلك كثافة الغازات المنطلقة من عوادم السيارات ومصادر الاحتراق الأخرى في المدينة.

وليس بالضرورة أن تكون هذه الظاهرة شاملة لكل مساحة المدينة، إذ يمكن أن

تظهر في حي كبير من أحيائها، ومدننا العربية لم تشهد هذه الظاهرة بالدرجة التي تتسبب في إحداث ضحايا بشرية، وإن كانت القاهرة المدينة العربية الأكثر احتمالاً لظهور الانقلاب الحراري في أجوائها، وبشكل خاص في الأحياء ذات الشوارع الضيقة والعمارات المرتفعة، وكثافة وسائط النقل ذات الاحتراق الداخلي.

فالتمركز السكاني في المدن، والتوسع العمراني، وسوء التخطيط، وكثافة وسائل النقل، عوامل أساسية في مشكلة التلوث البيئي.

مشكلة الضوضاء

«لقد وصلت مشكلات البيئة الناتجة من التطور الصناعي، ومخططات التنمية اللاعقلانية إلى الدول النامية بصورة سريعة، وخلال حقبة قليلة من الزمن، حيث الانتقال إلى التعامل مع قمة العطاء التقني بشكل مفاجئ، ودون أخذ الحيطة للأخطار التي تنجم عن ذلك، ومن هذه الأخطار التي يعاني منها مجتمعنا الحاضر مشكلة الضوضاء»(١١).

فما مصادر الضوضاء؟

يمكن إجمال مصادر الضوضاء بشكل عام في:

- وسائل النقل المختلفة (السيارات والقطارات والطائرات وغيرها).
- عمليات البناء المختلفة، والإنشاءات والخدمات العامة.
- الأجهزة المنزلية، كالمذياع والتلفزيون وأجهزة الطبخ وغيرها.
- الأعمال الحرفية، كالنجارة والحدادة وغيرها.
- الأصوات الصادرة من المارة، والباعة في أماكن التجمع العَرَضي.

وتختلف شدة الضوضاء من منطقة إلى أخرى في المدينة، حسب كثافة تلك المصادر، ولا تخلو منطقة من مصادر الضوضاء تماماً.

مخاطر الضوضاء

تنشأ الضوضاء من تداخل الأصوات، وتقاس شدة الصوت بوحدة تسمى الديسيبل DECIBEL، فالمحرك الصاروخي يطلق صوتاً شدته (١٨٠) ديسيبلاً، وصوت القطار السريع أو منبه سيارة شدته (٩٥) ديسيبلاً، والدراجة النارية تصدر صوتاً بشدة (٩٠) ديسيبلاً، وآلات الطباعة تصدر من (٩٠ - ٩٥) ديسيبلاً، والحديث المرتفع يصل إلى (٦٠) ديسيبلاً، وقد لا تصل هذه الشدة إلى أذن الإنسان إذا كان بعيداً عن مصدرها، وبشكل عام يتعرض الإنسان في شارع مزدحم إلى ضوضاء بشدة (٦٠ - ٧٠) ديسيبلاً.

وقد ميّز غاديك GADEKE - ١٩٦٤م. أربعة مستويات من الضوضاء:

- المستوى من (٤٠ - ٥٠) ديسيبلاً، يؤدي إلى تأثيرات وردود فعل نفسية بصورة قلق وتوتر، وخاصة لدى الأطفال وطلبة المدارس.
- المستوى (٦٠ - ٨٠) ديسيبلاً، له تأثيرات سيئة في الجملة العصبية.
- المستوى من (٩٠ - ١١٠) ديسيبلاً، يؤدي إلى انخفاض شدة السمع.
- المستوى - أعلى من (١٢٠) ديسيبلاً، يسبب ألماً في الجهاز السمعي وانعكاسات خطيرة على الجهاز القلبي والوعائي، وكل مستوى أعلى يؤدي إلى نتائج المستويات الأدنى حكماً.

تصل شدة الضوضاء في المدن الكبرى إلى (٩٥) ديسيبلاً، أي تشمل المستويات الثلاثة الأولى حسب تصنيف جاديك.

ويمكن إجمال أهم تأثيرات الضوضاء في صحة الإنسان وقدراته الفكرية والعملية بما يلي:

أولاً - التأثيرات النفسية:

تؤثر الضوضاء في قشرة المخ، فتثير القلق والتوتر والارتباك، وتقلل القدرة على الاستيعاب، وتسبب سوء الرؤية، وثبت أنها تزيد من إفراز مادة الأدرينالين وتؤدي إلى انخفاض نسبة السكر في الدم، وهذا الإجراء رد فعل عضوي (فيزيولوجي) من جانب الجسم على الضوضاء.

ثانيا - نقص القدرة على العمل:

ثبت أن العاملين في وسط يكثر فيه الضجيج، يعانون من أمراض الجملة العصبية بنسبة أكبر بثلاث مرات من العاملين في أماكن هادئة، كما أنهم يعانون من ارتفاع ضغط الدم أكثر بمرة ونصف المرة من أقرانهم في أماكن عمل هادئة، ويعانون أمراض جهاز السمع أكثر بـ (١٨) مرة من الذين يعملون في غياب الضجيج. ويعاني العمال في أماكن الضجيج من صداع، وتحسس، وتعب، وطنين في الأذن، وأحلام مزعجة، وفقدان الشهية، وكل هذه الأعراض تؤثر في قدرة العامل، فيقل الإنتاج، وتقل جودته.

ثالثا - التأثيرات العصبية والوعائية:

تؤدي الضوضاء المستمرة إلى اضطراب التوازن، وعدم انتظام النبض، وارتفاع ضغط الدم، وتضييق الشرايين، والتوتر والقلق وأمراض المعدة، واضطرابات هضمية، وضعف في القدرة الجنسية.

رابعاً - نقص السمع: ثبت أن التعرض للضوضاء بشدة (٨٠) ديسيبلاً مدة طويلة يؤدي إلى نقص في السمع دائم، وخاصة بعد سن الخامسة والعشرين. ومدننا العربية، العواصم ومراكز المحافظات والمدن الكبيرة الأخرى، تصل الضوضاء في بعض تجمعاتها إلى أكثر من (٩٠) ديسيبلاً؛ لذلك تكون مصدراً خطيراً لكل تلك التأثيرات المشار إليها أعلاه.

فكيف نتحكم بالضوضاء؟ وكيف نحمي المجتمع منها؟

فيما يلي مجموعة من الإجراءات تقلل من مصادر الضوضاء ومخاطرها وهي:

- نشر الوعي البيئي بين المواطنين، وتوضيح مخاطر الضوضاء على صحة الإنسان.
- بناء المدارس والمشافي بعيدا عن مصادر الضوضاء، كالأحياء الصناعية.
- إبعاد المطارات عن التجمعات السكنية مسافة لا تقل عن (٢٥ - ٣٠) كم.
- عدم استعمال منبهات وسائل النقل في المدن، ومراقبة حركة المرور.
- منع استعمال مكبرات الصوت في أماكن التجمع السكني إلا في حالات الضرورة القصوى.
- بناء مصانع وفرق عمل بتصاميم ماصة للصوت، ومقللة للضوضاء.
- الاهتمام بتخطيط المدن، بتوسيع الشوارع، وتشجيرها، وإحاطة المدينة بالأحزمة الخضراء، وزيادة مساحة الحدائق في المدينة.

في ختام هذا البحث نشير إلى ما يسمى بالضوضاء الخلفية AMBIENTNOISE و«تشمل كل أنواع الأصوات والضجيج التي تصل إلينا ونحن في منازلنا ومكاتبنا»(١٨). مصدرها محركات السيارات، والطائرات، والباعة، والأطفال، والمذياع والتلفاز وغيرها من مصادر الصوت».

فهل سيأتي اليوم الذي ينعم فيه أبناء المدن بالراحة في جو هادئ، وبيئة نظيفة؟ ذلك ممكن إذا توحدت جهود البشرية لحماية البيئة، وتحقيق السلام في كل بقاع المعمورة، فالبشرية كلها معنية بحماية البيئة، والحفاظ على الأمانة التي حملها الإنسان، وكان الإنسان ظلوماً جهولاً.

المراجع

١ - تكنولوجي «موسوعة علمية مصورة»، العدد (٣)، ص ٥٠، لبنان، التجارية المتحدة.
٢ - د. عادل العوا، ترجمة لمجموعة مؤلفين «معنى المدينة» ص ٣٠، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨م.
٣ - المرجع السابق، ص ٣٠.
٤ - محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - آب/ أغسطس ١٩٨٨م، من سلسلة عالم المعرفة رقم (١٢٨).
٥، ٦، ٧ - المدينة الإسلامية، مرجع سابق، صفحات ٩٦، ٩٧، ١٨٢.
٨ - د. أحمد مدحت إسلام، التلوث مشكلة العصر، ص ص ٣٥ - ٣٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - آب/أغسطس ١٩٩٠م، عالم المعرفة (١٥٢).
٩ - د. محمد العودات، التلوث وحماية البيئة، ص ٥٥، دار الأهالي، دمشق ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.
١٠ - التلوث وحماية البيئة، مرجع سابق، ص ٩٥.
١١ - التلوث مشكلة العصر، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

أبو العِبر الهاشمي الأديب الهازل

عبدالله بن سليم الرشيد

إن من يوفق للاطلاع على التراث العربي يجد أجناسًا متباينة، وأنواعًا مختلفة من الناس، فمنهم الجادّ المؤثر للجدّ، ومنهم الضاحك المضحك، ومنهم من يجمع أمشاجًا من هاتين الصفتين.

وليس بغريب أن يكون المرء ضاحكًا هازلاً، بل الغريب أن يعمد العاقل إلى لبوس الحمقى، فيتكلم بكلامهم، ويفعل أفعالهم، ويواري عقله خلف مهازل يرتكبها.

وهذا ما فعله أبو العِبر الهاشمي (محمد بن أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد الهاشمي - ٢٥٠هـ)(١) الذي ينتهي نسبه إلى العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

وُصف بأنه كان من آدب الناس(٢)، وأنه لم يُر قط أحفظ منه لكل عين، ولا أجود شعراً، ولم يكن في الدنيا صناعة إلا وهو يعملها، وكان حافظًا أديبًا(٣).

قالوا: «إلا أنه لما نظر إلى الحماقة والهزل أنفقَ على أهل عصره أخذ منها، وترك العقل، فصار في الرقاعة رأسًا»(٤).

و«نفق بذلك نفاقًا كثيراً، وجمع به ما لم يجمعه أحد من شعراء عصره المجيدين»(٥).

وكان بدءُ تحامقه تغيير كنيته، فقد كان يكنى (أبا العباس)، فجعلها (أبا العِبَر)، ثم صار يزيدها كل سنة حرفًا، فمات وهو (أبوالعبر طرد طبك طلياري بك بك بك)(٦).

ثم إنه عمد إلى الهزل في محاوراته وأجوبته. قيل له: «يا أبا العِبر، لم صار دجلة أعرض من الفرات؟ والقطن أبيض من الكمأة؟ فقال: لأن الشاة ليس لها منقار، وذنب الطاووس أربعة أشبار»(٧).

ولعلك ترى أن السؤال نفسه لا يخلو من جهل، وتحامق؛ إذ هو سؤال لا داعي له، ولذا جعل أبو العبر جوابه سخيفًا كسخف السائل.

وقد يجعل جوابه - أحيانًا - هازلاً في الظاهر، ولكنه جادّ في الباطن، فقد سأله أبو العباس ثعلب: «الظبي نكرة أم معرفة؟ قال: إن كان مشوياً موضوعًا على المائدة فهو معرفة، وإن كان في الصحراء فهو نكرة»(٨).

وله محاولات طريفة تدل على أنه ذكيّ، يحسن تقليب الألفاظ، والاستفادة من أضدادها، ويمعن فكره في معاني الأعلام، فيُخرج من ذلك طرائف ولطائف وأضاحك.

فمن ذلك أن المأمون قال عنه يومًا: أرى أنه مجنون. فقال أبو العبر - وكان حاضراً - وإنما امتخطت (حوت)، فقال: ويحك، ما معنى قولك؟ فقال: زعمت أنني مججتُ (نون). وإنما امتخطتُ (حوت)(٩) [لاحظ كيف أتى بالنادرة من جعل كلمة مجنون كلمتين: مج نون].

و«دخل يومًا على مالك بن طوق، ومالك لا يعرفه، فقال: أبو من؟ قال: أبو كل بصل.. فغضب مالك - وكانت كنيته أبا كلثوم»(١٠)، في حوار طويل لا يخلو من ظرف.

وكأنما لم يكف أبا العبر أن يهزل في محاوراته وأجوبته،

فجعل شعره هزلاً كله.

على أنه كان «يقول الشعر الجيد في أول عمره»، ولكنه «رأى أن شعره مع توسطه لا ينفُق مع مشاهدته أبا تمام والبحتري وأبا السمط»(١١) وغيرهم.

فمن شعره الجيد قبل تحامقه، قوله في الفخر:

لا أقول الله يظلمني
كيف أشكو غير متهم
وإذا ما الدهر ضعضعني
لم تجدني كافر النعم
قنعت نفسي بما رُزقت
وتناهت في العلا همَمي
ليس لي مال سوى كرمي
وبه أمني من العدم

وقوله في الغزل:

بأبي من زارني مختفيًا
خائفًا من كل حسٍ جزِعا
رصد الخلوة حتى أمكنتْ
ورعى السامر حتى هجعا
قمر نمّ عليه حسنه
كيف يخفي الليل بدرا طلعا؟
ركب الأهوال في زورته
ثم ما سلّم حتى ودّعا

وقوله في الهجاء:

رأيت من العجائب قاضِيَيْن
هما أحدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين عمدًا
كما اقتسما قضاء الجانبين
هما فأل الزمان بهلك يحيى
إذ افتتح القضاء بأعورين(١٢).

وأنت ترى أنها قطع جيدة، فيها شاعرية لا بأس بها، وبخاصة القطعة الغزلية، فاستمع الآن إلى شعره الهزلي بعدما آثر الحمق، ومال إلى الرقاعة:

قالوا: «كان الخليفة المتوكل» يرمي به في المنجنيق إلى البركة، فإذا علا في الهواء يقول: الطريق، جاءكم المنجنيق، حتى يقع في البركة، فيطّرح عليه الشباك ويصطاد، ويخرج وهو يقول:

ويأمر بي ذا الملك
فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشبك
كأني بعض السمك
ويضحك لي: هكَ هكْ»(١٣).

ومن سخافاته الشعرية قوله:

فعملنا منه طبلاً
من طبول الخدّ دمدمْ!!
فضربنا به دمدمْ
ثم دمدمْ ثم دمدمْ
عَجَبًا يا قوم مني
كنتُ معكم كالمُلَمْلَمْ(١٤)

وقوله:

أنا أنا، أنت أنا
أنا أبو العبْرَنَهْ
أنا الغنيُّ الحمققُو
أنا أخو المجنَّهْ(١٥)

في أبيات سخاف، لا معنى لها، جعلتْ بعض من ذكروه يصفه بأنه «صاحب الشعر الأحمق، والكلام المختلق، وهو أبرد الناس غير مدافع»(١٦).

وله قصيدة مزدوجة، قال عنها الحصري: «فيها ما لا يذكر من حماقات واختلال، وبرد وانحلال»، «من غير تقويم ولا إعراب» منها قوله:

أتنسى متى كان
نصيرك قهرمان
فيأتيك بالسويق
من السوق والدقيق
أما تعلم يا فار
بأن الله يختار
ويعطي غيرك الملك
عزيزًا يركب الفلك(١٧)

نثره

ذكر بعض من ترجم لأبي العبر أن له كتابًا اسمه «جامع الحماقات ومأوى الرقاعات» ولا أدري أهي حماقات شعرية أم نثرية، غير أن المعلوم أن له في النثر تحامقًا وتخليطًا ومجانة، كالذي رأيته في شعره، فمن ذلك ما كتبه لأبي العجل - وكان يسير على نهج أبي العبر: «من أبي العبر الرقيع، ذي النسب الرفيع، لأبي العجل الوضيع: إني وليتك خراج ضياع الهواء، ووكلت بك البلاء، وفوّضت إليك كيل ماء الأنهار، وإحصاء حدقات البوم، وورق الزقوم، وقسمة الشوم، بين الهند والروم، وخلعت عليك خفّي حنين، وقميصًا من الدين، وسيفًا من حين، وسراويل من شين، وعمامة من سُخنة عين.

وكُتب يوم الأربعاء غداة الأحد بعد العصر لست مضين من شهر ربيع الأول سنة ثمانين إلا مئتين»(١٨).

ومن ذلك ما كتب لبعض أصحابه: «أما قبل، فأحكم بنيانك على الرمل، واحبس الماء في الهواء، حتى يغرق الناس من العطش»(١٩).

وهو كما ترى يجمع المتناقضات، ويقلب الكلام، وهذا مما يحتاج إلى براعة، غير أن بعض ما استخدمه هزلاً ومجانة - كقوله: «أما قبل»: صار يستعمله بعض الكتاب اليوم في موضع الجدّ، وهو تغيير في نظري لا يخلو من ثِقل وسماجة.

وبعد

فإن هذا التغيير الذي طرأ على شخصية أبي العبر، من إيثار للحمق على العقل، وميل إلى الجهل، هو تطبيق عملي لما شاع على ألسن أدباء عقلاء، يشيرون فيه إلى كساد أهل العقل، ونفاق أهل الجهل، فهذا أبو تمام يقول:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجى
إذن هلكت من جهلهنّ البهائمُ

والمتنبي يقول:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

وعبدالقاهر الجرجاني يصرّح بأكثر من ذلك:

كبِّر على العقل يا خليلي
ومِلْ إلى الجهل ميْلَ هائمْ
وكن حماراً تعش سعيداً
فالسَّعْدُ في طالع البهائمْ

ومثله المعري:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيًا
تجاهلتُ حتى ظُن أني جاهلُ

إن هذه النصوص الشعرية، وما سبقها من نصوص لأبي العبر وعنه، تدل على أن الجَهلَة والحمقى أقرب إلى نيل المطامع من العقلاء. ذاك أن العاقل يردعه عقله عن كثير من وسائل نيل الرزق.

أما الجاهل فلا يمنعه عقل، ولا يردعه حلم عن أن يكون ألهية أو ضُحْكة، يجعله صاحب المجلس وسيلة لاستدرار ضحك الآخرين، ويتندر به لإزجاء أوقاتهم.

وقد يعمد العاقل إلى التجاهل والتحامق - كما فعل أبو العبر - طلبًا للرزق؛ وتوصلاً إلى الشهرة، وما هو ببدع في هذا الأمر، فهذا عصريّه أبوالعينين الصيمريّ يحظى عند المتوكل ويجيزه؛ لأنه أضحكه على البحتري الذي كان ينشد:

من أي ثغر تبتسمْ
وبأي طرف تحتكمْ
حسن يضنّ بحسنهْ
والحسن أشبه بالكرمْ

فعارضه أبو العينين - ارتجالاً - بقصيدة على وزنها ورويها، كلها مجون وهزل(٢٠).

وهذا عصريّه الآخر أبوالعِجل، انتهج نهج التحامق، فليم على ذلك فقال:

عذلوني على الحماقة جهلاً
وهي من عقلهم ألذّ وأحلى
لو لقوا ما لقيتُ من حُرفة العقـ
ـل لساروا إلى الحماقة رسلا
أذعن الناس لي جميعًا وقالوا
يا أبا العجل: مرحبين وسهلا(٢١).

قال الحصري: «وقد يحتاج العاقل المميّز، والفاضل المبّرز، إلى الهزل كاحتياجه إلى الجد، ويفتقر إلى الجور، كافتقاره إلى القصد، وعلم الفتى في غير موضعه جهل»(٢٢).

وعلى هذا قول من قال:

وأنزلني طول النوى دار غربة
إذا شئت لاقيتُ أمراً لا أشاكلُهْ
أحامقه حتى يقال سجيّة
ولو كان ذا عقل لكنتُ أعاقلُهْ

المراجع

١ـ مختار الأغاني ١١ـ ٩٥، معجم الأدباء ١٧ ـ ١٢٢.
٢ـ طبقات الشعراء لابن المعتز، ٣٤٢.
٣ـ معجم الأدباء، ١٢٢ ـ ١٢٣.
٤ـ طبقات الشعراء، ٣٤٢.
٥ـ معجم الأدباء، ١٢٣.
٦ـ فوات الوفيات، ٣ـ٢٩٨.
٧ـ طبقات الشعراء، ٣٤٣.
٨ـ نثر الدر ٧ ـ ٢٩٣.
٩ـ فوات الوفيات ٣ـ ٢٩٨.
١٠ـ نثر الدر، ٧ـ ٢٩٣.
١١ـ مختار الأغاني، ١١ـ ٩٥.
١٢ـ انظر: معجم الأدباء ١٧ ـ ١٢٣، ومختار الأغاني، ١١ـ ٩٥، ٩٦، فوات الوفيات، ٣ـ ٣٠٠.
١٣ـ فوات الوفيات، ٣ـ ٣٠٠.
١٤ـ معجم الأدباء، ١٧ـ ١٢٥.
١٥ـ طبقات الشعراء، ٣٤٣.
١٦ـ معجم الأدباء، ١٢٥.
١٧ـ جمع الجواهر، ١٤.
١٨ـ نثر الدر، ٧ ـ ٢٩١.
١٩ـ جمع الجواهر، ٨١.
٢٠ـ معاهد التنصيص، ١ـ ٢٤١.
٢١ـ طبقات الشعراء، ٣٤١.
٢٢ـ جمع الجواهر، ١٦.

الصحافة العربية

خليل محمود الصمادي

ليست العربية للعرب وحدهم، بل هي لغة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كرمها الله عز وجل منذ أن نزلت بها آيات القرآن الكريم، وحملها الفاتحون المجاهدون معهم إلى الأصقاع البعيدة، يعلمونها الناس امتثالاً لأوامر الله عز وجل ونبيه الكريم، وأقبل المسلمون من عرب وعجم على تعلم هذه اللغة والإخلاص لها، ونذروا حياتهم لخدمتها.

ولم يعنوا بها هذه العناية الفائقة بوصفها لغةً بين لغات العالم من أجل المنافع الدنيوية، وإنما لاعتقادهم أنها أشرف لغات الأرض وأكرمها، جعلها الله عزّ وجل لغة كتابه الكريم، ورسالته الباقية ما كرّ الجديدان.

من هذا الإيمان تعبدوا بتعلمها، واحتسبوا الأجر بخدمتها، وأخلصوا في الكتابة فيها، ودأبوا على نشرها، وآثرها بعض العجم من المسلمين على لغاتهم الأم، وهاموا بها هياماً لم يعرف له مثيل.

وبرز من علماء العجم المئات، بل الآلاف من المختصين بفقه اللغة ونحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها وغير ذلك، وقد سبق الكثير منهم علماء العربية الأقحاح، والتاريخ شاهد على ذلك، حتى قال بعض علمائهم: «وكان ينبغي لكل من أراد أن يلم بثقافة عصره على أرقى صورها أن يتعلم اللغة العربية»(١).

وكان من آثار هذه اللغة أنّ حَرْفها العربي احتّل مكانا مرموقا، وغدا الحرف الرئيس في معظم لغات العجم المحلية والقومية إلى أواخر القرن الماضي، عندما قام المستعمرون وأتباعهم باستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وقد نجحوا في كثير منها كتركيا وأندونيسيا وماليزيا وبعض بلدان إفريقية وآسيا الوسطى، وأخفقوا في إيران وباكستان والمقاطعات الإسلامية في الهند.



غلاف «الداعي»



غلاف «الثقافة»

العربية في الهند

دخل الإسلام إلى الهند منذ الصدر الأول للدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوسعت تلك الفتوحات في العهد الأموي بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، واستقر الكثير من المجاهدين العرب في تلك الديار الجميلة، وكان أكبر الهجرات العربية إلى الهند في القرن السابع الهجري إذ وصل الألوف منهم، فبرز منهم الشعراء والأدباء والعلماء(٢)، وأخذوا على عاتقهم الدعوة إلى دين الله، ونشر اللغة العربية، وقد ساعدهم على ذلك إخوانهم من مسلمي الهند، واستمرت هذه الدعوة قروناً من الزمن، ومازالت بفضل الله إلى يومنا هذا. ومن الجدير بالذكر أنه، منذ ذلك التاريخ، كانت البلاد

في الهنـد

الهندية يتولى شؤونها المسلمون إلى احتلال بريطانيا العظمى لها، التي قوضت الحكومات الإسلامية، ونشرت القاديانية لتعطيل فريضة الجهاد.

المراكز والمؤسسات العربية في الهند

هناك المئات من المؤسسات الثقافية العربية في الهند تعود إلى عدة قرون، ولا نستطيع في هذه العجالة ذكرها كلها، ولكن من المعروف أن أكثر المقاطعات الإسلامية لا تخلو من المدارس والكتاتيب والمعاهد والجامعات والندوات والمراكز الملحقة بالمساجد وغيرها، تعمل على نشر اللغة العربية، ويعد المجمع العلمي الهندي الذي أنشئ عام ١٩٧٦م رابع المجامع اللغوية العربية بعد دمشق والقاهرة وبغداد.

وما من عربي متابع لحركات التأليف والنشر إلا ويذكر حركة التأليف والنشر في شبه القارة الهندية، ففي مكتبات الهند مئات الآلاف من المخطوطات العربية العريقة، التي يندر وجود مثيلاتها في البلاد العربية، وقام كثير من المحققين الهنود بتحقيقها والعناية بها، وخاصة عنايتهم بكتب الحديث الشريف. يقول السيد الإمام محمد رشيد رضا: «لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر»(٣).

والهند من أوائل الدول الإسلامية التي عرفت الطباعة الحديثة، وقبلها عرفت المطابع الحجرية التي طبعت المئات من كتب الحديث الشريف.

ولم يكتف علماء الهند بنشر كتب الحديث والفقه، بل وصلت جهودهم إلى فنون اللغة العربية كافة، كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والشعر والأدب وغيرها.

وعندما دخلت الصحافة العالم الإسلامي كانت الهند سباقة إلى هذا الفن الجديد، ولا عجب أن نقول: إن الهند عرفت الصحافة العربية قبل أكثر البلدان العربية.

الصحافة العربية في الهند

تنقسم الصحافة في الهند قسمين: الصحف والمجلات.

الصحف: عرفت الهند الصحف قبل المجلات في وقت كانت هي الشائعة والمنتشرة في العالم، وذلك منذ أواخر القرن الماضي، فقد أصدر نصرة علي خان عام ١٨٨٠م في دلهي صحيفة عربية اسمها «نصرة الأخبار»، حملت كثيراً من أخبار العرب وأخبار لغتهم وآدابهم وفنونهم، وفي الوقت نفسه أصدر


البعث الإسلامي
العدد الرابع
المجلد الثاني والأربعون
رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي
واضح رشيد الندوي
ALBAAS-EL-ISLAMI
C/O NADWATUL ULAMA

غلاف «البعث الإسلامي»



الشيخ أبو الحسن الندوي

المستشرق د. ليتر في البنجاب صحيفة «النفع العظيم»، لاقت تشجيعاً مع زميلتها من محبي اللغة العربية هناك.

وفي عام ١٨٨١م صدرت في كلكتا صحيفة «مفرح القلوب»، وفي عام ١٨٩٢م صدرت صحيفة «نخبة الأخبار»، وفي عام ١٩٠٠م أصدر محمد عيد العلي المدراسي في لكنهؤ صحيفة «الرياض»، وفي عام ١٩١٢م أصدر أحمد أبو الكلام أزاد الدهلوي صحيفة «الهلال»، وحمل الاسم نفسه صحيفة أصدرها مسعود حسن الزبيدي عام ١٩٢٧م في كلكتا، وفي بومباي أصدر محمد معراج وعبدالله شريف صحيفة «صوت الحق» عام ١٩٢٥م. وقد توقفت كل هذه الصحف عن الصدور بعد فترات متفاوتة، واستبدلت المجلات بها.

المجلات:

أولى المجلات الصادرة في الهند هي مجلة «الرابطة العلمية» أصدرها السيد أحمد الدهلوي وزير المعارف السابق في عليكرة عام ١٢٨١هـ، ثم صدرت بعدها «تهذيب الأخلاق» عام ١٢٩٢هـ، ثم «البيان» أصدرها عبدالله العمادي عام ١٩٠٢م، ثم صدرت «الجامعة الإسلامية الهندية» في كلكتا عام ١٩١٣م أصدرها الخوجة كمال الدين، وفي عام ١٩٢٠م أصدر السيد سليمان الحسني الندوي مجلة «المعارف» في حيدر آباد.

وفي عام ١٩٢٣م أصدر عبدالرزاق اللكنهوي مجلة «الجامعة» في لكنهؤ، وفي المدينة نفسها أصدر أبو الكلام أزاد عدة مجلات عربية منها «الندوة» عام١٣٢٢هـ، وفي مدينة أمر تسار صدرت مجلة «الوكيل»، ومجلة «أهل السنة والجماعة» عن عبدالحكيم عبدالحق الأمر تساري، وعن مركز الدعوة الإسلامية لجمعية علماء الهند صدرت عدة مجلات عربية أهمها: المحشر، والمهذب، والأخبار، وغير ذلك من عشرات المجلات التي صدرت في ربوع القارة الهندية.



غلاف «الصحوة الإسلامية»



غلاف «النهضة الإسلامية»

نظرة في الدوريات العربية في الهند الصادرة حالياً

لا شك أن الدوريات العربية في الهند أدّت دوراً مميزاً في نشر الوعي الإسلامي هناك، وأن جلّها كان ومازال له بصمات واضحة في مسيرة الصحافة العربية والإسلامية، ومازال الكثير منها يصدر في أيامنا هذه ومن أهمها:

ـ البعث الإسلامي: أنشأها فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسيني ـ رحمه الله ـ عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م في لكنهؤ عن ندوة العلماء، وهي شهرية جامعة، شعارها: «إلى الإسلام من جديد»، والمتصفح لأي عدد منها يجد أنها مجلة قيمة ذات أهداف واضحة في توعية المسلمين.

ومن كتابها: أبو الحسن الندوي، وسعيد الأعظمي، وواضح رشيد الندوي، ود. عدنان زرزور، و د.غريب جمعة، وسماحةالشيخ عبدالعزيز بن باز، وغيرهم من علماء الأمة.

ـ الداعي: وهي مجلة عربية إسلامية شهرية تصدر عن الجامعة الإسلامية ـ دار العلوم ديوبند، صدرت عام ١٩٧٧م بإشراف الشيخ مرغوب الرحمن رئيس الجامعة، ويرأس تحريرها نور عالم خليل الأميني أستاذ الأدب العربي بالجامعة، شعارها: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» وهي مجلة عريقة بأبحاثها ومقالاتها المتنوعة.

ـ النور: مجلة عربية إسلامية دورية تصدر عن الجامعة الإسلامية (إشاعت العلوم)(٤) منذ عام ١٤١٠هـ في مدينة أكل كوا، مشرفها العام فضيلة الشيخ غلام محمد الوستناوي (رئيس الجامعة)، ويرأس تحريرها: عبدالرحمن الملي الندوي، وعبدالعزيزالعمري، وهي مملوءة بالمقالات الدينية واللغوية والأدبية التي يحررها عدد من علماء الهنود والعرب.

ـ صوت الأمة: مجلة شهرية عربية إسلامية تصدر عن دار التأليف والترجمة بمدينة بنارس، يشرف عليها د. مقتدي حسن ياسين الأزهري، أنشئت عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، شعارها: «دعوتنا: عودة بالأمة إلى الكتاب والسنة».

ـ الدعوة: نشرة شهرية إسلامية، تصدر في مدينة علي كره بالهند رئيس تحريرها الشيخ جلال الدين العمري، وهيئة التحرير د. عبدالحق الأنصاري، و د. كوثر يزداني الندوي، وعبدالحق الفلاحي، وإقبال مسعود الندوي، وحافظ رفيق أحمد وغيرهم.

ـ الرائد: صحيفة نصف شهرية باللغة العربية صدرت عام ١٣٧٨هـ عن ندوة العلماء في لكنهؤ (دار العلوم)، وهي زاخرة بأخبار العربية وآدابها، بالإضافة إلى نشرها المزيد من البحوث والدراسات الإسلامية. ويصدر عنها ملحق

متخصص بالأدب العربي، بالاشتراك مع رابطة الأدب الإسلامي اسمه (الأدب الإسلامي). يشرف عليها الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وهي المجلة الثانية المتخصصة بالأدب الإسلامي بعد المشكاة المغربية، ولعل الملحق أصبح مجلة مستقلة تعنى بالأدب الإسلامي تصدر عن الرابطة المذكورة منذ عدة سنوات.

- مجلة الجامعة السلفية: وهي شهرية صدرت عام ١٩٨٥م عن إدارة البحوث والدعوة والإفتاء بالجامعة السلفية في مدينة بنارس، وتدعو إلى التمسك بسيرة السلف الصالح ومحاربة البدع والأهواء والانحراف عن الدين.

- مجلة المجمع العلمي الهندي: وهي على غرار مجلات مجامع دمشق والقاهرة وبغداد وعمان، صدرت عن المجمع العلمي الهندي الذي أسس عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م في مدينة عليكرة، وكان هذا المجمع حلم كثير من العلماء الهنود الذين تربطهم بالمجامع العربية صلات وثيقة منذ عشرات السنين، وتحقق حلمهم أخيراً، وبدؤوا بإنشاء المجمع لخدمة اللغة العربية هناك، وصدر عن المجمع مجلة قيّمة أغنت المكتبة العربية بعدد من البحوث والمقالات المتخصصة بالعربية وآدابها. والمجمع مكون من رئيس المجمع الأستاذ ظل الرحمن خان، وأمينه د. محمد راشد الندوي، وعضوية ثمانية أعضاء منهم العلامة أبو الحسن الندوي.

- الصحوة الإسلامية: مجلة فصلية جامعة يصدرها القسم العربي بالجامعة الإسلامية (دار العلوم) في حيدر آباد، صدرت عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م. يرأس تحريرها محمد نعمان الدين الندوي، أستاذ الأدب العربي بالجامعة المذكورة، وتعالج المجلة المشكلات والقضايا الإسلامية.

- الثقافة: مجلة اجتماعية جامعة شهرية، تصدر عن دار الثقافة للدعوة والصحافة في نيودلهي، وتهتم بالموضوعات الثقافية والسياسية والأدبية واللغوية. صدرت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ويرأس تحريرها الأستاذ محمد عبدالرحمن الفيضي.

- النهضة الإسلامية: مجلة فصلية جامعة، تصدر عن دار العلوم الإسلامية بستي الهند، والمشرف العام محمد باقر حسين، ورئيسا التحرير فيروز أختر الندوي وشهاب الدين الندوي، وهناك عدد من المطبوعات العربية في الهند لم نتمكن من الاطلاع عليها.

أهداف الصحافة العربية في الهند

لا تختلف الصحافة العربية في الهند عن أهداف الصحافة العربية الإسلامية الملتزمة؛ وإذا كانت الصحافة في البلدان العربية موجهة لأبناء العربية، فإن صحف الهند العربية موجهة في المقام الأول للناطقين بالعربية من الهنود، وهم كثر، ولله الحمد والمنة، وفي المقام الثاني لأبناء العربية في ديارهم. والقائمون على تلك الصحف مخلصون للغة القرآن الكريم، وقد وضعوا نصب أعينهم الأهداف التالية:

- إيقاظ الوعي الإسلامي في قلوب المسلمين، والمشاركة في آلام الأمة الإسلامية.

- الاهتمام بتوسيع رقعة اللغة العربية في الهند خصوصاً، والدول المجاورة والعالم عموماً.

- نشر الدعوة الإسلامية والثقافة العربية نقية من الشوائب.

- العمل على تصحيح صلة المسلمين بالله والعودة إلى الكتاب والسنة وتجنيبهم الخرافات والأوهام.

تهتم الصحافة الهندية الناطقة باللغة العربية بأخبار علماء عرب تهملهم الصحافة العربية في بلاد العرب

- نشر آداب اللغة العربية والعناية بالتراث العربي وتحقيق المخطوطات ونشرها.

- التعبير عن الفكر الإسلامي الأصيل المتوارث عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

- إحاطة المسلمين العرب بما يعيشه المسلمون العجم من القضايا والمشكلات.

- الدفاع عن الوجود الإسلامي والعربي في الهند والدفاع عن المقدسات الإسلامية هناك من براثن الهندوس والسيخ والبوذيين وغيرهم.

بالإضافة إلى بعض الأهداف المعلنة في بعض الصحف الصادرة هناك التي يضيق المقام من ذكرها كلها.

واقع الصحافة العربية في الهند

إن المطلع على بعض الدوريات العربية الصادرة هناك يقف مشدوها أمام هذه المطبوعات القيمة، وأمام القائمين عليها

من العلماء والكتاب والمفكرين والمحررين الذين أفنوا حياتهم في خدمة اللغة العربية في سبيل نشرها في الهند، والمتتبع لهذه الدوريات يجد المقالات الجادة، والدراسات الرصينة، والبحوث القيّمة، كما يجد القارئ العربي الأخبار السارة عن فعاليات المراكز العربية هناك التي تثلج صدور الغيورين على لغتهم، وكذلك أخبار المراكز العربية، وأخبار العلماء العرب في بلاد العرب، التي كثيراً ما تهملها صحافتنا العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر قامت معظم الدوريات هناك بنعي الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة، وكتابة المقالات المتعددة عن مآثره، ودوره في خدمة العروبة والإسلام، حتى صدرت أعداد خاصة عنه، بينما تجاهلت الصحف العربية حتى خبر وفاته، وكأن الفقيد ليس من أبناء جلدتهم(٥).

واجبنا تجاه صحافتهم

لو أن مجموعة من مفكري العرب قاموا بإصدار دورية

متى يتحرك العرب لمساعدة إخوانهم في البلاد غير العربية ممن يذودون عن لغتهم ويعملون على نشرها؟

تعنى بشؤون الأدب الغربي باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات اللاتينية، وعملت على نشر هذه الأفكار بين العرب لأصبح هؤلاء المفكرون من الذين يشار إليهم بالبنان من الغربيين، ولأغدقت عليهم الألقاب والأوسمة، ولأصبحوا من علية القوم في بلادهم وغيرها، والواقع يشهد بتكريم من قام بنشر الثقافة الغربية بين العرب من أعلى المستويات.

ونحن العرب نجد من يقوم بنشر لغتنا، والعمل بجهد متواصل من أجل حمايتها، والذود عنها، والغيرة عليها وهم من الأعاجم، ولا تربطنا معهم إلا أواصر الدين وعرا الإسلام، فما الذي فعلناه تجاههم؟.

إن أكثرنا لا يعلم عن المراكز العربية في الهند شيئاً، وخاصة الدوريات العربية، وإن علمنا فماذا فعلنا؟ الواجب علينا وفاء لهم، وللغتنا العريقة أن نشكر لهم جهودهم المضنية، وأن نمد لهم يد العون والمساعدة لدعم هذه المنارات الشاهقة، والدعاء لهم بالاستمرار والعطاء. وعلى دورياتنا العربية أن تُعرِّف بهذه الدوريات، وأن تنشر عناوينها حتى يتسنى لأبناء العروبة ممن لهم اهتمام باللغة وآدابها الاشتراك بها لتزويدها بمقالاتهم النافعة، وعلى المؤسسات الثقافية والأدبية العربية أن تفتح لها أدراجها عن طريق المساهمة بالاشتراك بها، وكذلك الجامعات والمعاهد العربية، وعلى مسؤولي مراقبة المطبوعات في وزارات الإعلام العربية أن يفسحوا لها الطريق إلى الأسواق، فذلك خير لهم من إفساح المجال للمطبوعات العربية والأجنبية السطحية، وما أكثرها، والتي تضر بلغتنا وديننا وأخلاقنا.

وختاماً لابد من التنويه والاعتراف بأن لغة القرآن الكريم هي اللغة الخالدة، فقد كرّمها الله عز وجل منذ أربعة عشر قرنا؛ إذ سخر لها من يقوم بنشرها وخدمتها من العرب وغيرهم، وخاصة في عصرنا هذا عصر غلبة اللغات الأجنبية، والافتتان بها، وعصر محاربة اللغة العربية من أعدائها، وبعض أبنائها، ولا يضرها من هذه الحملات المسعورة شيء؛ لأنها لغة القرآن الكريم، فهي قوية ولله الحمد كما كانت قوية في سابق عهدها يوم كانت اللغة الأولى في العالم أيام غلبة المسلمين، وأيام امتداد حضارتهم العريقة في أرجاء المعمورة، إنها لغة أهل الجنة، اللغة المعجزة الباقية إلى ما شاء الله، فلولا عناية الله بها لاندثرت كما اندثر كثير من اللغات بسبب تدهور أهلها وضعفهم.



غلاف «صوت الأمة»

الهوامش والمراجع:

١ـ د. توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة.
٢ـ للاستزادة عن علماء العرب هناك راجع كتاب علماء العرب في شبه القارة الهندية، يونس السامرائي، بغداد، وزارة الأوقاف، ١٩٨٦م.
٣ـ مقدمة كتاب مفتاح كنوزالسنة لمحمد فؤاد عبدالباقي، إدارة ترجمة السنة، لاهور، باكستان ١٩٧٧م.
٤ـ للاستزادة عن أخبار جامعة «إشاعت العلوم» وأنشطتها راجع مجلة «النور»، عدد ٩، مجلد٤.
٥ـ أشارت «الفيصل» إلى نبأ وفاة العالم الجليل في عددها (٢٤٥) ذو القعدة عام ١٤١٧هـ، وكذلك صحيفة عكاظ الصادرة في ١٠ شوال عام ١٤١٧هـ.

الحج في التاريخ

حكايات ونوادر

فراج عطا سالم

الحج هوالشعيرة أو الفريضة الخامسة على كل مسلم التي يتمناها، ويتوق إليها قبل موته. يقول الله تعالى: *ولله على الناس حجُّ البيتِ مَن استطاعَ إليه سبيلاً*. **آل عمران:٩٧.**

ويقول سبحانه: *وأتموا الحجَّ والعمرة لله*. **البقرة:١٩٦.**

والكلام على الحج كثير ومتشعب، سواء في الأزمان الماضية أو في الأزمان المعاصرة، فقد كتب عنه السلف في مجالات كثيرة، كالفقه والتاريخ والأدب والشعر.. وغير ذلك من الفنون، كما كتب عنه المحدثون. ومع تنوع وسائل الاتصال من إذاعة وتلفاز وقنوات فضائية وكتب ودوريات ونشرات زاد الاهتمام بالحج عبر كل تلك الوسائل، وكثر الحديث عنه في كل أقطار الدنيا.

ولعل حديثنا هنا يتناول جانبًا مختلفًا بعض الشيء، ويحتاج إلى البحث والتنقيب في كتب التاريخ والرحلات والفقه، فهو يتناول المفارقات، والحوادث الغريبة، والطرائف التي حدثت في الحج منذ أن شرعه الله سبحانه وتعالى حتى الآن. وقد لخصت كثيراً منها من مصادرها الأصلية؛ لأن منهم من عاصر هذه الأحداث، كالمقريزي والجزيري وغيرهما، ومنهم من شهدها بنفسه، كالرحالة، ومنها ما كتبته كما كتبه مؤلفه والتبعة في ذلك على المؤلف، وإن كان فيها كثير من المعتقدات الخاطئة التي كانت سائدة في ذلك الوقت مثل الذبح عند جريان عرفة، وغير ذلك من الأمور، فالذبح لله وحده.

حجة الوداع

فقد أتاه الوحي في وادي العقيق، وأمره ربه بأن يقول في حجته «هذه حجة في عمرة»، ويعني هذا القِران في الحج بين الحج والعمرة. ولما قدم صلى الله عليه وسلم إلى مكة وطاف للقدوم، وسعى بين الصفا والمروة أمر الذين لم يسوقوا الهدي أن يفسخوا حجهم إلى عمرة، ويتحللوا حلاً تامًا، ثم يهلوا بالحج وقت خروجهم إلى منى(١) وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان فيكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة».

أما النداء للحج فهو سنة للمسلمين(٢) مصداقًا لقول الله تعالى: *وأذِّنْ في الناسِ بالحجِ يأتوكَ رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق*. **الحج:**٢٧. ولما انتهى إبراهيم عليه السلام من بناء البيت طلع على جبل ثبير، وأذّن في الناس، فقال: «ياعباد الله إن ربكم قد بنى لكم بيتًا، فأمركم أن تحجوه، فأجيبوا داعي الله»(٣).

الخلفاء يقودون الحجيج

وقد اختلف فيمن حج بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهو أبو بكر الصديق أم هو عمر بن الخطاب؟ فقد حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالناس سنة اثنتى عشرة من الهجرة، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وقيل: حج بالناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، والأول أصح.

وكانت خلافة عمر عشر سنين ونصف السنة حج في جميعها إلا السنة الأولى فقط، فإنه حج بالناس فيها عتاب بن أسيد، وقيل: بل حج عمر بالناس سنيه كلها. وكان حج عمر كما عرف عنه حج زهد وتقشف، يقول المقريزي: «وقال أبو عثمان الهندي: رأيت عمر يرمي الجمرة وعليه إزار مرقوع بقطعة جراب»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها من أدم».

وعن سعيد بن المسيب قال: «حج عمر فلما كان بضجنان (وهو جبل بناحية مكة على طريق المدينة) قال: لا إله إلا الله العظيم المعطي من شاء ما شاء، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة (نوع من الصوف يلبسه العامة)، وكان فظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد».

وعن عائشة رضي الله عنها أن عمر أذن لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يحججن في آخر حجة حجها. واتفق في هذه الحجة أنه لما رمى الجمرة أتاه حجر فوقع على صلعته فأدماه، وثَمَّ جاء رجل من بني لهب فقال: «أشعر أمير المؤمنين لايحج بعدها»، ثم جاء الى الجمرة الثانية، فصاح رجل «يا خليفة رسول الله»، فقال: «لايحج أمير المؤمنين بعد عامه هذا»، فقتل عمر رضي الله عنه.. بعد رجوعه من الحج(٤).

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد ذكر ابن الأثير أنه حج بالناس في السنة الأولى من خلافته، وقيل: بل حج بالناس عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان رضي الله عنهما، أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد ذُكر أنه لم يحج في خلافته لاشتغاله بحرب الجمل وصفين(٥).

وقد تتابع حج خلفاء المسلمين وأمرائهم بالناس، وأصبحت عادة مأثورة أن يقود الحجيج خليفة، أو أمير بصورة رسمية حتى سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، ثم بعد ذلك بدأ تنظيم الحج من قبل قاصديه بأنفسهم، وبدؤوا يأتون فرادى أو مجموعات عن طريق الشركات والمؤسسات الخاصة والمحلية(٦).

الحج ماشياً

ورد أن الأنبياء كانوا يدخلون الحرم مشاة حفاة، ويطوفون بالبيت، ويقضون المناسك مشاة حفاة. وأخرج الأزرقي أن آدم عليه السلام حج على رجليه سبعين حجة، ورواه ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنه بلفظه أنه جاء من الهند على رجليه سبعين حجة «وقيل لمجاهد: أفلا كان يركب؟ قال: وأي شيء كان يحمله؟!

وقال ابن إسحاق لم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم عليه السلام إلا وحج البيت، وحج موسى ماشياً ويونس وهارون عليهم السلام. وروى الأزرقي عن مجاهد قال: حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين، وحج الحسن بن علي رضي الله عنهما خمساً وعشرين حجة ماشياً(٧).

وأول من حج ماشياً من ملوك الدنيا هو هرقل بن هرقل بن أنتونيوس من أهل صلوقيا حيث حج من حمص إلى إيليا، التي هي بيت المقدس، ووافاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرته هذه يدعوه إلى الإسلام.

والملك الثاني الذى حج ماشياً هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور رضي الله عنهم أجمعين. فقد اعتمر في رمضان سنة تسع وسبعين ومئة، وعاد إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحج، فحج بالناس، ومشى من مكة إلى منى إلى عرفات، وشهد المشاعر كلها ماشياً. وكذلك حجت زوجته زبيدة أم جعفر (بنت جعفر بن أبي جعفر) ماشية أيضاً، وكانت حجة عظيمة(٨).

وحج عبد الله بن جعفر ومعه ثلاثون راحلة، وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات. وحج علي بن شعيب من نيسابور نيفاً وسبعين حجة على قدميه، وحج أبو العباس العباسي ثمانين حجة على قدميه، وأبو عبد الله المغربي سبعاً وسبعين. وحج حسين أخو شيبان الديوري ست عشرة حجة حافياً وكان ابن جريج والثوري رضي الله عنهما يحجان ماشيين، كل ذلك ابتغاء وجه الله الكريم(٩).

محاولة قتل عبدالملك بن مروان

«حج عبد الملك بن مروان في خلافته سنتين إحداهما سنة خمس وسبعين، فهمّ شبيب بن يزيد – أحد الخوارج – أن يفتك به، فبلغه ذلك، فاحترس، وكتب إلى الحجاج ابن يوسف – بعد انصرافه – يأمره بطلب صالح ابن مُسَرِّح وغيره من الخوارج . وخطب عبد الملك الناس بالمدينة المنورة، فقال، بعد حمد الله والثناء عليه ما ملخصه:

«أما بعد فلست بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون، ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم.. وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»، ثم نزل.

وفاة المنصور في الحج

سار أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين العباسي للحج في سنة ثمان وخمسين ومئة من بغداد إلى الكوفة، واستخلف ابنه المهدي، ووصّاه وصيّةً بليغةً جداً، وودّعه وبكى، وأعلمه أنه ميت في سفره هذا، ثم سار إلى الكوفة، وجمع بين الحج والعمرة، وساق الهدي، وأشعره، وقلده لأيام خلت من ذي القعدة. فعرض له - وهو سائر- وجع اشتد به حتى مات في بئر ميمون خارج مكة لست خلون من ذي الحجة، فكتم الربيع الحاجب

تتابع حج خلفاء المسلمين وأمرائهم بالناس حتى سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى



الحجاج يؤدون الصلاة بالحرم المكّي سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م

موته حتى بايع المهدي، واتفق أنه لما نزل آخر منزل بطريق مكة نظر في صدر البيت فإذا فيه بعد البسملة:

أبا جعفر: حانت وفاتك وانقضت
سنوك وأمـر الله لابد واقعُ
أبا جعفر: هل كاهن أو منجم
لك اليوم من حر المنية مانعُ؟

فأحضر متولي المنازل، وقال له: ألم آمرك ألاّ يدخل المنازل أحد من الناس؟

فقال: والله مادخله أحد منذ فرغ، فقال: «اقرأ ما في صدر البيت»، فقال: «ما أرى شيئًا»، فأحضر غيره فلم ير شيئاً فقال: «ياربيع قف بيني وبين الحائط»، فقام الربيع بينه وبين الجدار، فرأى البيتين كما كان يراهما قبل وقوف الربيع، فعلم أنه قد نعيت إليه نفسه. فرحل من المنزل وتطيّر، فسقط عن دابته فاندق عنقه - وقيل: بل مات من مرضه - ودفن ببئر ميمون(١٠).

من حج خفية

حج السلطان الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي سنة تسع وستين وستمئة، من الهجرة خفية. فبعد تسلمه السلطة سنة ثمان وخمسين وستمئة رتب كل أموره، فعين الأمراء، وأجلس ابنه الملك السعيد محمد بركة خان في مرتبة الملك، ثم توجه إلى الحج ، ومعه الأمير بدرالدين الخازندار، وقاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي، وفخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب السر، وتاج الدين بن الأثير ونحو ثلاثمئة مملوك، وعدة من أجناد الحلقة. وسار كأنه يتوجه إلى الكرك ليتصيد، ولم يجسر أحد أن يتحدث بأنه متوجه إلى الحجاز، ووصل فعلاً إلى الكرك، ودبر أموره خفية من غير أن يطلع أحد على شيء مما فعله. وقدم المدينة فلم يقابله الأمير جماز، ولا مالك أمير المدينة، ورحل منها، وأحرم فدخل مكة، وأعطى خواصه جملة أموال لتفرق في الناس سرًا، وصار كأحد الناس لا يحجبه أحد، ولايحرسه إلا الله تعالى، وبقي منفردًا يصلي وحده، ويطوف وحده، ويسعى وحده، فلا يعرفه إلا من يعرفه، وغسل الكعبة بيده بماء الورد وصار بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم، وتباين أجناسهم، وما منهم إلا من يرمي إليه إحرامه فيغسله بيد ويناوله صاحبه، وجلس على باب الكعبة، وأخذ

فراج عطا سالم

أول من حج ماشيًا من ملوك الدنيا هو هرقل بن هرقل بن أنتونيوس، كما حج هارون الرشيد وزوجته زبيدة ماشيين

بأيدي الناس ليطلعهم عليها، فتعانق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه، وكاد يرمي السلطان عن العتبة إلى الأرض وهو مستبشر بجميع ذلك. وعلق كسوة الكعبة بيده ومعه خواصه، وكان معه في كل ذلك قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن عبد الحق الحنفي يستفتيه، ويتفهم منه أمور دينه، ومع ذلك باشر تدبير أمور الممالك وسار من مكة بعد قضاء النسك في الثالث عشر من ذي الحجة وقدم المدينة المنورة ثانيًا في عشرينه، فبات بها، وسار من غده، فقدم الكرك من غير أن يعلم أحد بوصوله، وهكذا واصل السير إلى دمشق وسائر من ببلاد مصر والشام من الأمراء ومن دونهم لا يعرفون شيئاً من خبر السلطان، ثم ركب إلى حلب خفية أيضًا، وأقام بها، ومنها توجه إلى دمشق ثانيةً، وسار ليلاً، إلى القدس، ثم نزل تل العجول، ومنها سار إلى القاهرة أول صفر وعليه عباءته التي حج بها لم يغيرها نحو خمسة وسبعين يوماً(١١).

الوقوف بعرفة مرتين

في سنة سبع وأربعين وسبعمئة كانت الوقفة الجمعة، وثبت ذلك عند قاضي مكة بحضور قاضي القضاة عز الدين بن جماعة وغيره من حجاج مصر والشام والعراق، وكان يوم عرفة بمصر وإسكندرية يوم الخميس، فأنكر الشيخ علاء الدين – علي بن عثمان التركماني الحنفي - بعد حج الناس على القاضي عز الدين بن جماعة، وأفتى أن حج الناس فاسد، ويلزم من أوقف الناس يوم الجمعة بعرفة جميع ما أنفقه الحاج من الأموال، وأنه يجب على الحجاج كلهم أن يقيموا محرمين، ولا يطؤوا نساءهم، ولا يمسوا طيبًا حتى يقفوا بعرفة مرة أخرى، وشنع بذلك عند الأمراء، وظهر الحزن على الناس، والأسف على ما أنفقوه من أموال، فشق ذلك على الأمير طغتمر (الدوادار) لأن زوجته حجت فيمن حج، وأخذ خطّ ابن التركماني بما تقدم ذكره، فغضبت الشافعية، وأنكروا مقالته، وردّوها، وقصد ابن جماعة أن يعقد مجلساً في ذلك، ويطلب ابن التركماني، ويدّعي عليه بما أفتى به، مما لا يوجد في كتب الحنفية، فرجعه الناس عن ذلك مخافة الشناعة(١٢).

وفي سنة خمسين وثمانمئة اختلف أيضًا في يوم عرفة فوقف الحاج في يوم الخميس ويوم الجمعة(١٣).

وفي سنة ثمان وتسعين وثماني مئة وبسبب غلاء الأسعار بعرفة ومنى، لم يحج غالب أهل المدينة، وكان أمير الشام برد بك المعتاد، ولم ير جمعاً قط أكثر مما اجتمع في هذه السنة مع كثرته في العام الماضي، ولكن هذا أكثر جداً مع كونه لم يجيء حج العراق، ولا حج بني جبر، ولا زيلع والسرو. ووقف الناس بعرفة الجمعة والسبت، ووقف الناس كلهم في اليوم الثاني(١٤).

وفي رحلة الهشتوكي (ت ١٠٩٦هـ) المسماة «هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام»، يقول: ولما صليت العصر بمنى.. جاءنا محمد بن المصطفى التونسي، فأخبرنا أن أهل تونس زعموا أنهم رأوا هلال ذي الحجة ليلة الشك، ومن زعم أنه رآه منهم سبعة وأحدهم قيل: إنه من طلبة العلم، وأوقعوا الناس في الشك، فسألنا عنهم ليخبرونا بما زعموا فأخبرنا أنهم توجهوا قبل عرفة للوقوف، وتبعهم الناس كلهم على أن الأركاب هذه الأزمنة يتوجهون من غير بياتهم بمنى، وهو سنّة وأماتها أهل هذه الأوقات والأزمنة قبلها. ثم جمع الشيخ وجوه ركبنا ورؤساءه كيف يفعلون؟ فاتفق رأيهم على التوجه إلى الجبل احتياطًا، فتوكلنا على الله (١٥).

وفي سنة عشرين وسبعمئة «كانت الوقفة الجمعة. قال البرزالي وابن الجوزي: فيها وقف الناس بعرفة يوم الجمعة بلا خلاف، وهذه تكملة مئة جمعة وقفها المسلمون من الهجرة الى الآن»(١٦).

في سنة سبع عشرة وثلاثمئة لم يشعر الناس في يوم الإثنين يوم التروية، وقيل: في اليوم السابع من ذي الحجة إلا وقد وافاهم أبو طاهر سليمان بن أبي ربيعة الحسن القرمطي مكة في تسعمئة من رجاله فدخلوا المسجد الحرام، وأبو طاهر سكران راكب فرسًا له، وبيده سيف مسلول، فصفر لفرسه، فبال عند البيت، وأسرف هو وأصحابه في قتل الحجاج وأسرهم ونهبهم مع هتكه حرمة البيت، وقتل في المسجدالحرام ألف وسبعمئة وقيل ثلاثة عشر ألفًا من الرجال والنساء وهم متعلقون بالكعبة، وردم بهم زمزم حتى ملأها، وفرش بهم المسجد الحرام وماييليه وقيل: دفن البقية في المسجد بلا غسل ولا صلاة، وصعد بنفسه على باب الكعبة، وضرب الحجر الأسود بدبوس، وقيل: ضربه بعض



صفحة من مخطوط إيضاح

أصحابه، وفي طرق مكة قتل من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك، وفعل الأفاعيل، وأراد أخذ المقام، فلم يظفر به؛ لأن سدنة المسجد غيبوه في بعض شعاب مكة فتألم لفقده، وعاد إلى الحجر الأسود فقلعه بواسطة أحد بنائي مكة بناء على أوامره. وقيل: إنه أقام بمكة هو وأصحابه أحد عشر يوماً، وقيل غير ذلك، وانصرف حاملاً معه الحجر الأسود، ولم يقف في هذه السنة بعرفة، ولا في نسكها إلا قوم يسير(١٧).

حوادث وحكايات غريبة بالحرم

جمل يطوف بالبيت

ومن الحكايات الغريبة الطريفة التي تحتمل الخيال ما ذكر أنه في سنة خمس عشرة وثمانمئة دخل جمل إلى المسجد الحرام، ولم يزل يطوف بالبيت حتى كمل ثلاثة أسابيع، والناس يريدون إمساكه فلم يستطيعوا ذلك، وكان إذا دنا منه شخص دقه بفيه، فلما مضى نحو ثلاثة أسابيع قال الناس لبعضهم: اتركوه فتركوه، فجاء إلى الحجر الأسود وقبّله بفيه ساعة، ثم راح إلى تجاه الميزاب فبرك عنده، وبكى ساعة، وألقى نفسه على الأرض، فمات، فحمله الناس إلى الصفا، ودفنوه هناك(١٨).



النووي في المناسك

عام الفيل

في سنة ثلاثين وسبعمئة. حج العراقيون ومعهم فيل بعثه أبو سعيد بن خربندا ملك العراقين يحمل المحمل فتشاءم الناس به، وقالوا: هذا عام الفيل، وحدثت فتنة كبيرة في مكة قتل على أثرها الأمير سيف الدمر (أمير خازندار) الذي كان برفقة أمير الحاج المصري سيف الدين خاص ترك بسبب فتنة أمير الحاج العراقي الذي حضر بالفيل المواقف كلها، وسار به إلى المدينة المنورة، فلما وصل الى الفريش الصغير قبيل البيداء الذي ينزل منه إلى ذي الحليفة وقف، وتقهقر، وصار كلما قدّم رجلاً تأخر مرة بعد أخرى، فضربوه ليسير، وهو يأبي الرجوع إلى القهقرى فصار كلما أكره على أن يتقدم إلى جهة المدينة تأخر إلى ورائه ، هذا وهم يضربونه، وهو يتأخر إلى أن سقط ميتاً في يوم الأحد الرابع عشر من ذي الحجة.

ويقال: أن المصروف عليه من حين خروجه من العراق إلى أن هلك زيادة على ثلاثين ألف درهم، ولم يعرف مقصد أبي سعيد في بعثه الفيل إلى مكة المشرفة(١٩).

طائر يطوف بالبيت الحرام

ومن الحكايات الغريبة الأخرى التي لا تخرج عن الأسطورة لما فيها من خيال ما ذكر أنه في سنة ست وعشرين ومئتين من الهجرة اتفق في يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة أن أقبل طائر - دقيق الساقين طويلهما، له عنق، دقيق المنقار طويله كأنه من طير البحر حين طلعت الشمس والناس إذ ذاك في الطواف كثير من الحاج وغيرهم - من ناحية أجياد الصغير حتى وقع في المسجد الحرام قريباً من مصباح زمزم ، مقابل الركن الأسود ساعة طويلة ثم طار حتى صدم الكعبة في نحو من وسطها بين الركن اليماني والركن الأسود، وهو إلى الركن الأسود أقرب، ثم وقع على منكب رجل في الطواف عند الركن الأسود من حاج أهل خراسان – محرم يُلبي وهو على منكبه الأيمن، فطاف الرجل به أسابيع، والناس يدنون منه، وينظرون إليه، وهو ساكن غير مستوحش منهم، والرجل الذي عليه الطير يمشي في الطواف في وسط الناس، وهم ينظرون إليه، ويتعجبون، وعينا الرجل تدمعان على خديه ولحيته، قال محمد ابن عبد الله بن ربيعة: طفت ثلاثة أسابيع كل ذلك أخرج من الطواف فأركع خلف المقام، ثم أعود، وهو على منكب الرجل، ثم جاء إنسان من أهل الطواف، فوضع يده عليه فلم يطر، وطاف به بعد ذلك، ثم طار هو من قبل نفسه حتى وقع على يمين المقام ساعة طويلة، وهو يميل عنقه، ويقبضها إلى جناحه، والناس يستكفون له، وينظرون إليه عند المقام، إذ أقبل فتى من الحجبة، فضرب بيده فيه ليريه رجلاً منهم كان يركع خلف المقام، فصاح الطير في يده في أشد صياح وأوحش، لا يشبه صوتاً من أصوات الطير، ففزع منه، وأرسله من يده، وطار حتى وقع بين يدي دار الندوة خارجاً من الظلال في الأرض قريباً من الأسطوانة الحمراء، واجتمع الناس ينظرون إليه وهومستأنس على ذلك، غير مستوحش من الناس، ثم طار هو من قبل نفسه، فخرج من باب المسجد الذي بين دار الندوة ودار العجلة نحو قُعيقعان(٢٠) ومثل هذه الحكاية الغريبة تكثر في كتب التاريخ ولعلها كانت تسرد من باب الوعظ.

جمل يقتل الناس بباب العمرة

في سنة سبع وسبعين وستمئة من الهجرة وفي يوم الخميس الرابع عشر من ذي الحجة حصلت مزاحمة بين الحاج عند خروجهم من باب العمرة بالمسجد الحرام بعد صلاة الصبح، فاعترضهم جمل في فم الزقاق في آخره، وهو زقاق ضيق جداً، فدفع بعضهم بعضاً، وزاحم الآتي الواقف، وترادف عالم لاينحصر، إلى أن دهك الناس الجمل، وأوائل الناس حوله، فخرج منهم القليل، وبقي الآخرون يموج بعضهم في بعض، ومات الجمل وحوله جمع كبير ما بين رجل ومرأة، واختلف في عدد من مات، ووصل العدد إلى نحو الثمانية، وقتل منفرداً اثني عشر ميتاً في

موضع واحد لم يدفنهم أحد إلى آخر النهار، وأما من نقل إلى منزله، وفيه الروح، ومات عند أهله، فكثير جداً، وبقي منهم أقوام بحشاشة الروح إلى أن مات بعيداً من الناس. ومنهم من حمل في أول الأمر قبل أن يأتي أعوان أمير مكة، وقال بعض من خرج من تحت الموتى وعاش: عددت خمسين ميتاً إلا اثنين، وتعجب أهل مكة من هذه الواقعة، وقالوا: ما سمعنا بمثل هذا، وما هذه الكائنة إلا إشارة من الله تعالى على جهل عظيم وقع في الأمة، واختلف الفقهاء في أمر هؤلاء الذين قتلوا(٢١).

صبغ الكعبة

في سنة تسع وخمسين وتسعمئة: شرع ناظر الحرم بعد العيد في تتمة بلاط المطاف وأضاف إلى ذلك أنه جعل صبغاً مُركباً من الزيت وبعض الحوائج، وصبغ به النورة البيضاء التي بين أحجار البيت الشريف مما يلي الأرض من جهة الباب، والحجر الأسود وزعموا أن مرادهم بذلك أن يكون لون أحجار البيت الشريف وما بينهما واحداً متناسباً، فكثرت الأسئلة عليهم من الشيبيين وغيرهم في ارتكابهم ما لا يحتاج إليه، وذلك من أنواع سوء الأدب؛ لأن البيت منزه عن تلك الأغراض الفاسدة(٢٢).

من الحكايات التي تروى أن جملاً ظل يطوف بالكعبة ثلاثة أسابيع، وأن طائرًا ظل يطوف لأسابيع قبل أن يطير خارجًا من الحرم المكي

بئر زمزم وقيمتها عند المسلمين

يقول المقريزي: «في عهد سليمان بن عبد الملك بن مروان الذي حج بالناس سنة سبع وتسعين، وكتب إلى خالد بن عبد الله القسريّ – وهو على مكة – «أن أجر لي عيناً يخرج من مائها العذب الزلال حتى تخرج من بين زمزم والمقام فعمل خالد بركة بأصل ثبير (وهو جبل بمكة) من حجارة، وأحكمها، وشق لها فلجًا يسكب فيها من شعب في الجبل، ثم شق من البركة عينًا تخرج إلى المسجد الحرام تجري في قصب من رصاص، حتى أظهره من فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والمقام ، فلما جرت، وظهر ماؤها أمر القسرى بجزور فنحرت بمكة، وقسمت بين الناس، وعمل طعاماً دعي إليه الناس، ثم أمر صائحًا «الصلاة جماعة»، وأمر بالمنبر، فوضع في وجه الكعبة، ثم صعد فحمد الله، وأثنى عليه وقال: «أيها الناس: احمدوا الله وادعوا لأمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب الزلال النقاخ»، فكانت تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص يخرج إلى موضع وضوء كان عند باب الصفا، وفي بركة كانت في السوق، وكان الناس لايقفون على تلك الفسقية، ولايكاد أحد يقربها، وكانوا على شرب ماء زمزم أحرص، وفيه أرغب، فصعد خالد المنبر، وأنّب الناس، وأقذع في كلامه. فلم تزل البركة حتى هدمها داود بن على بن عبد الله ابن عباس في خلافة أبى العباس السفاح»(٢٣).

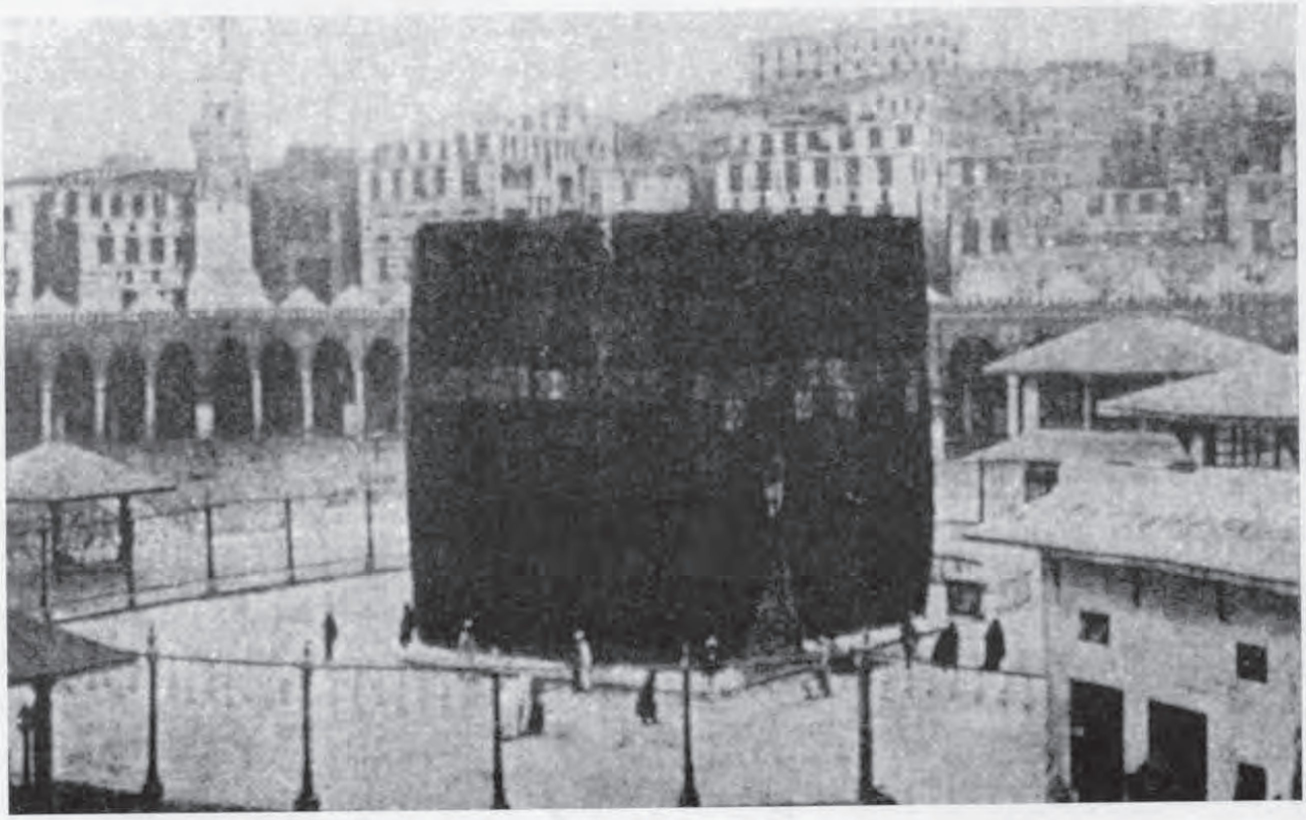
إزالة بدع بالكعبة المشرفة

في سنة إحدى وسبعمئة أزيلت البدعة التي كانت بالكعبة المشرفة يقال لها العروة الوثقى، وهي من وضع الفجرة المحتالين عمدوا إلى موضع عال من جدار البيت الغربي المقابل لبابه، ووضعوا كوة، وأوقعوا في قلوب العامة أن من ناله فقد استمسك بالعروة الوثقى، ووضعوا كرسياً من خشب الساج يقف عليه الراغب في لمس الكوة بعد دفع شيء من المال، فأحوجوا الناس إلى أن يقاسوا في الوصول إليها شدة وعناء، ويركب بعضهم فوق بعض، وربما صعدت النساء فوق الرجال، ولامسوا الرجال، أو لامسوهن، فلحق بذلك أنواع الضرر ديناً ودنيا.

أما البدعة الثانية فهي وجود مسمار من الفضة في وسط البيت على لوحة من رخام يسمى سرة الدنيا يضع الشخص بطنه فوقه بعد الكشف عن سرته عقب دفع مبلغ من المال نظير ذلك، وسبب إزالة هذه البدع أن الصاحب زين الدين أحمد بن محمد بن حناء (سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م) الذي قدم مكة فرأى هذه البدع، فأمر بقلع هذا المثال، وزالت هذه البدع، ولله المنة(٢٤).

تعمير عين عرفة وما قيل فيها

في سنة ست وعشرين وسبع مئة من الهجرة عمر بازان جوبان نائب السلطنة بالعراقين (عين عرفة) نتيجة لغلاء الماء بمكة وقلته، فقصد الأمير جوبان عمل خير بمكة، فدله بعض الناس على عين كانت تجري في القديم تعطلت. وبعد قضاء حجه تأخر بمكة، واشتهر أمره بها، وأصرف على العمال كل واحد ثلاثة دراهم، فأتاه جمع كبير من العرب من الرجال والنساء إلى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة، وكانت جملة مصروفاتها مئة ألف دينار وخمسين ألف درهم، ولما فرغ من عمارتها قدم إلى مصر، واجتمع بالسلطان، وعرّفه خبر العين، فقال له السلطان: لما لم تشاورني؟ فقال: إن جوبان فعل ما فعل من الخير، وبقي الأمر للسلطان إن شاء يخرب أو يعمر، فسكت السلطان. واتفق فى أمر إجراء هذه العين قصة تقول: إن الشيخ خليفة الكيلاني – مباشر عمارتها - ذكر أن الماء كان يغور في موضع لا يدري أين يذهب، ففي بعض الأيام خرج بعض العمال من تحت الحفر مصروعاً ويقول: يا مسلمون لايحل لكم أن تظلمونا فسألته. بأي شيء ظلمناكم؟ قال نحن سكان هذه الأرض، وليس فيهم مسلم غيري، وتركتهم ورائي مسلسلين، وإلا كنتم لقيتم منهم شراً. وقد أرسلوني إليكم يقولون: لا ندعكم



منظر الكعبة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م

تمرون بالماء حتى تبذلوا لنا حقنا. قلت: وما حقكم؟ قالوا تأخذون ثوراً فتزينونه بأعظم زينة، وتلبسونه، وتزفونه من داخل مكة إلى هنا فاذبحوه، ثم اطرحوا لنا دمه، وأطرافه، ورأسه في بئر عبد الصمد، وشأنكم وما أنتم فيه، وإلا فلا ندع الماء يجري في هذه الأرض أبداً. فقلت نعم أفعل ذلك. ثم إن الرجل أفاق، ومسح وجهه وعينيه، وقال: لا إله إلا الله، أين أنا؟ وقام ليس به شيء، فذهبت إلى بيتي فلما أصبح جاءني رجل لا أعرفه، وأخبرني أنه رأى البارحة في المنام ثوراً والناس يزفونه حتى مروا به على داري وخرجوا به من مكة، فذبحوه، وألقوا برأسه في البئر، فحكيت الواقعة والمنام لأهل مكة وكبرائهم، فاشتروا ثوراً، ولبسّوه، وزيّنوه، وأخرجوه يزفونه، حتى انتهينا إلى موضع الحفر، فذبحناه، وألقينا رأسه وأطرافه ودمه في البئر التي سماها، فما هو إلا أن طرحنا ذلك في البئر، فكان من أخذ بيدي، فأوقفني على مكان، وقال: احفروا ها هنا، فحفرنا فإذا بالماء يموج فيه وبجانبه طريق منقور في الجبل يمر تحتها الفارس بفرسه فأصلحناها، وجرى الماء فيها يسمع هديره، فلم يكن إلا أربعة أيام، وإذا بالماء بمكة والبئر المذكورة، وكان من حولها لا يعرفون بها ماء فصارت مورداً، ولله الحمد (٢٥).

حوادث وحكايات ومفارقات في الطريق إلى الحج

يقص السنوسي التونسي بعد وصوله إلى جدة في ذي القعدة من سنة ١٢٩٩هـ عن أعمال المزورين مع الحجاج، وخاصة مغفليهم، فإنها - كما يقول - فوق ما يعقل من وجوه الزور، فتراهم يتجاذبون الحاج المسكين من ثياب إحرامه إلى أحد قبور أمواتهم بعد أن يوقفوا عندها من شيعتهم من يشاركونه في محل الزيارة، ويقولون للحجاج : هل تزورقبر سيدنا فلان؟ فإذا وصل ووجد هنالك الشركاء، فيغريه بإعطائهم، وربما تمالؤوا عليه، واغتصبوا منه مايسمونه له صدقة، وأعجب من ذلك انتصاب بعضهم على حافة الطريق، فيبسطون منديلاً مستطيلاً على مكان مرتفع من الأرض، وربما كان مزبلة، ويقولون لمارة الحجاج: أعد الزيارة لصاحب هذا القبر، إلى غير ذلك من حيل الصناعة، وعلى كل حال قد خلصنا الله من أيديهم مخلصاً حسناً(٢٦).

ويقول في موضع آخر من رحلته في عسفان: .. وجلست للوضوء مستقبلاً مشاعل منزلنا، وبينما كنت جالساً حدثتني نفسي شبه أخبار أن هؤلاء البدو إن ظفروا بأحد الحجاج أمسكوا على فيه، وأخذوه لصحرائهم لأخذ سلبه. وكان وقتئذ معي مبلغ من المال يستحيل استيفاء الحياة على حامله، فخشيت أن يأتي عليّ أحد من وراء. ولما التفت رأيت صعلوكاً ليس عليه غير إزار يستر العورة المغلظة، وهو أسود، وبيده قطعة رافع بها على رأسي لينزل بها عند قيامي، فانقدح في خاطري: من فاز برأسه فقد أفلح، وأنزلت رأسي إلى أسفل، وتقدمت به إلى أمام حتى تحققت خروجه من تحت ضربته. كل ذلك وظلام الليل هو الستار، ولكن ما أعظم عناية اللطيف الستار، وعند قيامي وأخذي في

الفرار نزل بضربته فأصابت عضدي الأيمن، وأيست من سلامة يدي، وحمدت الله على سلامة الرأس، وناديت أتباعنا فما تلاقينا إلا والرجل لحق بروؤس الجبال، غير أني وقعت مغشيًا عليّ، ولما أفقت طلبت بدوية من نساء تلك الحى لمداواتها، فأوقدت نارًا عظيمة، وأتت بخرقة زرقاء أحكمت لفتها، وقابلتها بالنار إلى أن اشتد حميها، فباشرت زندي إلى أن لان الانتفاخ، فجرت عليه بزيت، ومضت(٢٧).

أحكام جائرة

في سنة ثلاث وخمسين وتسعمئة من الهجرة تولى إمرة الحجاج حسين عبد الله كاشف إقليمي الفيوم والبهنساوية، جمع بين الفروسية والشجاعة والهمة العالية والكرم النفسي الكثير، لكنه كان سفاكًا للدماء مولعًا بقتل النفس في الحل والحرم، وحالة الإحرام، وفي تلك المواقف العظام، والمشاعر الكرام، وسواء أكانت جريمة المقتول تافهة جداً ثبتت أم لم تثبت. اتفق له بمنزلة عيون القصب ذهاباً أن وجد جماعة من عربان المحمل وغيرهم في طرف الحج، فأمسكهم، ونوّع لهم القتل، فعلّق بعضهم في حديدة على شجر العضاه الكبار وهم أحياء، وأطلق تحتهم النيران الشديدة بعد أن أمر بجمع الأحطاب الكثيرة الصلبة، وأجج النار إلى أن أحرقهم وذاب لحمهم، وأمر المشاعلي أن ينادي تحتهم يا لحم مشوي كُل كذا وكذا رطل بنصف، فلقب حينئذ بحسين الشوّى. وكان الحجاج يقولون: امش ولا تتلوى واحذر حسين الشّوي. وعند دخوله إلى مكة المشرفة وهو متلبس بإحرام العمرة مسك بوادي طارف المنحني وقت الغروب خمسة أنفار من عربان الحجاز ليست لهم جريمة، وطلب السياف فلم يجده فى ذلك الوقت، فرمى أعناقهم بيده وتركهم.

وكان قد تقدم له بخُليصُ قبل قتله لهؤلاء أنه أُحضر إليه بمخيمه شاب صغير من الفلأحة الحجاج ما طُر شاربه، ومعه شخص يذكر أنه كان في يده ثلاثة أنصاف أو ستة من الفضة، فما وجدتها في يدي، ولم يكن بالقرب مني سوى هذا الشاب، ولا أعلم هل أخذها أم لا؟ فأمر بضرب عنق الشاب مسرعًا، ولم يبحث عن ذلك بوجه، فضربت عنقه. ثم في أثناء ذلك أحضر إليه بعض القوّاسة بخدمته عبداً حبشياً أمرد صغير السن. ذكر العبد أنه كان واقفًا على رأس حدرة السويق لمنع من يتخطف، أو يؤذي الحجاج. وقال القواس: رأيته يعرّي الحاج هناك. فبمجرد سماع أمير الحاج لذلك أمر برمي عنقه بحذاء الفلاح. ومن ذلك أيضاً أنه اتفق في ليلة الوقوف بعرفة المعظم أنه ركب ليلاً ليطوف على الحجاج، ولايخفى أن ليلة عرفة يستمر أهل مكة وعربانها يأتون إلى عرفات شيئاً فشيئاً لايمنعهم من ذلك مانع، فلما طاف خارج (الوطاق) رأى أربعة عشر نفرًا من عربان الحجاز يمشون، فقبض عليهم، وقطع رؤوس بعضهم، وأشهرها ليلاً، وترك بعضهم في الحديد إلى أن يصبح الصباح يفعل بهم في يوم الموقف الأعظم مايريد.. ولكن ربك يمهل ولا يهمل، وبلغت أفعاله كلها الشريف صاحب مكة، وأنكر عليه الأكابر والداني والقاصي أفعاله تلك، فعزل من منصبه إلى أن اتهم بعصيان السلطان، فأحضر بالحيلة إلى قلعة الجبل، وقابل علي باشا فاعتقله بالبرج، وعرض أمره على الأبواب السلطانية، فعاد الجواب بقتله، فشنق على الجميزة بالرملة، وكان ذلك سنة سبع وخمسين وتسعمئة(٢٨).

أوجد بعضهم قبورًا وهمية يزورها الحجاج لاستغلالهم وأخذ ما معهم من مال

الهوامش والمراجع:

١، ٢ـ أحمد بن على المقريزي: الذهب المسبوك في ذكرمن حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٩، ١٠ محمد حيان السمان :- حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، مجلة الفيصل، الرياض، العدد ٥٤، ذو الحجة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٧٦ ، عبدالقادر الجزيري، الدررالفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ١/ ٢٠٩، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة بالرياض، مطبعة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

(٣) حمد الجاسر، رحلة السنوسي التونسي في رحاب الحرمين، مجلة العرب، ج٣، ٤، رمضان/شوال ١٣٩٨هـ، ص ٣٦١. (في رحاب الحرمين).

(٤) المقريزي، مرجع سابق، ص ١٢– ١٧، ١٩، ٢٠، انظر أيضًا عبد القادر الجزيري مرجع سابق، ١/٤١٦، ٤١٧.

(٥) المقريزي، المرجع السابق نفسه، ص ٢٣، ٢٤.

(٦) سليمان مالكي، تاريخ الحج من خلال الحجاج المعمرين، مركز أبحاث الحج، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص ٢٣.

(٧) المقريزي، مرجع سابق، ص ١٢، ١١٣، انظر أيضًا عبد القادر الجزيري، مرجع سابق، ١/٧٨، ١١٢، ١١٣.

(٨) المقريزي، مرجع سابق، ص ٤٩ –٥١.

(٩) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق، ١/١١٣.

(١٠) المقريزي، مرجع سابق، ص ٢٨، ٢٩، ٣٧ – ٣٩.

(١١) المقريزي، نفس المرجع ، ص ٨٥ – ٩٥.

(١٢) عبد القادرالجزيري، مرجع سابق، ١/ ٦٤٦.

(١٣) المرجع نفسه ١/ ٧٣٤، ٧٣٥.

(١٤) المرجع نفسه ١/ ٧٦٥ – ٧٦٧.

(١٥) حمد الجاسر، رحلة الهشتوكي (في رحاب الحرمين)، مجلة العرب، رجب/شوال ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٦٠.

(١٦) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق ١/ ٦٢٤.

(١٧) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق ١/ ٥٠٨ – ٥١٠.

(١٨) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق ١/ ٦٩٤ ، ٦٩٥.

(١٩) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق ١/ ٦٣١ - ٦٣٤، انظر أيضًا أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٢، ١٩٥٨م، ج ٢، ق ٢، ص ٣٢٣، ٣٢٤.

(٢٠) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق ١/ ٤٨٧ ، ٤٨٨.

(٢١) المرجع السابق نفسه ١/ ٦٠٥ ، ٦٠٦.

(٢٢) المرجع السابق نفسه ٢/ ٩٢٥.

(٢٣) المقريزي، الذهب المسبوك، ص ٣٢ – ٣٤.

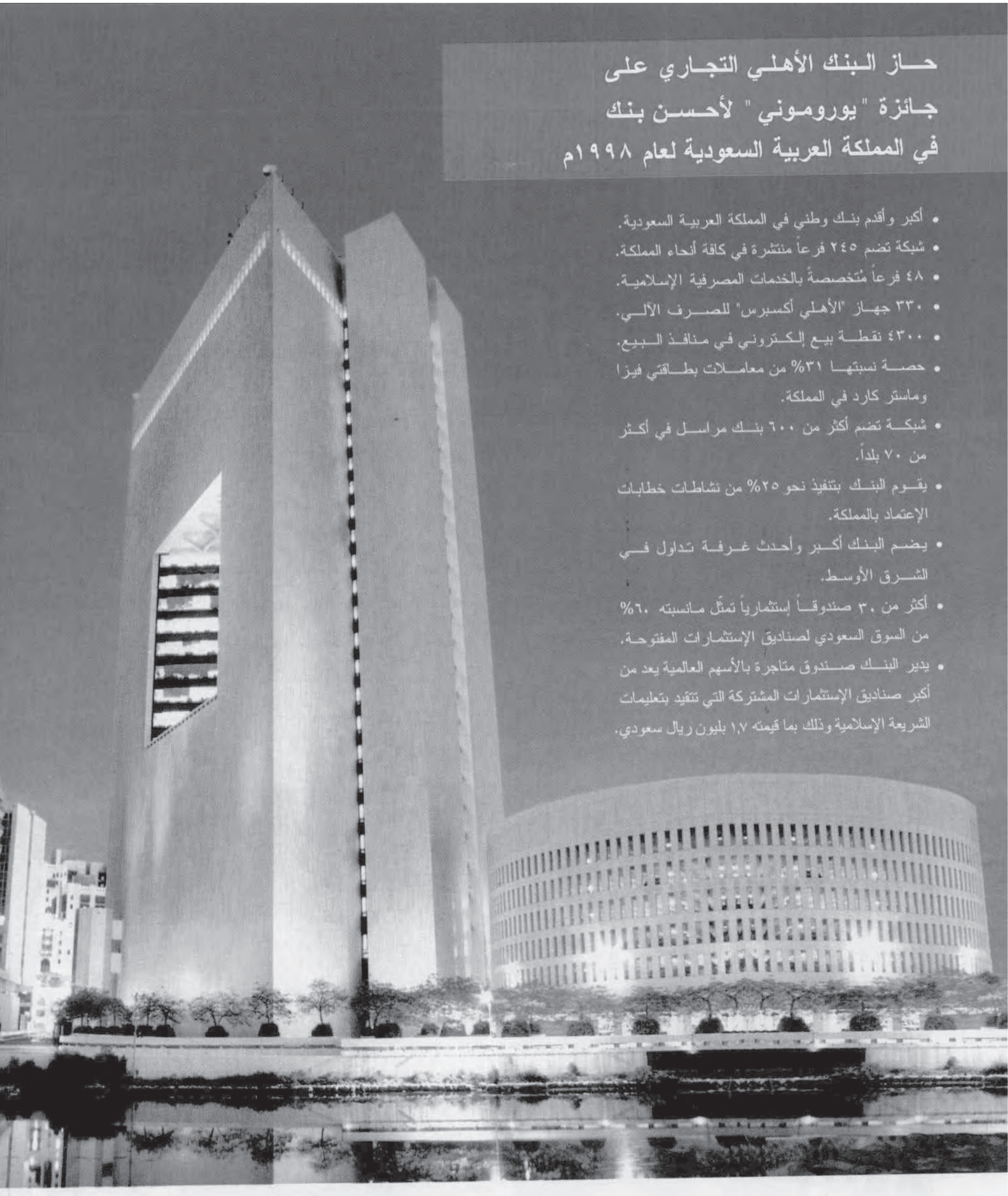
(٢٤) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق ١/ ٦١٥ ، ٦١٦ ، انظر أيضًا عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ٢١٤، ٢١٥.

(٢٥) الذبح لله وحده وليس لأحد سواه، انظر أيضًا، عبد القادر الجزيرى، مرجع سابق ١/ ٦٢٨، ٦٢٩.

(٢٦) حمد الجاسر، رحلة السنوسي التونسي، ص ٢٥٧.

(٢٧) المرجع نفسه، ص ٢٧٨، ٢٧٩، انظر ايضًا، علي الشنوفي، مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس ١٩٨٩م، ص٢٤.

(٢٨) عبد القادر الجزيري، مرجع سابق، ٢/ ٨٨٤ – ٨٩٠.

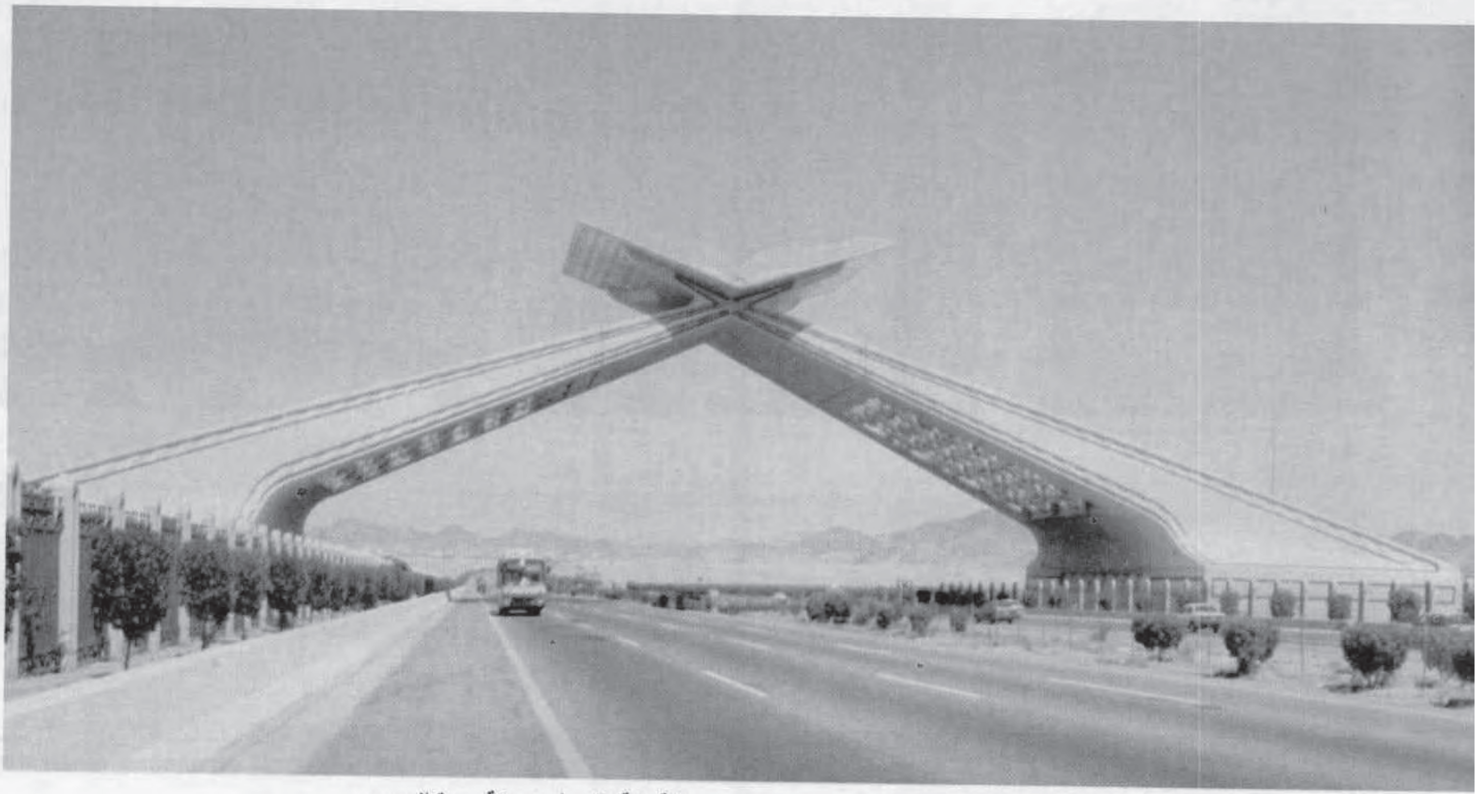

حـــاز الـبنك الأهلـي التجـاري علـى
جائزة "يوروموني" لأحســن بنـك
في المملكة العربية السعودية لعام ١٩٩٨م
• أكبر وأقدم بنـك وطني في المملكة العربيـة السعودية.
• شبكة تضم ٢٤٥ فرعاً منتشرة في كافة أنحاء المملكة.
• ٤٨ فرعاً مُتخصصةً بالخدمات المصرفية الإسلاميـة.
• ٣٣٠ جهـاز "الأهلي أكسبرس" للصـــرف الآلـــي.
• ٤٣٠٠ نقطـــة بيـع إلـكـتروني فـي مـنافـذ الـــبيع.
• حصـــة نسبتهـــا ٣١% من معامـــلات بطـــاقتي فيزا وماستر كارد في المملكة.
• شبكـــة تضم أكثر من ٦٠٠ بنـــك مراســـل في أكـــثر من ٧٠ بلداً.
• يقـــوم البنـــك بتنفيذ نحو ٢٥% من نشاطات خطابات الإعتماد بالمملكة.
• يضـم البـنـك أكـــبر وأحـدث غـرفـة تـداول فــــي الشـــرق الأوسـط.
• أكثر من ٣٠ صندوقـــاً إستثمارياً تمثّل مـانسبته ٦٠% من السوق السعودي لصناديق الإستثمارات المفتوحـة.
• يدير البنـــك صـــندوق متاجرة بالأسهم العالمية يعد من أكبر صناديق الإستثمارات المشتركة التي تتقيد بتعليمات الشريعة الإسلامية وذلك بما قيمته ١,٧ بليون ريال سعودي.

مكة المكرمة: المكان والإنسان

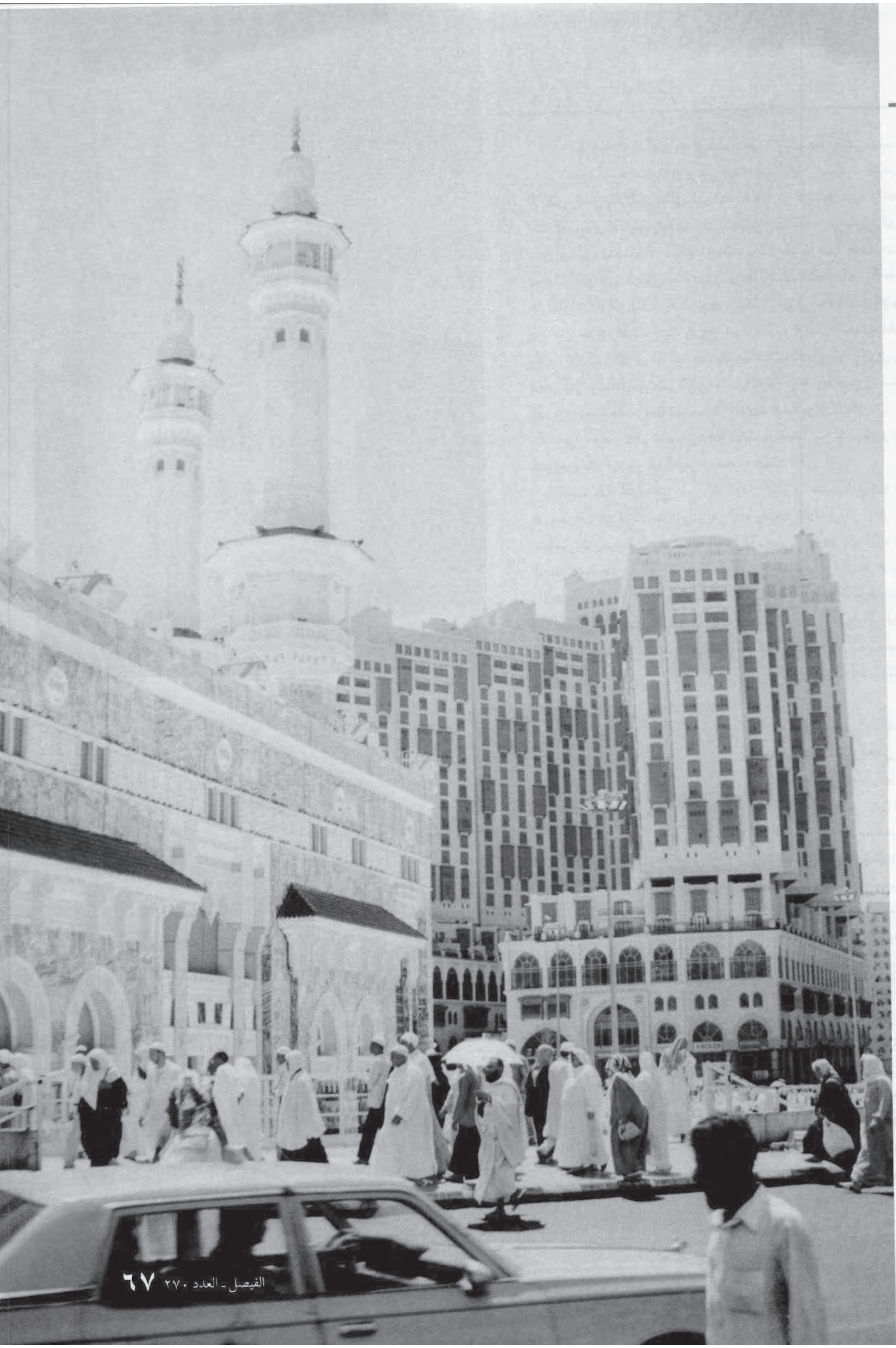
إعداد: ناصر بن علي الحارثي   تصوير: هاشم الشريف

أوبي يا جبال مكة للذكـ   ـرى جلالاً وكبِّري للعيد
واذكري كيف أشرق النور من غا   رِ بعيد في الأفق غير بعيد
وأطلي على حمى الكعبة الغر   راء إطلالة الرفيق الودود
وانظري للوفود من كل فج   قد تلاقت كريمة بالوفود
نهلت من روافد الحرم الأمـ   ـن ومن منهل الندى والجود
وأفاضت به إلى الشرق والغر   ب نميراً ممطراً للورود

حسين عرب



بوابة مكة على طريق مكة - جدة السريع



ناصر بن علي الحارثي

المكرمة، أو أم القرى، أو البلد الأمين، أو مهبط الوحي أسماء يطرب لسماعها ما يربو على ألف ومئتي مليون مسلم في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنها تطلق على أحب البقاع إلى نفوسهم، ففيها الكعبة المشرفة مهوى أفئدتهم، وقبلتهم التي يتجهون إليها خمس مرات في اليوم، وعلى جبالها، وهضابها، وشعابها، وبطاحها ذكريات تاريخية مجيدة، بدءاً ببناء الملائكة البيت العتيق، ومروراً بشهرتها بوصفها محطة تجارية مهمة على طريق القوافل التجارية، ثم بهجرة أبينا إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهم السلام إليها، وبزوغ نجم الإسلام والرسالة المحمدية منها، ونزول أول سور القرآن الكريم فيها، وما صاحب ذلك من صراع مرير بين قوى الحق والباطل، ووصولاً إلى ما شهدته من ازدهار حضاري خلال القرون الإسلامية، وما تنعم به في العهد السعودي الزاهر من أمن واستقرار، وما تحظى به من رعاية منقطعة النظير من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، حفظه الله.

تشهد مكة المكرمة في هذه الأيام المؤتمر السنوي الكبير الذي دعا الله عز وجل إليه في قوله تعالى: *وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كلِّ فج عميق*. **الحج**:٢٧. فهي إذاً تزهو بأنها تتوشح البياض، وتتعطر بروائح النفوس الزكية التي قدمت إليها من كل فج عميق، والأضواء الإلهية والبشرية مسلطة على مكة دون غيرها لتتابع فعاليات هذا المؤتمر الرائع الذي تذوب فيه الأعراق، والأجناس، والألوان في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام مرددة «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

ومجلة الفيصل انطلاقاً من حرصها على المشاركة في هذه المناسبة العظيمة تقدم لقرائها هذا الاستطلاع المصور عن مكة المكرمة الذي يتناول موقعها، ومناخها، وجيولوجيتها، وتضاريسها، وأسباب تسميتها، ونشأتها، وتطورها السياسي والعمراني، ومعالمها التاريخية والأثرية، وحرفها وصناعاتها التقليدية، وما تشهده من نهضة حضارية اليوم.

خصائص الموقع وجوانب تميزه

مكة المكرمة مدينة تهامية؛ تقع على السفوح الدنيا لجبال السروات، فهي بذلك تمثل نقطة الالتقاء بين تهامة وهذه الجبال، أما موقعها الفلكي فهو على درجة عرض ١٩َ ٢٥َ ٢١ْ



سبيل الملك عبد العزيز



جانب من حي العزيزية



مشهد ليلي لأحد الشوارع القريبة من المسجد الحرام

وخط طول ٤٦َ ٤٩ً ٣٩ْ وترتفع عن سطح البحر بمقدار ثلاثمئة متر.

ولوقوعها ضمن تشكيلات الدرع العربي المكونة من صخور القاعدة القديمة، فإن هذه القاعدة تشكل معظم الجبال التي تحيط بالمدينة، أما الأودية فتمثل ما تبقى من مساحتها، وتوجد الأودية بين هذه الجبال، وتغطيها ترسبات الحصى والرمل والطين، وأغلب هذه الأودية تتبع حركات الصدوع والانكسارات التي انتابت الدرع العربي خلال الأزمنة الجيولوجية القديمة.

أما المظهر التضاريسي الذي يطغي على مكة المكرمة فهو مظهر الكتل الجبلية السوداء الداكنة ذات التركيب الجرانيتي، وتقع المدينة على سفوح هذه الكتل الجبلية، التي شهدت أحداثًا تاريخية مهمة على النحو الذي سنشير إليه لاحقًا، وقد أعطى هذا المظهر التضاريسي شكل مكة المكرمة، وأكسبها خاصية تماثل الامتداد الطبيعي لأوديتها.

ومن الناحية المناخية، تعدّ مكة المكرمة منطقة انتقالية بين تأثيرات مناخ البحر المتوسط والمناخ الموسمي، لتأثرها بقربها من ساحل البحر الأحمر، وخاصة جبال السروات الغربية، وتتأثر المنطقة في فصل الصيف بالجبهات المدارية، ويبلغ معدل الحرارة السنوي حوالي ٣١ْ، أما في الصيف فتصل إلى ٤٨ْ، ثم تنخفض في الشتاء إلى ١٨ْ، وأمطارها نموذج للأمطار الصحراوية المتصفة بعدم الانتظام على الدوام، ويبلغ معدل هطولها السنوي بين ٨٠ملم إلى ١٢٥ملم.

أما الرياح، فإن اتجاهها متغير في مكة المكرمة؛ إذ تتأثر بالرياح الشمالية الغربية الجافة في فصل الصيف، والرطبة في فصل الشتاء، التي تحمل معها أحيانًا بعض الأمطار القادمة من البحر المتوسط، كما تتأثر بالرياح الشمالية الشرقية التي تهب في فصلي الشتاء والصيف، والمشبعة بالجفاف، ومن آن إلى آخر تتأثر برياح جنوبية غربية.

أصل الاسم

أشهر ما عرفت به البلدة المقدسة من الأسماء هو مكة، ويعدّ بطليموس أول الجغرافيين الذين تحدثوا عن مكة المكرمة، إذ ذكرها (مكربة) MACROBA، وهو اسم آرامي يقصد به مكة المكرمة، وقيل: إن الكلمة تحريف للكلمة العربية (مقرب) أو (مقربة)، وهما نعت وصفي للبيت صار علمًا عليه، وقيل: إن اسم (مكة) أو (مكا) بابلي معناه البيت، بينما يرى آخرون أن هذا الاسم مشتق من الاسم السبأي (مكورابا)، ومعناه (مقدس) أو (حرم)، ويرى الأنصاري - رحمه الله - في تأويل الاسم أن بطليموس حرف بلهجته الأعجمية الاسم العربي، الذي هو حسب رأي الأنصاري (مكة الرب) أي (بلد الله)، وقد اعترض على الاسم (مكورابا)، حيث يرى أن هذا الاسم لابد أنه (مكة الرب) أو (مكة أم رب) بقلب لام التعريف إلى (أم) على لهجة أهل اليمن، وربما سمع بطليموس هذا الاسم من التجار العرب، فنقله إلى لغته محرفًا.

وقيل: سميت مكة؛ لأنها تمك الجبارين، أي تذهب نخوتهم، وقيل: لازدحام الناس فيها، وقيل: لقلة مائها، وقيل: لأنها تمك الذنوب، أي تذهب بها، أو لأنها تمك الفاجر، أي تخرجه منها.

النشأة والتطور السياسي العمراني

تشح المصادر التاريخية والأثرية المتوافرة لدينا التي تتناول النشأة الأولى لمكة المكرمة، مع أن هذه المدينة المقدسة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، كما في قوله تعالى: *إن أولَ بيت وُضعَ للناسِ لَلذي ببكةَ مباركًا وهدًى للعالمين*: **آل عمران: ٩٦.**

وقد تركز إسهاب المؤرخين في ذكر مكة المكرمة على بناء البيت



منظر للتطور العمراني

العتيق، فقالوا: إن أول من بناه الملائكة، ثم آدم عليه السلام، ثم ابنه شيث عليه السلام، ونتوقف هنا عند هذه الحقبة لنشير إلى أنه يكتنفها غموض كبير، وفضلاً عن ذلك، فقد ضعف بعض هذه الروايات مجموعة من المؤرخين، وتوقفت عندها مجموعة أخرى، فلم تجزم بصحتها، كما لم تنفها، وسواء أصح ما نقله الإخباريون في شأن من هبط مكة المكرمة قبل إبراهيم عليه السلام، أو لم يصح فإن الدراسات الجيولوجية والأثرية لعصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية حتى ما قبل عهد إبراهيم عليه السلام تؤكد أن مكة المكرمة شهدت نشاطات سكانية مهمة يرقى تاريخها إلى ما قبل مئتي ألف سنة، وفي تقديرات أخرى إلى مليون سنة، استناداً إلى حركة التكوينات الجيولوجية، وما عثر عليه مؤخراً من أدوات حجرية وصوانية، وبالأخص في وادي فاطمة القريب من مكة المكرمة.

ولكن النشأة الحقيقية الواضحة تاريخياً لمكة المكرمة تبدأ من هجرة أبينا إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهم السلام إليها قبل ما يقارب أربعة آلاف سنة أي نحو عام ١٩٠٠ قبل الميلاد، حيث وصلوا إليها، وهي واد لا ماء فيه ولا زرع إلا شجر السلم والسمر، وترك إبراهيم زوجه وابنه في موضع الحجر وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً، وتوجه إلى الله تعالى بقوله: *ربَّنا إني أسكنتُ من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتكَ المحرَّم ربَّنا ليُقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من الناس تَهوي إليهمْ وارزُقْهُمْ من الثمرات لعلهمْ يَشْكُرون*. إبراهيم:٣٧.

أما هاجر فظلت تبحث عن الماء بين الصفا والمروة حتى تجلى لها الملك، فضرب موضع بئر زمزم، فتفجر ماؤها، وهكذا دبت الحياة في هذا الوادي المقفر، واستبشرت بذلك خيراً كثيراً، ثم بعد ذلك وصلت قافلة من جرهم عائدة من الشام إلى اليمن، فاستراحت بأسفل مكة كعادتها، فرأوا الطير يحوم في سماء الوادي فوق موضع بئر زمزم، ولم يعهدوا رؤية مثل ذلك عند استراحتهم بمكة في رحلاتهم السابقة، فبعثوا من يستطلع الأمر، فعاد إليهم ليخبرهم بما شاهده فذهبوا إلى بطن مكة، ووجدوا هاجر



وابنهـا إسمـاعـيل عند بئر زمـزم فاستأذنوها في السكنى بالقرب منهما، فرحبت بهم وبعث هؤلاء الجرهميون إلى أهلهم في اليـمن، فـأتوا مكة، وسكنوا بهـا، وشبَّ إسمـاعيل بينهم، فتـزوج منهم مـرتين، ثم مـاتت أمـه، وبقي مـعـهم، وكـان طعامـهم الصيد وشرابهم ماء زمزم.

كـمـا عـاد إبراهيـم إلى مكة مـرة أخرى، وصـدر الأمر الإلهي له ولابنه ببناء البيت، بعـد أن بوأ مكانه لهـمـا، كـما في قـوله تبارك وتعـالى: *وإذْ بَوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت أنْ لا تشـركْ بي شيـئًـا وطَهِّـرْ بيـتِي للـطائفين والـعـاكـفين والـركعِ السجود.* **الحج**:٢٦.

وبعـد بـناء البيت أمـر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج، كما في قـوله تعـالى: *وأذِنْ في الناسِ بالحـج يأتوكَ رجـالاً وعلـى كلِّ ضـامرٍ يأتينَ من كـلِّ فَجٍ عميقٍ.* **الحج**:٢٧، ونـادى إبـراهيم في الناس بالحـج، فـحج ومعـه ابنه إسماعيل، ومعهما جبريل عليه السلام يعـلمهمـا المناسك، وتمثل إبليس للخليل عند جـمرة العقبة، وهكذا حج إبراهيم وإسمـاعيل وحـجـت قـبلـه وبعـده الـرسل والأنبياء الكرام، والأمم حتى الوقت الحاضر.

وظل إسماعيل يلي أمر البيت حتى توفاه الله، ثم تولى أبناؤه من بعده أمر البيت، وكان عددهم اثني عشر ولداً، أكبرهم، نابت، الذي ولي أمر مكة بعد وفـاة والده، ثم أعقبه مضاض بن عـمرو الجرهمي جد أبنـاء إسماعـيل لأمهم، وكـانت جرهم وقطورا أنذاك همـا سكان مكة، وكـان سـيـد جرهم مـضـاضًـا ، وسكن بقـومـه في أعلى مكة وقـعيقعـان، وسيـد قطورا السمـيـدع، ونزل بقومـه أجيـادين الكبيـر والصغير بأسفل مكة، وكان كل منهـما يعشر من دخل مكة مما يليه، ولكنهمـا اختلفا فـيما بعـد، وبغى بعضهمـا على الآخر، وحدث قـتال شديد بينهما انتصرت فيه جرهم، فأخرجوا قطوراً من الحرم كله إلى المناطق الواقعة في الأطراف، وهي المناطق التي كانوا يسكنونها قبل دخـولهم، واسـتـيطانهم بـها، وتـذكـر الروايات الـتـاريخـيـة أن أبناء إسمـاعـيل اسـتـعـادوا ولاية البـيت، وشـؤون مكة من أخـوالهم الجرهمـيين بعد أن حكموا ثلاثمئة عـام، وأخرجوهم إلى جـهينة، وظلت ولاية البـيت في أبناء إيـاد، ثم في مـضـر، ثم في إياس بن مـضـر، ثم في ضبة بن مضر، ثم في أخيه سعـد بن مضر، ثم في أسد بن خزيمة، فبقيت ولاية البـيت زمنًا طويـلاً حـتى آلت إلى حـاجب بن زرارة، ثم إلى أخـيـه العنبـاس بن زرارة، وحين أوشك سد مـأرب على الخـراب رحل من سبأ عمـرو بن عامـر وطلب بن ثعلبة من جـرهم التي آلت إليهمـا الأمـور بعد ذلك حسب الأزرقي، فلم يقـبلوا واقتتلا حـتى كان النصر لخزاعـة، فتولى الأمر عمرو بن لحي.

ويذكر المؤرخون أن خزاعة وفدت إلى مكة المكرمة في الفترة الواقعة بين عيسى ومحـمد عليهما السلام، وفي روايـة أخرى حوالي القرن الأول الميـلادي بمـعنى أن هناك نحـو ثلاثة عشـر قـرنًا مـضت بين خـروج



بئر من العصر العباسي



أحد الشوارع الحديثة يخترق الجبال

الجرهميين من مكة إلى استيلاء خزاعة على البيت لا نعلم من أحداثها شيئًا، وقد بلغ عمرو بن لحي هذا من العزة والشرف ما لم يبلغه ملك عربي قبله وبعده في الجاهلية، وهو الذي نصب الأصنام حول الكعبة، وهو أول من غير الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، واستمر أمر مكة في عمرو، ثم في أبنائه من بعده ثلاثمئة عام على الأرجح وكان آخرهم حليل بن حبشية بن كعب بن عمرو بن لحي.

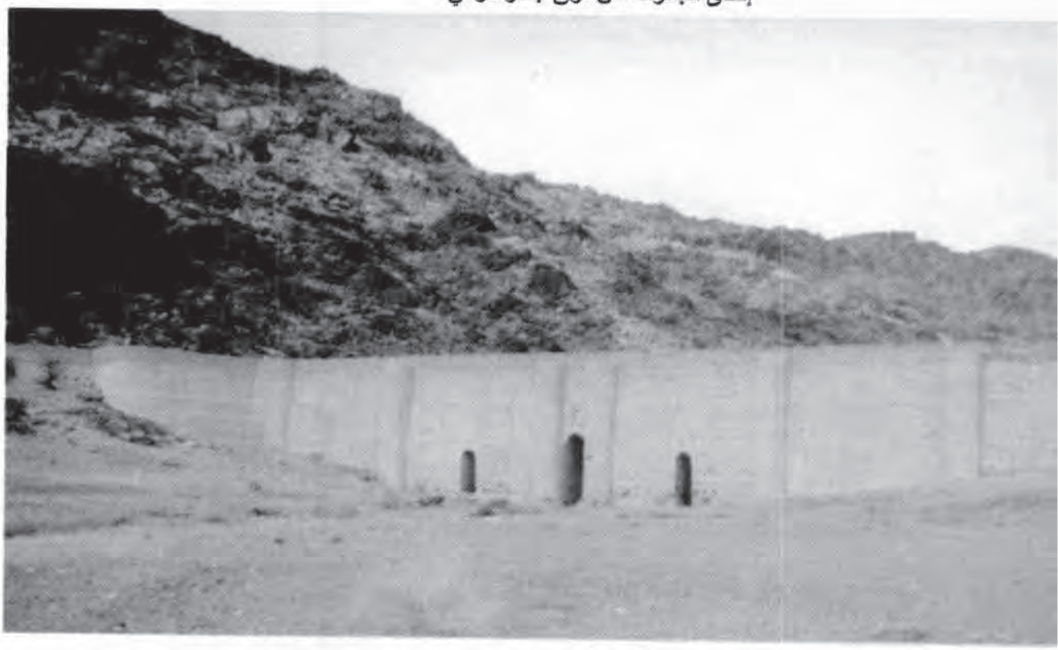
ثم ولي أمر مكة قصي بن كلاب في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الرابع الميلادي وأوائل الخامس، فجمع قومه قريش، وأنزلهم منازلهم حول الكعبة بعد أن كانوا في شعاب مكة، وكانت حدودها وقتذاك لا تتعدى السفوح المنخفضة لجبل أبي قبيس شرقًا، وجبل قعيقعان (جبل هندي) غربيًا، وأول المسفلة جنوبيًا، والردم (المدعى) شمالاً، وقد خط قصي للكعبة ساحة توازي صحن المطاف القديم، وأباح للناس أن يبنوا بيوتهم دون ذلك، ثم أمرهم أن يجعلوا بين بيوتهم أزقة يفضون منها إلى ساحة الكعبة، كما أمرهم بعدم رفع بناء بيوتهم عن الكعبة لتظل مشرفة عليها، وأنشأ دار الندوة، ووزع الوظائف من رفادة، وسدانة، وسقاية، ولواء...إلخ، وخلفه من بعده أبناؤه، فاختلفوا فيما بينهم، حيث أجمع بنو عبد مناف على انتزاع ما بأيدي عبدالدار، ونتيجة لهذا النزاع انقسمت قريش بطنين، فكان عبد مناف بنو أسد، وزهرة، وتيم، والحارث، أما الآخرون فانحازوا إلى بني عبد الدار، واعتزل عامر والحارب الحزبين، ثم تصالحوا، وتسنى لهاشم بن عبد المناف التفرد بأمر مكة، وهو صاحب الحركة التجارية والاقتصادية العظيمة التي شهدتها مكة المكرمة آنذاك، ولما توفي ولي الأمر بعده أخوه المطلب بن عبد مناف، ثم عبدالمطلب بن هاشم، الذي تربع على زعامة مكة قرابة نصف قرن تقريباً من ٥٢٠م إلى ٥٧٩م، ثم بعد وفاته تولى بعض أمور مكة حرب بن أمية، فتفرقت بذلك مناصب حكومة مكة في بني عبد مناف وغيرهم من قريش، ولكن أبا طالب بن عبدالمطلب بن هاشم استطاع أن يتبوأ مكانة أبيه، وفي نهاية القرن السادس الميلادي ومطلع السابع كان على زعامة قريش أربعة هم: عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، والأسود بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم، وقيس بن عدي السهمي، وأبو طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، ثم شهدت مكة مرحلة من الخلافات بين قريش بدعم خارجي، ولكنها سرعان ما اتحدت بعد ظهور الإسلام، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نشب بينه وبينها من حروب، حتى تم للرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

ومنذ ذلك التاريخ خضعت مكة المكرمة للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم للخلفاء الراشدين من بعده، ثم لعبدالله بن الزبير، ثم للأمويين، ثم للعباسيين، ثم للفاطميين، ثم للأيوبيين، ثم لبني رسول في اليمن، ثم للمماليك، ثم للعثمانيين، حتى ضمها الملك عبدالعزيز رحمه الله فأصبحت جزءاً من دولته الفتية المملكة العربية السعودية.

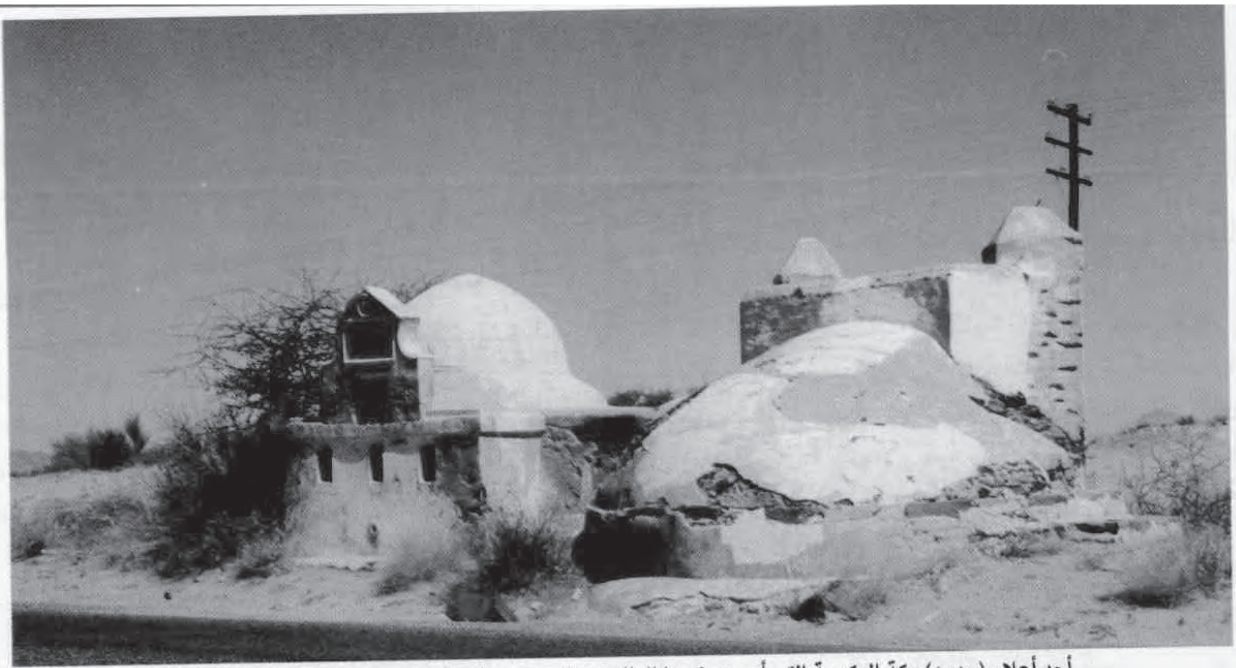
وقد شهدت مدينة مكة المكرمة نمواً سريعاً بعد فتحها على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم في دول الخلافة الإسلامية من بعده، إذ تمت توسعة المسجد الحرام، مما أسهم في زيادة نطاقها العمراني، حتى نهاية العصر الأموي،



إحدى الجمرات من فوق جسر الرمي



جانب من مجرى عين زبيدة



أحد أعلام (حدود) مكة المكرمة التي أمر بوضعها الملك عبد العزيز ويظهر في الصورة سبيل الملك عبد العزيز

ومنذ العصر العباسي حتى نهاية العصر المملوكي شهد النمو العمراني في مكة المكرمة بطئًا شديدًا، وقد وصفها الفاسي بقوله: «بلدة مستطيلة كبيرة، لها ثلاثة أسوار، هي سور المعلا، وفيه بابان، وسور الشبيكة، وفيه باب كبير، وسور اليمن، وهو في المسفلة».

ومنذ مطلع العصر العثماني بدأ النشاط يدب في نموها العمراني ثم بلغ ذروته في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، حيث أسهمت عدة عوامل في ذلك منها: مجاورة موظفي الأتراك والموظفين المصريين الذين بقوا في مكة بعد رحيل جيش محمد علي باشا، وهجرة الكثيرين من أبناء المسلمين إليها بعد استعمار بلدانهم من قبل الدول الكبرى آنذاك، حتى امتد عمران المدينة خارج السور، كما جاء في وصف إبراهيم رفعت باشا لها في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، إذ قال: «طولها من الشمال إلى الجنوب ميلان، وعرضها شرقًا من جبيل أبي قبيس إلى أسفل قعيقعان من الغرب ميل واحد، يقطع الماشي طولها في نحو نصف ساعة، وهي ببطن واد يحيط به سور من الجبال الشامخة قد



أحد الشوارع الحديثة

بنيت عليها الحصون المحكمة، وليس بسورها الجبلي ثغرات إلا حيث مداخلها الأربعة».

أما في العصر السعودي الزاهر فقد أدى الاستقرار، واستتباب الأمن، وتفجر الخيرات إلى تطور عمرانها بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وقد مر التطور العمراني الذي شهدته مكة خلال العصر السعودي بأربع مراحل: الأولى تمتد من عام ١٣٤٤إلى ١٣٧٥هـ، وتتميز بشق الشوارع نتيجة لظهور السيارات، والبناء خارجها لضيق الحارات، وإنشاء الكثير من المرافق، مثل: المدارس، والمستشفيات، وبناء القصور، والفلل الراقية في أطرافها.

أما المرحلة الثانية: فتمتد من عام ١٣٧٥هـ إلى عام ١٣٩٤هـ، إذ أدت توسعة الحرم المكي الشريف التي أمر بها الملك عبدالعزيز - رحمه الله - إلى عمران حارات جرول، والهنداوية، والتنضباوي.

وتبدأ المرحلة الثالثة من عام ١٣٩٤هـ إلى عام ١٤٠٢هـ، وشهدت هذه المرحلة توسعًا في النطاق العمراني لمكة المكرمة، فضلاً عن إنشاء عدد من الطرق والأنفاق.

أما المرحلة الرابعة فتبدأ من عام ١٤٠٣هـ إلى الوقت الحاضر، وتمت خلالها أكبر توسعة في تاريخ الحرم الشريف، والتي أمر بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، كما أنشئت خلالها الطرق الدائرية، والأنفاق، والجسور والكباري، والعمائر الشاهقة، والمنشآت الضخمة الأخرى، مما كان له الأثر الكبير في التطور العمراني لمكة المكرمة، حتى إن حدودها أوشكت أن تلامس وادي فاطمة، وعين شمس، والجعرانة شمالاً، وما وراء الكعكية على طريق الليث جنوبًا، والشرائع العليا، ووادي نعمان شرقًا، وبحرة والشميسي غربًا. وهو ما يميز هذه المرحلة التي تعد العصر الذهبي لمكة المكرمة إن صح التعبير.

المعالم التاريخية والأثرية

ومدينة بهذا العمق التاريخي الضارب بجذوره في أعماق التاريخ لابد



قصر السقاف بعد ترميمه (وهو القصر الذي نزل فيه الملك عبد العزيز عند دخوله مكة)

أن تحتوي على ما يدل على هذه الخاصية التي تنفرد بها، وإذا تجاوزنا البيت العتيق، والمسجد الحرام، والصفا والمروة وبئر زمزم، ومقام إبراهيم، وغار حراء، وغار ثور، وجبل أبي قبيس، وجبل قعيقعان، وجبل الرحمة، وعرفات، ومزدلفة، ومنى، وشعب بن هاشم، وشعب علي، وأجيادًا، وكذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم، ودار العباس بن عبدالمطلب، ودار خديجة رضي الله عنها، ودار أبي سفيان، وهذه المواضع غنية عن التعريف، فإن بمكة كثيراً من الآثار، سواء داخل المدينة أو في الأودية المحيطة بها.

إن فترة ما قبل الإسلام من الناحية الأثرية لا تزال غير واضحة بصورة علمية صحيحة؛ لأن ما عُثر عليه من آثار يعود إلى تلك الفترة قليل جدًا، لعل من أهمها الأدوات الحجرية والصوانية التي عثر عليها في أم الحبلين بوادي فاطمة، وهو من أقرب الأودية إلى مكة المكرمة، ويرقى تاريخ الاستيطان البشري فيها من مئتي ألف إلى مليون سنة، ثم هناك عدة نقوش بخط البادية (الثمودي) في وادي العسيلة، وستة نقوش بالخط اللحياني تم اكتشافنا لها في دويدة شمال مكة المكرمة، وكذلك اكتشفت مجموعة لا بأس بها من الرسوم الصخرية القديمة لحيوانات، مثل: الجمال، والخيول، والماعز، وبعض أنواع الطيور، وأشكال الوسوم، كالدوائر، والظفائر، والمربعات التي يخرج من منتصف كل ضلع من أضلاعها خط صغير، والخطوط المتقاطعة، وغير ذلك من الأشكال، وهذه الأدلة الأثرية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام لا تعطينا تصورًا واضحًا لحركة التاريخ الحضاري لمكة المكرمة قبل الإسلام، على شهرة هذه المدينة المقدسة منذ القدم، لكونها من أهم المناطق الحضرية في شبه الجزيرة العربية، لمكانتها الدينية، وموقعها الذي يصل تجارة الشام باليمن، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله عز وجل: لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف* فليعبدوا رب هذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. قريش: ١ - ٤. وكل ما نستطيع قوله في هذا الشأن أن المنطقة الواقعة تحت المسجد الحرام تمثل في تلك الأزمنة السحيقة مدينة مكة المكرمة القديمة، وهذا ما لمسناه في التوسعات التي أجريت للمسجد الحرام منذ فجر الإسلام حتى الوقت الحاضر حيث كشفت تلك التوسعات عن مبان قديمة جدًا، طبقات بعضها فوق بعض فيما يعرف عند علماء الآثار باسم الطبقات الأثرية، أي مدينة فوق مدينة تكونت بمرور القرون، وتعاقب الأجيال.

كما أن الأحياء الواقعة حول المسجد الحرام حاليًا تمثل أيضًا أحياء أثرية مهمة تضم مباني تاريخية من منازل، وقصور، وخزانات مياه، وقلاع، لعل من أهمها قلاع لعلع وهندي المندثرتين، وقلعة أجياد التي ما زالت في حالة جيدة، إضافة إلى المساجد، والأربطة، والسراديب، والأسبلة، والحمامات، والمدارس، والآبار، والقنوات، والأسواق، والشوارع، والأزقة، التي يصعب حصرها في هذه العجالة لكثرتها، واندثار كثير منها، إلى جانب المقابر الأثرية الشهيرة، وهي: مقبرة المعلاة، التي نقلت الإدارة العامة للآثار والمتاحف منها قرابة ستمئة نقش إسلامي ترجع إلى عصور مختلفة بدءًا بفجر الإسلام وانتهاء بالعصر العثماني، كما توجد في باطن الأرض بهذه المقبرة مئات النقوش، وقد شاهدت ذلك



جانب من قصر السقاف وتظهر فيه روعة العمارة العربية



نفق طريق الملك عبد العزيز

بنفسي قبل سنوات عندما أجريت بعض التوسعات والترميمات في هذه المقبرة التاريخية، إضافة إلى ذلك فهناك مقبرة الشبيكة التي كان مسماها قديمًا مقبرة المطيبين أو مقبرة الأحلاف، وهناك أيضًا مقبرة المهاجرين بالحصحاص في الزاهر، ومقبرة الشيخ محمود بآخر ريع الرسام، وأول جرول للخارج من مكة، ومقبرة الخرامية بالمعابدة.

وقد تبقى من المسجد الحرام الرواق العثماني الدائر حول المطاف، أما أغلب أعمدته، وبخاصة في الجزء الجنوبي منه فيرجع تاريخها إلى العصر العباسي، ومن هذه الأعمدة، ثلاثة أعمدة مسجل عليها ثلاثة نصوص لتجديد العمارة في أوائل العصر العباسي.

ولم تقتصر العناية بالمدينة نفسها، بل امتدت إلى المشاعر المقدسة التي أولاها الحكام والخلفاء المسلمون اهتماماً كبيراً لتوفير أقصى درجات الراحة لحجاج بيت الله الحرام، بتمهيد الطرق المؤدية إليها، وتوفير المياه الصالحة للشرب بها، كما بنيت بها المساجد، ووضعت الأعلام المحددة لها.

وقد تبقى بمنى مسجد البيعة الذي يقع حاليًا على يمين النازل من الجمرات إلى مكة المكرمة، ويرجع تاريخ بناء هذا المسجد إلى أوائل العصر العباسي.

ومن النقوش الأثرية المهمة نقشان أثريان يؤرخان لعمارة مسجد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بالتنعيم.

وفي المعيصم توجد ثلاثة سدود لاتزال بحالة جيدة، وترجع كلها إلى

العصر الأموي، وقد بنيت هذه السدود بصفين من الحجارة الضخمة التي حشي ما بينهما بالدبش، صممت واجهاتها الخلفية وفق الأسلوب المتدرج، وقد نقشت عليها مجموعة من الكتابات التي تعود إلى العصر نفسه.

كما يشاهد في المشاعر المقدسة (عرفات - مزدلفة - منى) والعزيزية مجرى عين زبيدة الذي يشهد بأهمية ذلك المشروع في زمنه، والدور الحضاري الكبير الذي أداه في توفير المياه للحجاج والمعتمرين وأهل مكة على حد السواء.

وتتركز في شمال شرق وشمال غرب عرفات مجموعة كبيرة من النقوش الكتابية التي ترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، في وادي الحرمان، وأم الرين، ودقم البطين، والشعراء، والخلاص، وقد بلغ المكتشف منها عدا الذي لم نتمكن من قراءته خمسة وخمسين نقشاً، بعضها مؤرخ وأغلبها غير مؤرخ، وقد قام بقراءتها ودراستها مع خمسة من نقوش المعيصم الأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد وكيل وزارة المعارف لشؤون الآثار والمتاحف، ونشرها في كتابة القيم «كتابات إسلامية من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق».

على أن أهم المواقع الأثرية في مكة المكرمة موقع وادي العسيلة الذي كشفنا عنه قبل عدة سنوات، ويشتمل هذا الوادي على نقوش كتابية ترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، ويزيد عددها على ستين نقشاً، إضافة إلى آبار قديمة ومستوطنة أثرية مندثرة عثرنا فيها على كسر فخار وزجاج من الفترة الإسلامية المبكرة، وتكمن أهمية نقوش وادي العسيلة في أنها احتوت على أسماء شخصيات معروفة في التاريخ من الصحابة والرواة، وفيها ثلاثة نقوش غاية في الدقة والإتقان والجمال، اثنان منها مؤرخان بسنة ثمانين هجرية، والثالث بسنة ثمان وتسعين هجرية.

كما يوجد في شرق المغمس الواقع شمال شرق عرفات موقع أثري مهم، وهو موقع سوق ذي مجاز، وتوجد في هذا الموقع أطلال هذا السوق



أحد الشوارع ا

إضافة إلى بعض النقوش الكتابية التي ترجع إلى الفترة الإسلامية المبكرة.

وهناك أيضًا سوق مجنة، وقد اختلف الباحثون في تحديد موقعه، فقيل في الجعرانة، وقيل وراء التنعيم. ومن المواقع الأثرية المهمة موقع عين شمس، حيث توجد في هذا الموقع مجموعة من النقوش الكتابية التي يعود تاريخها إلى القرون الهجرية الأولى، إضافة إلى الخربشات الصخرية التي ترجع إلى ما قبل الإسلام.

كما يوجد أكثر من ثلاثين نقشًا كتابيًا من القرون: الأول والثاني والثالث الهجرية في المنطقة الواقعة خلف وادي العسيلة على امتداد الطريق الواقع بين محطتي البرود وخرائب أبي نواس، وهما موقعان أثريان مهمان يقعان على طريق الحاج العراقي، وتوجد في هذين الموقعين وبينهما مجموعة من الآبار، والمقابر، والبرك أو الأحواض، والقنوات والمنازل، والقصور، والحصون، وأبراج المراقبة، بعضها يرجع إلى العصر العباسي.

كما توجد في مرتفعات أجياد مجموعة من النقوش الكتابية التي يرجع تاريخ معظمها إلى القرون الهجرية الأولى، واحد منهم فقط يعود تاريخه إلى فترة متأخرة.

وفي حي الغسالة بمكة المكرمة توجد بقايا سد أثري بني في فترة إسلامية مبكرة، ومن المؤسف أن الشارع شق جدار السد إلى نصفين.

أما في المنطقة الواقعة جنوب مكة المكرمة فتوجد بعض النقوش الكتابية التي عثر عليها في بعض المواقع، كما لا تفوتنا الإشارة إلى ميناء الشعيبة قديمًا، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة أين مرسى السفن فيه؟ وليست لدينا معلومات عن شكله، وما يوجد فيه من مبان.

ومن الملاحظات الجديرة بالاهتمام كثرة النقوش في المنطقة الواقعة شمال شرق مكة وبدرجة أقل من شمال غربها، وهذا يدل على أن الاستيطان البشري آنذاك كان يتركز في هذه المناطق، فضلاً عن أن دروب الحجيج العراقي والشامي والمصري واليمني كلها تصب في هذه المنطقة. وهذه ملاحظة جديرة بالعناية لمن يرغب في تتبع حركة الاستيطان البشري بمكة المكرمة في تلك الفترة.

ومن المواقع الأثرية المهمة موقع الخشنة الذي عثر فيه على نقش أثري مهم يعد من أقدم النقوش الإسلامية.

وإلى جانب المواقع الأثرية وما بها من آثار سواء منشآت معمارية، أو نقوش كتابية، فقد عثر بمكة المكرمة على مئات النقوش التي يعود تاريخها إلى عصور إسلامية مختلفة، بعضها معروف مكان وجوده، ومعظمها غير معروف لعدم إفصاح الناس عنها، حيث يحتفظون بها بطريقة غير نظامية، فالنقوش المعروفة محفوظة في المتاحف، والمجموعات الخاصة، والمستودعات، والمكتبات، والأندية الأدبية، فمتحف قسم الحضارة والنظم الإسلامية بجامعة أم القرى يحتوي على عشرات النقوش الكتابية التي تم جلبها من مواقعها.



باب المدرسة الصولتية

وتحتفظ إدارة التعليم بمكة المكرمة بنحو خمسة عشر نقشًا كلها ترجع إلى القرون الهجرية الأولى، ومن أهمها النقش الذي عثر عليه في عرفة مؤخرًا، الذي يسجل عمارة الخليفة العباسي المتوكل لمصرب للحجاج بعرفة.

وهناك عدة نقوش إسلامية مبكرة محفوظة في متحف حسن خوجه التراثي، وأيضًا هناك مجموعة قيمة من النقوش الكتابية التي يرجع تاريخها إلى عصور إسلامية مختلفة محفوظة في متحف الحرمين الشريفين، كما يحتفظ نادي الطائف الأدبي بنقش كتابي تم شراؤه من مكة المكرمة، مؤرخ عام ٥٠٩هـ، وهكذا يمكننا تصنيف هذه النقوش إلى: نقوش تأسيسية، ونقوش دعائية (تذكارية)، وشواهد قبور.

أما على الطريق بين مكة وجدة فتوجد بعض القلاع الحربية والخرزات والقنوات والأسبلة التي بنيت في القرن الماضي، ويلفت النظر في هذا الطريق الأسبلة الثلاثة التي أنشأها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله، وهي سبيل بئر أم القرون، وسبيل حداء، وسبيل بئر القتلة، وذلك ضمن عدد من الأسبلة التي أمر ببنائها في مكة المكرمة لخدمة حجاج بيت الله الحرام، ولاتزال هذه الأسبلة

الثلاثة في حالة جيدة، حيث سجل تاريخ الإنشاء لكل سبيل في نقش كتابي بواجهة كل سبيل من هذه الأسبلة بخط الخطاط سنبل، الذي سجل اسمه بعد البسملة.

وهناك سبيل آخر ومسجد من عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في حي المعابدة يرجع تاريخ إنشائهما إلى عام ١٣٦٢هـ، كما في اللوحتين التأسيسيتين المثبتتين في واجهتيهما بخط الخطاط محمد عمر رفيع.

ولا تفوتنا الإشارة إلى العيون المغذية لمكة المكرمة، ومن أشهرها عين زبيدة وطول قناتها (٣٣١٥٠م)، وعدد خرزاتها (٩٢) خرزة، وعين العشر (فخ) وطول قناتها (١٤٧٠٠م)، وعدد خرزاتها (١١) خرزة، وعين الزعفرانة وطول قناتها (٩١٥٠م)، وعدد خرزاتها (٦)، وعين الهجيمة وطول قناتها (٥٧٠٠م)، وعدد خرزاتها (١٤) خرزة، هذا عدا العيون التي أنشئت في أماكن أخرى من مكة المكرمة، والأودية التابعة لها.

وهناك مصانع النورة بالنوارية التي كانت تستخرج من جبالها الصخور الكلسية التي تحرق في هذه المصانع لتتحول إلى مسحوق أبيض اللون يستخدم في طلي الجدران، وكذلك معامل حرق الآجر في الرصيفة والنوارية وعكاشة، التي كانت تحرق فيها قوالب الآجر المستخدمة في أعمال البناء.

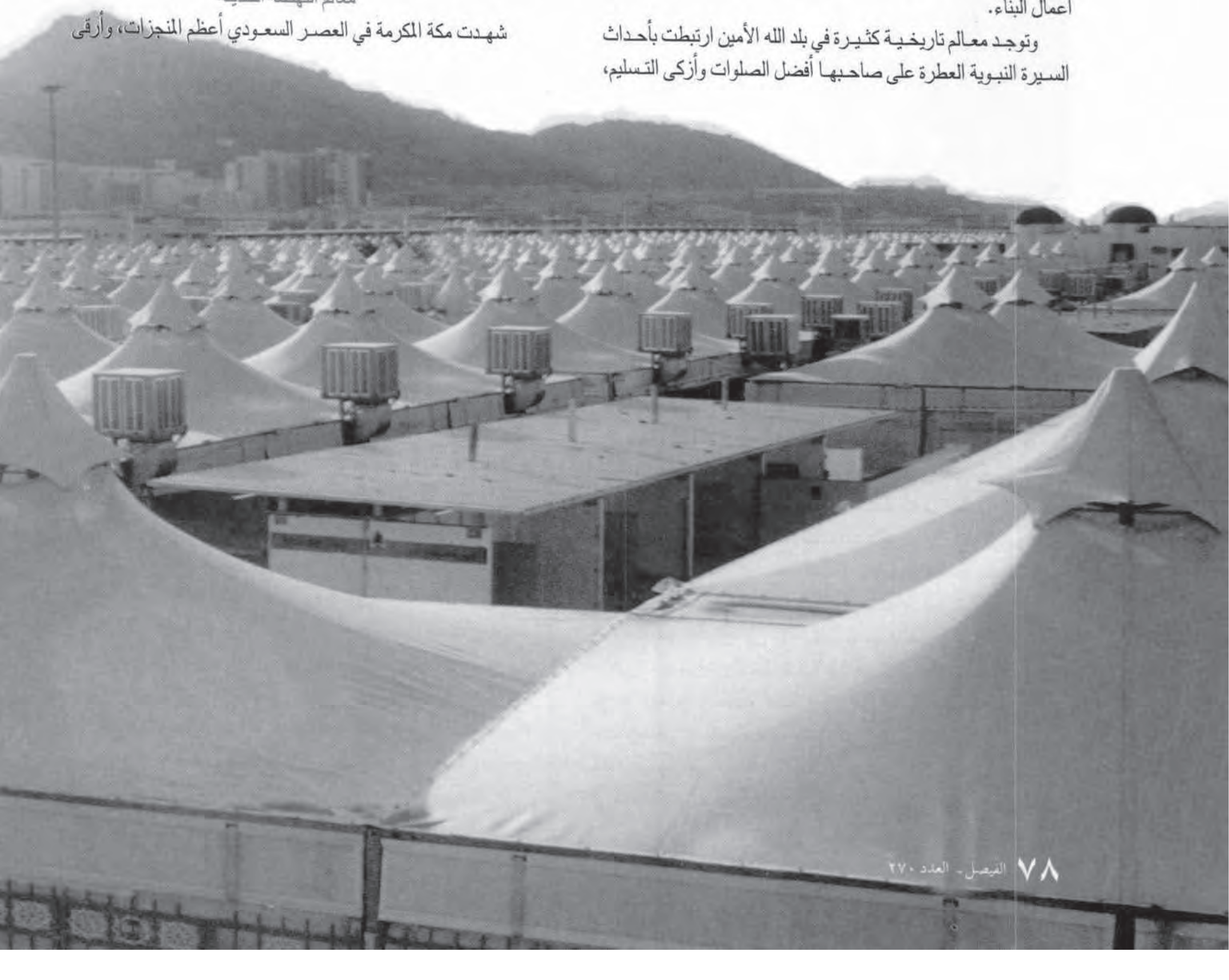
وتوجد معالم تاريخية كثيرة في بلد الله الأمين ارتبطت بأحداث السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم، وبأحداث الفتح الإسلامي بمكة، بعضها ثابت ومعروف مثل: غار حراء، وشعب علي، وغار ثور...إلخ، وأغلبها يحوم حوله الشك ليس من ناحية الحدث، وإنما من ناحية موقع الحدث.

كما اشتهرت مكة المكرمة بصناعتها وحرفها التقليدية ومأكولاتها ومشروباتها المتنوعة وقد ساعد على تنوعها وغناها عوامل متعددة، منها: الحج والعمرة والزيارة، والبعثات الصناعية السلطانية، والهدايا، ونقابات الصناع والحرفيين، والمجاورة، ويتضح ذلك في صناعات الخشب، والمعادن، والرخام، والجلود، والزجاج، والجص، والرسم بالألوان، والتذهيب، والزخرفة على الملاط، والمنسوجات، والآجر، والفخار، حيث حفلت هذه الصناعات بالتنوع في موادها الخام، أو في طرائق صناعتها، أو أساليب زخرفتها، أو غناها بالزخارف النباتية، والهندسية، والكتابية.

واشتهر المطبخ المكي بتقديم أشهى المأكولات والمشروبات، مثل: السوبيا، والمنتو، والأرز الزربيان، والأرز البخاري، والفرموزة، والبتيع، والسحلب، والفول، والهريسة، والحلاوة الطحينية البلدية، والمجدرة، واللدو، واللبنية، والمهمجية، والسليق، والمطبق، والسمبوسك، والطرمبة، والديبازة، وكباب الميرو، والمندي، ومغازلية الكشري، والمنشور، والمعصوب، والكوزي، وغير ذلك من الأصناف.

معالم النهضة الحديثة

شهدت مكة المكرمة في العصر السعودي أعظم المنجزات، وأرقى



الخـدمـات، فقـد أولاها قـادة هذه البلاد منذ عهد الملك عبدالعزيز ـ رحمـه الله ـ وأبنائه من بعده جل عنايتـهم واهتمـامهم ، وهو مـا لم تشهـده هذه المدينة المقدسة عبر تاريخـــهـا الطويل، ولـذا يصح القــول أن كل شـــبـر في مكة المكرمة، والمشاعر المقدسة يشهد بإنجـازات الدولـة السـعـودية، ويأتي في مقدمـة هذه المنجـزات توسعة المسجد الحرام التي بلغت ذروتها بتوسعة خادم الحرمين الشريفين، التي تعد أضخم توسعة للمسجد الحرام في التاريخ على الإطلاق، إذ بلغت ٧٦ ألف متر مربع، فتضاعفت مساحة المسجـد تبعاً لذلك ثلاثـة أضعاف، عـدا الترميمات المتتالية التي أجريت في الكعبة المشرفة، وحجر إسـماعيل، ومقام إبراهيم، وبئر زمزم، وكذلك التـجديدات والتـوسعات في مـساجـد المشاعر المقدسة، والمسـاجد الأخـرى بمكة المكرمة، كـمـا تم تجديد أعـلام المشـاعر المقـدسة، وأعـلام الحرم.

ومن أجل تقديم أقـصى درجات الراحة لحـجاج بيت الله الحرام، فقد أقامت الدولة عـدة مشـاريع عملاقـة في المشاعر المقـدسة، منهـا: إنشاء شبكة ضخمة من الجسور والكبـاري والأنفاق، وتشجير عرفات، وإنشاء مجزرة الأضـاحي بالمعيصم، ومشـروع المملكة العربية السـعودية للإفادة من الأضاحي، وتوسـعة المشاعـر المقدسة، وإنشـاء معهد خـادم الحرمين الشريفين لأبحـاث الحج، وإقامة كـثير من المرافق الخـدمية في المشـاعر، وتوسعة جسر الجمرات، وإنارة المشاعـر بأحدث وسائل الإنارة وتكثيفها، ثم المشروع العملاق الذي نفذ بمنى وهو مشـروع الخيام المقاومة للحرائق،



جبل الرحمة في عرفات



منى ساعة الغروب وتبدو الخيام الجديدة المقاومة للحريق



قلعة أجياد



نقش من عام ٨٠ هـ

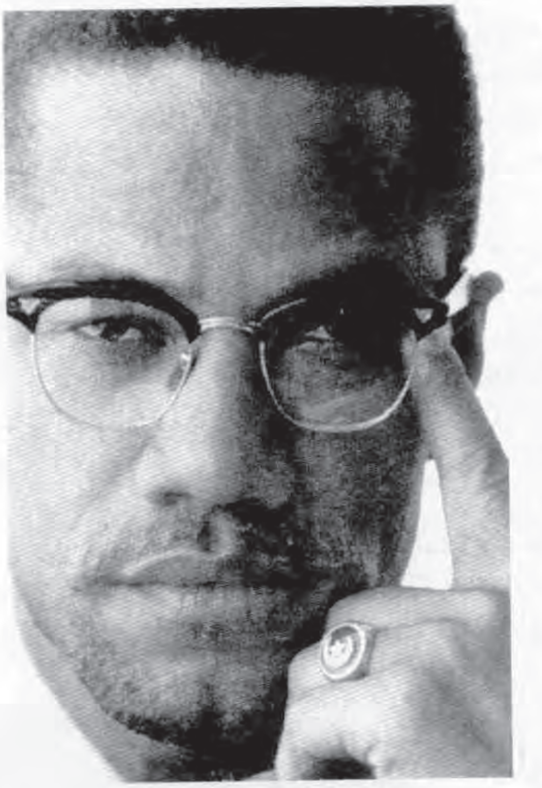
كما أنشأت الدولة مصنعًا كبيرًا لكسوة الكعبة المشرفة، ومتحفًا للحرمين الشريفين، حرصًا من ولاة الأمر على الحفاظ على تراث الحرمين، وإبراز جهود من سبقهم في خدمتهما، بالإضافة إلى إنشاء مطار عرفة بالمغمس (الوادي الأخضر)، وإنشاء منظومة الجسور والكباري والأنفاق والطرق الدائرية، وهذه الخدمات الجليلة التي قدمتها رفعت عدد الحجاج إلى ما يزيد على مليونين بعد أن كان عددهم لا يتجاوز عشرات الألوف.

ومن المعالم الحضارية الحديثة في مكة المكرمة مبنى رابطة العالم الإسلامي، ومكتبة الحرم المكي الشريف، والمكتبة العامة، والمدينة الجامعية لجامعة أم القرى بالعابدية، ومواقف حجز السيارات، وبوابة مكة المكرمة، ومشروع شركة مكة للإنشاء والتعمير، ومبرة خادم الحرمين الشريفين، ومشروع الإسكان العام بالرصيفة، ومبنى إمارة منطقة مكة المكرمة، ومبنى فرع وزارة المالية والاقتصاد الوطني، ومبنى أمانة العاصمة المقدسة، ومستشفى حراء العام، ومستشفى الملك عبدالعزيز بالزاهر، ومستشفى النور التخصصي، ومستشفى الولادة، والمركز الإعلامي بالزاهر، وجامع الملك عبدالعزيز بالفيصلية، وجامع التنعيم، ومبنى حلقة الخضار والفواكه بالكعكية، وفنادق الدرجة الممتازة العالمية، مثل: الانتركونتنتال، حياة ريجنسي، وهيلتون مكة.

ونتيجة لما تنعم به مكة المكرمة من أمن واستقرار فقد انتشرت فيها الأسواق الحديثة، ومن أهمها: سوق الحجاز، وسوق العائلة، وسوق العزيزية، وسوق السلام، وسوق مكة الدولي، عدا الأسواق المشهورة تاريخيًا والمحيطة بالحرم المكي الشريف، وكذا المراكز التجارية، مما أسهم في إنعاش الحركة الاقتصادية بما انعكس إيجابيًا على توفير عشرات الآلاف من فرص العمل لأبناء هذه البلاد.

المراجع:

١ ـ سعد الراشد، كتابات إسلامية من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق، ط١، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٢ـ الحافظ أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه ووضع فهارسه عمر عبدالسلام تدمري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٣ـ أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ط٢، مكة المكرمة، مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٤ـ ناصر علي الحارثي، المواقع الأثرية في مكة المكرمة (تحت الطبع).
٥ـ محمد بن فهد العفر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، ط١، جدة، تهامة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
٦ـ محمد عمر رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، مكة المكرمة، منشورات نادي مكة الثقافي، طبع بإشراف دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٧ـ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط١، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، ج ج١ـ٤، ١٣٨٥هـ، ج ج ٥ـ٦، ١٤١٢هـ.
٨ـ عبدالعزيز صقر الغامدي ومحمد بن محمود السرياني ومعراج نواب مرزا وزهير محمد جميل الكتبي، مكة المكرمة العاصمة المقدسة، ط١، مكة المكرمة، مطابع الصفا، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٩ـ عواطف أديب سلامة، قريش قبل الإسلام: دورها السياسي والاقتصادي والديني، ط١، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٠ـ إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
١١ـ عادل محمد نورغباشي، أسبلة الملك عبدالعزيز على الطريق بين مكة وجدة، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ.
١٢ـ أحمد السباعي، تأريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط٧، مكة المكرمة، مطابع الصفا، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١٣ـ نادي مكة، جغرافية مكة المكرمة، مجلة المنهل، العدد ٤٧٥، السنة ٥٦، الربيعان ١٤١٠هـ/ أكتوبر/نوفمبر ١٩٨٩م.



الخروج من الظلمات إلى النور: فصول من سيرة مالكوم إكس

عبدالعزيز محمد جلال الشريف

كانت حياة الزعيم الأمريكي مالكوم إكس حافلة بالأحداث المثيرة، التي كانت بدورها انعكاسا للرحلة الفكرية والشخصية المعقدة التي عاشها خلال عمره القصير نسبيًا والذي لم يتجاوز الأربعين سنة (١٩٢٥ ـ ١٩٦٥م). وهي سيرة فذة أشبه بملحمة رائعة للانتقال من الضياع إلى الالتزام، ومن حياة الإجرام إلى طريق الاستقامة والزعامة في قومه، والاستعاضة بالتعليم والتثقيف الذاتي عن التعليم النظامي.. وذلك جانب واحد من جوانب هذه الشخصية القوية المتعددة الجوانب... والواقع أن قصة حج مالكوم إكس كانت أكثر الأحداث إثارة في سيرته، إذ إنها تمثل نقطة التحول الحاسمة في حياته الخاصة، وفي حركة انتشار الإسلام في أمريكا في الوقت نفسه(١).

كان أكثر ما استرعى انتباه (المسلم الأمريكي الأسود) في الحج منظر المسلمين من جميع العناصر والجنسيات والأشكال والألوان مختلطين بعضهم مع بعض دون أي تمييز، وهم يطوفون حول بيت الله الحرام. ومن تلك اللحظة اقتنع فعلا ببطلان دعوة إليجا محمد العنصرية [زعيم حركة أمة الإسلام التي اعتنق مالكوم أفكارها في ١٩٤٩م في أثناء وجوده في السجن، ثم أصبح من قادتها منذ عام ١٩٥٩م، واختلف بعد ذلك مع إليجا]، ورأى في الإسلام الأصلي خلاصًا للسود من مشكلة العنصرية. وعقد العزم على نشر عقيدته الجديدة عند عودته إلى الولايات المتحدة، مع استمراره في الدفاع عن المقهورين من قومه السود وغيرهم(٢).

كان ذلك أكبر أثر أحدثه الحج في نفس الزعيم العنصري المتشدد في عداوته للأمريكيين البيض، فقد عدل عن رأيه في ضرورة انفصال السود، وأعلن أنه لم يعد يناصر العرقية، وسلم بالرأي القائل بإمكان قيام أخوّة عالمية، سجل ذلك كله، وهو ما يزال في الديار المقدسة، في رسالة بعث بها إلى رفاقه وأنصاره

في أمريكا، وطلب منهم نشرها على أوسع نطاق، مؤكدا فيها تمسكه بالدين الإسلامي الصحيح، ورافضاً عقيدة المسلمين السود التي تعدّ البيض كلهم من الأشرار، واتخذ لنفسه لقبًا أصيلاً، أي (عربيا)، وهو «الحاج مالك الشباز» الذي وقع به تلك الرسالة الشهيرة، وشرح مالكوم سبب اتخاذه هذا الاسم الإسلامي بأنه مادام أن جميع السود ينحدرون من قبيلة شاباز SHABAZZ فإن اسمه «الإسلامي» هذا يمكن أن يتسمى به أي عضو في الجماعة(٣)...

كان يحتشد في الطائرة [كان مالكوم قد توجه إلى القاهرة قبل أن يتوجه من هناك إلى جدة] أناس من مختلف الألوان، منهم الأبيض، والأسود، والأسمر، والأحمر، والأصفر.. ومن ذوي العيون الزرقاء، والشعر الأشقر مع شعري الأحمر المفتّل: كلهم معا إخوانٌ! كلهم جميعا يعبدون إلهًا واحداً هو الله، وكل منهم يعامل الآخر باحترام، وعلى قدم المساواة.

مصري من هارلم!!

وتسرب الخبر من بعض الرفاق في جماعتنا، وانتشر من مقعد إلى آخر، بأنني مسلم من أمريكا، واتجهت الوجوه نحوي باسمة لتحيتي. ووزعت علينا علب الغداء، وبينما كنا نتناول



مالكوم إكس كان خطيباً مفوهاً

حاول أن يفهم حاجًا مصريًا أنه صديق كلاي، فتحلق حوله الحجاج معتقدين أنه الملاكم الشهير

طعامنا وصل الخبر إلى كابينة الطيار بأنه يوجد على متن الطائرة مسلم من أمريكا.

وأقبل قائد الطائرة للقائي.. كان مصريًا بشرته أشد سوادًا من بشرتي، كان بوسعه أن يمشي في حي هارلم دون أن يلتفت إليه أحد. كان سعيدا بلقاء مسلم أمريكي. وعندما دعاني لزيارة كابينته سارعت إلى انتهاز هذه الفرصة.. وكان مساعد الطيار أشد سوادًا من الطيار نفسه.. ولا أستطيع أن أصف لك الشعور الذي انتابني عندما رأيت ذلك، فلم يسبق لي أن شاهدت مطلقا رجلا أسود يقود طائرة نفاثة.. وتلك اللوحة الخاصة بأجهزة القياس: لا قبل لأحد بأن يعرف ما تعنيه كل هذه الأقراص المدرجة. كان كل من الطيار ومساعده يبتسم لي، ويعاملني بالاحترام والتقدير نفسيهما اللذين كنت ألقاهما منذ أن غادرت أمريكا. ووقفت في الكابينة أنظر من خلال الزجاج إلى السماء الممتدة أمامنا. ولقد ركبت في أمريكا عدداً من الطائرات أكثر مما ركبه أي زنجي آخر، ومع ذلك، فلم يسبق أن دعاني أحد إلى كابينة الطيار. وها أنا ذا في الطائرة يرافقني في الجلوس أخوان مسلمان أحدهما من مصر، والآخر من المملكة العربية السعودية، وكلنا يقصد إلى مكة المكرمة.. وها أنا ذا أقف داخل كابينة الطيار.. أخي إنني أعلم علم اليقين بأن الله معي...

وبدا مطار جدة أشد ازدحامًا من مطار القاهرة. وأصبحت جماعتنا مجرد مجموعة من المجموعات التي تجر أقدامها لشق طريقها وسط الجماهير المتحركة التي تضم كل أجناس الأرض. وكل مجموعة منها تأخذ طريقها إلى الصف الطويل الذي ينتظر للمرور من الجمرك. وقبل الوصول إلى الجمرك يجري تخصيص كل مجموعة من الحجاج لمطوف يكون مسؤولاً عن نقل المجموعة من جدة إلى مكة. وكان بعض الحجاج يهتفون «لبيك اللهم لبيك»، بينما كان غيرهم في مجموعات أكبر يرددون تلبية جماعية قائلين: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك».. وجوهر هذا الدعاء هو توحيد الله.

كان الجميع إما يرتدون ملابس الإحرام، أو يرتدون الطواقي والثياب الطويلة البيضاء، والشباشب الخفيفة، وهي ملابس المطوفين ومساعديهم الذين يقودون مجموعات الحج.

توتر وجدال في مطار جدة

وانتابني شيء من التوتر، وأنا أتحرك وسط جماعتي في الصف في انتظار فحص جوازات السفر. كان يسيطر عليّ شعور بالقلق.. ولك أن تتصور ما الذي سوف أقدمه لهم.. إنني الآن في العالم الإسلامي، بل في قلبه مباشرة، وها أنا ذا أقدم جواز سفري الأمريكي الذي يعنى النقيض التام لكل ما يمثله الإسلام.

كنت في حالة عصبية شديدة لدرجة أنني عندما أدرت المفتاح في حقيبتي، ولم يتحرك القفل، فإنني عمدت إلى فتحها عنوة لأنني خشيت أن يظنوا في حقيبتي ما لا ينبغي أن يوجد بها، ثم رأى الموظف أنني أقدم جوازاً أمريكيًا، فأمسك به ونظر إليّ، وقال شيئًا بالعربية، فراح الأصدقاء من حولي يتحدثون بالعربية بسرعة، وتصدر عنهم إيماءات وإشارات، وهم يحاولون التوسط من أجلي. وطلب مني القاضي [أحد المرافقين من القاهرة] - باللغة الإنجليزية - الخطاب الذي أحمله من الدكتور الشواربي، ودفع به إلى الموظف الذي قرأه، وأعاده إليه

معترضاً حسبما فهمت.. كان هناك جدال يدور بشأني. وشعرت أنني كالأبله، فلا يمكنني أن أنطق كلمة واحدة، بل إنني لم أكن أفهم شيئًا مما كان يقال من حولي. وأخيرا اتجه القاضي نحوي حزينًا أسفًا، وأوضح لي أن يتعين عليَّ أن أمثل أمام المحكمة الشرعية، وهي المحكمة الإسلامية التي تختبر المعتنقين الجدد للإسلام والراغبين في دخول مكة؛ لأنه من الممنوع منعًا باتا دخول غير المسلمين إلى مكة...

وأشار أحد الموظفين إلى أحد معاوني المطوِّف، وقال لي بلغة إنجليزية ركيكة: إنه سيقودني إلى مكان داخل المطار. وقد احتفظوا بجواز سفري في الجمارك، وهممت أن أعترض على ذلك؛ لأن القاعدة الذهبية بالنسبة للمسافر هي ألا يفترق مطلقا عن جواز سفره، ولكني لم أفعل...

لا يعرف الأوضاع الصحيحة للصلاة

وفي الطابق الرابع أدخلني دليلي حجرة بها نحو خمسة عشر شخصا، كان معظمهم نائمين على سجاجيدهم، وكل منهم ملتف حول نفسه، وأدركت أن منهم نساء؛ لأنهن كن يلتحفن بغطاء من الرأس إلى القدم.. كان هناك شيخ روسي وزوجه مستيقظين، وراحا يحدقان النظر فيَّ، واستيقظ حاجان مصريان وحاج إيراني، وأخذوا يحدقون النظر فيَّ بدورهم، بينما كان الدليل يمضي بي إلى ركن الحجرة، وأومأ إليَّ بالإشارات أنه سيعلمني الأوضاع الصحيحة للصلاة، ولك أن تتخيل كيف أنني، وأنا المسؤول الديني عن أحد المساجد، وأحد القادة في جماعة أمة الإسلام التي يتزعمها إليجا محمد، ومع ذلك، لا أعرف كيف أؤدي شعائر الصلاة!

حاولت أن أفعل مثلما كان يفعل، ولكنني كنت أعرف أنني لا أفعله بالطريقة الصحيحة. وأحسست بعيون المسلمين في الحجرة تحدق فيَّ.. إن كاحل قدم الإنسان الغربي لا يمكنه أن يفعل ما يفعله كاحل المسلم طوال حياته. فالآسيويون يجلسون القرفصاء عندما يقعدون، أما الغربيون فانهم يجلسون منتصبين على المقاعد. وعندما كان دليلي في وضع السجود، بذلت كل ما في وسعي لكي أسجد مثلما سجد، ولكن هيهات.. كانت قامتي ما تزال منتصبة. وبعد قراية الساعة تركني الدليل ومضى مشيراً إليَّ بأنه سوف يعود فيما بعد.

السجادة في حياة المسلم

ولم تخطر فكرة النوم ببالي مطلقًا. وأخذت أتدرب على أوضاع الصلاة والحجاج يراقبونني.. ولكني منعت نفسي من التفكير في أنه لابد أنني كنت أبدو مضحكاً في نظرهم. وعلى أي حال فقد تعلمت بعد برهة حيلة بسيطة تمكنني من السجود قريبا من الأرض، ولكن بدأ رسغ قدمي يتورم بعد يومين أو ثلاثة أيام.

ولما استيقظ الحجاج النائمون بعد أن بزغ الفجر شعروا بوجودي بينهم على الفور، وراح كل منا يراقب الآخر بينما انصرف كل حاج منهم لشأنه.



جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز يرحمه الله

وبدأت أدرك أهمية الدور الذي تقوم به السجادة في حياة الحجاج، فكل حاج معه سجادة صغيرة للصلاة. وإذا كانا زوجين أو مجموعة كبيرة من الحجاج، تجد معهم سجادة مشتركة أكبر حجمًا. كان الحجاج يصلون على سجادهم في الحجرة وبعد ذلك يفرشون فوقها سماطا ويتناولون طعامهم.. وهكذا تصبح السجادة حجرة طعام. وبعد رفع الأطباق والسماط يجلسون فوق السجادة، فتصبح غرفة معيشة، ثم يلتف كل منهم حول نفسه، وينامون فوق السجادة.. غرفة نوم...

ولقد أدركت أول مرة - في أثناء إقامتي في تلك الحجرة وقبل أن أغادرها - أدركت السبب في أن تاجر السلع المسروقة كان يدفع لي سعراً مرتفعاً للسجاد الشرقي عندما كنت أقوم بالسطو على المنازل في بوسطن فيما مضى؛ وذلك لأن نسج السجاد الفاخر يتطلب عناية فائقة في البلاد التي تتعدد فيها استعمالات السجاد. وبعد وصولي إلى مكة شاهدت استعمالا للسجادة: فعندما ينشب نزاع ما يأتي شخص من ذوي المكانة والمهابة، وليس طرفًا في النزاع، ويجلس فوق سجادة، بينما يجلس أطراف النزاع حوله، وبذلك تصبح السجادة قاعة محكمة. وفي أحوال أخرى تصبح السجادة حجرة للدراسة أيضا.

أنت.. أنت كلاي ؟!

كان هناك حاج مصري يراقبني على الدوام بطرف عينه، فابتسمت له، ونهض من مكانه مقبلا نحوي وهو يقول: «هاللو»،

وابتسمت له في ابتهاج: «هاللو»، وسألته عن اسمه، فراح يردد كلمة اسم بالإنجليزية name محاولاً أن يفهم المقصود منها، ولكنه لم ينجح في ذلك. وردد كل منا بعض الكلمات الإنجليزية على أسماع الآخر من باب الاختبار، وأحسب أن محصوله من اللغة الإنجليزية لا يزيد على عشرين كلمة، مما كان سبباً في إحباطي وخيبة أملي. كنت أحاول أن أجعله يفهم أي شيء، فكنت أشير إلى السماء قائلا SKY فيبتسم، فأعاود تكرار اللفظ مرة أخرى مشيراً إليه بأن يردده ورائي، وهكذا رحت أردد على مسامعه بعض الألفاظ الإنجليزية.. طائرة.. سجادة.. قدم.. صندل.. عيون، وما شابه ذلك، ثم حدث شيء مذهل.. كنت سعيداً جداً لأنه يجري نوع من الاتصال بيني وبين إنسان آخر، وكنت أقول له أي شيء يخطر ببالي، فقلت له: «محمد علي كلاي»، فأضاءت وجوه جميع الحجاج الذين كانوا ينصتون إلينا مثلما تضيء شجرة عيد الميلاد، وأخذ صديقي يشير إليَّ متسائلاً: أنت؟ أنت؟ فهززت رأسي قائلاً: لا. لا إن محمد علي كلاي صديقي. صديق!» ويبدو أنهم فهموا جزئيا ما أقول، وبعض منهم لم يفهم ما قلت. ومن هنا بدأ يشاع فيما حولنا أنني كاسيوس كلاي البطل العالمي للملاكمة في الوزن الثقيل. وقد علمت فيما بعد أنه ما من رجل أو امرأة أو غلام في العالم الإسلامي إلا وقد عرف كيف مُنى سوني ليستون (الذي كان يمثل في نظر العالم الإسلامي صورة الغول الذي يأكل البشر) بالهزيمة على يد كاسيوس كلاي الذي أعلن بعد ذلك اسمه محمد علي، وأن دينه الإسلام وأن الله هو الذي نصره.

وأقبل نحوي الحاج الإيراني الذي يقيم معنا في الحجرة، وحياني بشيء من التأتأة.. أمير.. أميركي؟ وأشار إلى أنه يريدني أن أتناول طعام الإفطار معهم، هو وزوجته، على سجادتهم. وأدركت أنه يقدم لي عرضاً ممتازاً، لأنه لا ينبغي لك أصلا أن تتناول الشاي مع زوجة رجل مسلم.. ولم أشأ أن أفرض نفسي عليهما، ولست أدري هل فهم الحاج الإيراني أم لم يفهم ما أعنيه عندما هززت رأسي، وابتسمت وأنا أقصد القول «لا... شكراً»، وعلى أي حال، فقد أحضر لي بعض الكعك والشاي...

الهاتف ينقذ الموقف

كانت في الواقع فكرة خطرت على بالي فجأة.. كنت في إحدى جولاتي التي قمت بها في الفناء الذي يموج بالحركة والنشاط، قد لمحت أربعة من الموظفين يجلسون حول مائدة عليها جهاز الهاتف. وعندما مرَّ في خاطري الآن أنني رأيتهم في الفناء ومعهم الهاتف، لمع في ذهني ذلك الرقم الذي أعطانيه الدكتور الشواربي(٤) في نيويورك، وهو رقم هاتف نجل مؤلف الكتاب [د. عبدالرحمن عزام] الذي قدمه لي الشواربي.. إن عمر عزام يقيم هنا في جدة.

وقدم الدكتور عمر عزام إلى المطار على الفور [بعد اتصال به هاتفياً]، وشدَّ على يديَّ بترحاب، بينما كان الموظفون الأربعة يبتسمون بابتهاج.. كان شاباً طويل القامة قوي البنية، ولعل طوله يبلغ ستة أقدام وثلاث بوصات. كانت أخلاقه غاية في الرقة والتهذيب، ولو كان في أمريكا لقيل عنه: إنه رجل أبيض، ولكن ما أذهلني بشدة، وفي التو واللحظة، أنني لم يخامرني أي شعور بأنه رجل أبيض من سلوكه. ووصلنا إلى دار الدكتور عزام في الصباح الباكر. كان هناك والده وشقيق الوالد - هو كيميائي - وصديق آخر.. كلهم كانوا مستيقظين في ذلك الوقت المبكر في انتظاري. وقد عانقني كل منهم كما لو كنت طفلاً عاد إليهم بعد طول غياب.. لم يسبق لي أن شاهدت أحداً من هؤلاء الرجال من قبل، ومع ذلك يعاملونني هذه المعاملة الكريمة! ولابد أن أقول لك: إنني لم أحظ من قبل بمثل هذه الحفاوة والتكريم طوال حياتي، كما لم أنعم مطلقا بمثل هذا الكرم الحقيقي...



محمد علي كلاي

عزام يتنازل له عن جناحه بالفندق

كان من عادة عبدالرحمن عزام عندما يكون في وطنه، أن ينزل في جناح بفندق جدة بالاس هوتيل. ولما كنت قد حضرت إليهم بخطاب من صديق لهم، فقد قرر أن يقيم في بيت نجله وأن يدع لي جناحه بالفندق لكي أنزل فيه إلى أن يتسنى لي الذهاب إلى مكة.

ولكن انتقالي إلى ذلك الفندق بعيدا عن ذلك السرير النقال في الطابق الرابع من مبنى الحجاج في غضون ساعات قلائل من ذلك الاتصال الهاتفي في ذلك الصباح - كان من المرات القليلة التي شعرت فيها برهبة شديدة جعلتني عاجزاً عن أية مقاومة.. هذا الرجل الأبيض - فهو يعد رجلاً «أبيض» في أمريكا على أي حال - بل شخصية دولية في الواقع، وليس هناك ما يمكن أن يجنيه مني على الإطلاق، يتخلى عن جناحه في الفندق من أجلي، لكي أستريح فيه فترة عابرة.. ليس هناك أي مكسب له.. إنه ليس في حاجة إليَّ.. ولديه كل شيء.. بل إنه سوف يخسر أكثر مما يكسب.

وعندما تبين لي ذلك، لم تكن هناك جدوى من الاعتراض.. كنت قد وصلت بالفعل إلى الجناح، وكان الدكتور عزام الابن قد غادر الفندق، ولم يكن هناك من اعترض لديه، كان الجناح يتكون من ثلاث غرف وحمام مساحته ضعف مساحة الحمام في فندق هيلتون نيويورك، وهو الجناح رقم ٢١٤، وملحق به شرفة تشاهد منها منظراً جميلاً لهذه المدينة العريقة المطلة على البحر الأحمر.

لماذا يخدمني هؤلاء الناس؟

لم أشعر من قبل بمثل هذا الدافع القوي في داخلي لكي أصلي.. وقد فعلت وخررت ساجداً فوق سجادة غرفة المعيشة.

خلال المرحلتين السابقتين من حياتي كرجل زنجي يعيش في أمريكا لم أجد ما يحفزني على اعتناق اتجاهات أو أهداف مثالية، فكنت بغريزتي أتفحص تلقائيًا الأسباب والدوافع لدى أي شخص يعمل من أجلي عملا لم يكن لزاماً عليه أن يفعله. وإذا كان هذا الشخص أيضًا فإنني كنت أكتشف دائمًا دافعًا أنانيًا عنده.

لقد تابع ما نشرته الصحف الأمريكية عني، مادام أنه قد فعل ذلك، فإنه يعرف أنه ليس هناك سوى وصمة العار التي يلصقونها بي.. فمن المفروض أنني شيطان، فأنا رجل «عنصري»، «ومعاد للبيض»، وهو أبيض كما توحي بذلك كل الظواهر.. ومن المفروض أنني مجرم، وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل إن الجميع كانوا يتهمونني بأنني أستغل الدين الإسلامي كستار لأعمالي وفلسفتي الإجرامية. وحتى لو كان لديه دافع لاستغلالي، فإنه يعرف أنني قد انفصلت عن إليجا محمد وأمة الإسلام «قاعدة نفوذي» كما كانت الصحف الأمريكية تقول. أما المنظمة الوحيدة التي أنتمي إليها فلم يمض على تأسيسها سوى بضعة أسابيع، وليس لي عمل، وليس لديّ مال، ولقد اضطررت لاقتراض المال من شقيقتي لكي أصل إلى هذا المكان.

في ذلك الصباح بدأت أول مرة أعيد تقويم «الرجل الأبيض».. في ذلك الصباح بدأت أدرك أول مرة أن اصطلاح «الرجل الأبيض» ـ كما يستعمل عادة ـ لا يمثل فيه لون البشرة إلا معنى ثانويًا فقط، وأن المقصود بهذا الاصطلاح أساسًا هو المواقف والأفعال.



عبد الرحمن عزام

ولن أنسى ما حييت طعام الغداء الذي تناولته في بيت عزام. أعود إلى دفتر مذكراتي: «لا أستطيع أن أقول في نفسي: إن هؤلاء القوم رجال (بيض).. لماذا؟ إن هؤلاء الرجال يتصرفون معي كما لو كانوا إخوانا لي، فالدكتور عزام الأب يتصرف معي كما لو كان أبي.. بحديثه الأبوي المثقف.. لقد أحسست أنه أبي. وبوسعك أن تقول إنه دبلوماسي على درجة عالية من البراعة، واسع الأفق. ومعلوماته تنم على خبرة واسعة بالحياة والناس، كان ملما بالشؤون الدولية كما يلم بعض الناس بما يجري في غرفة معيشتهم»...

وعلمت في أثناء تناول الغداء أنه قد تم إشعار محكمة لجنة الحج بموضوعي في أثناء مقامي بالفندق، وأنه يتعين عليّ أن أمثل أمامها في الصباح. وقد فعلت.

القاضي يهديه كتابين

كان القاضي هو الشيخ محمد الحركان. كانت قاعة المحكمة خالية إلا مني ومن أخت هندية، كانت على المذهب البروتستانتي، ثم اعتنقت الإسلام، وكانت مثلي تسعى لأداء مناسك الحج. كانت بشرتها بنية اللون، ووجهها صغير تغطي معظمه، وسألني بعض الأسئلة التي تتعلق بإخلاصي، وقد أجبته بصدق قدر استطاعتي. ولم يكتف بإقراري مسلمًا حقيقيًا، وإنما أعطاني أيضًا كتابين أحدهما باللغة الإنجليزية والآخر بالعربية، وسجل اسمي في سجل المسلمين الصادقين، وعندما كنت أهم بالانصراف، قال لي: «آمل أن تكون داعية عظيمًا للإسلام في أمريكا». فأجبته بأنني سأشاركه هذا الرجاء، وسأعمل على تحقيقه...

منظر لا يفارق الذهن

وحملت صندلي في يدي وسرت خلف المطوف، ثم وقع بصري على الكعبة.. بناء حجري أسود ضخم وسط المسجد الحرام، كان يطوف حوله ألوف تلو ألوف من الحجاج الداعين نساءً ورجالاً، ومن كل حجم وشكل ولون وعنصر في العالم. كنت أعرف الدعاء الذي يقال عندما يرى الحاج الكعبة أول مرة: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحينا يا ربنا بالسلام، وينبغي للحاج عندما يدخل المسجد أن يقبل الكعبة(٥) إذا أمكنه ذلك. أما إذا حال الزحام بينه وبين الاقتراب منها فإنه يلمسها، وإذا لم يستطع ذلك من شدة الزحام، فعليه أن يشير إليها بيده ويكبِّر. ولم أستطع الاقتراب منها، فلم يكن بوسعي سوى التكبير.

كان شعوري وأنا في بيت الله الحرام كمن يسري في جسده خدر. وقادني مطوفي وسط زحام الحجيج الذين يتضرعون إلى ربهم، ويترنمون بالدعاء وهم يطوفون سبعة أشواط حول الكعبة. كان بعضهم قد انحنى عوده ووهن عظمه لكبر سنه.. إنه منظر ينطبع في الذهن ولا يفارقه. ورأيت حجاجًا أصابهم الوهن والضعف يحملهم أشخاص آخرون.. كانت الوجوه مفعمة بالبهجة الغامرة بإيمانها. وأكملت الشوط السابع، وصليت ركعتين ساجدًا واضعًا رأسي على الأرض. وقرأت في الركعة الأولى بسورة «قل هو الله أحد»، وفي الثانية بسورة «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون»(٦). وبينما كنت ساجدًا كان المطوف يبعد الحجاج عني حتى لا يطؤوني بأقدامهم...

ولقد عجبت بعدها كيف تبلورت في ذهني من دون وعي مني فكرة الخطاب الذي جلست أخيرا لكتابته.. ذلك التحرر من التحيز اللوني في الأوساط الدينية في العالم الإسلامي، واختفاء

التعصب العنصري من المجتمع البشري المسلم.. هذان العاملان كان تأثيرهما يتعاظم في نفسي كل يوم، ويزيدان من إقناعي بالعدول عن معتقداتي السابقة.

أمريكا في حاجة إلي الإسلام

وهاك ما كتبته... من قلبي:

«ما رأيت قط كرمًا أصيلاً، ولا روحًا غامرة من الإخوة الصادقة كتلك التي تسود هنا بين الناس من كل لون وجنس.. في هذه الأرض المقدسة العتيقة.. وطن إبراهيم ومحمد وكل أنبياء الكتب المقدسة.. لقد كنت طوال الأسبوع الماضي عاجزًا عن الكلام، ومبهورًا بما أراه حولي من كرم وسماحة خلق في كل مكان، ومن أناس من كل لون».

«لقد أنعم الله عليَّ بزيارة مكة المكرمة، وطفت بالكعبة سبعة أشواط يقودني خلالها مطوِّف شاب اسمه محمد.. وشربت من ماء زمزم.. وسعيت سبعة أشواط بين الصفا والمروة، وأديت الصلاة في منى، كما دعوت على جبل عرفات.

كان هناك عشرات الألوف من الحجاج قدموا من كل أنحاء العالم، وهم من كل الألوان ابتداء من الشقر ذوي العيون الزرقاء الى الإفريقيين ذوي البشرة السوداء.. ولكننا جميعا نؤدي المناسك نفسها، بروح من الوحدة والإخوة، ما كنت أظن - بحكم خبراتي في أمريكا - أنها يمكن أن تنشأ بين البيض وغير البيض».

«إن أمريكا في حاجة إلى أن تفهم الإسلام؛ لأنه هو الدين الوحيد الذي يمكن أن يمحو المشكلة العنصرية من مجتمعها.. لقد تقابلت خلال رحلاتي في العالم الإسلامي مع أناس يعدونهم في أمريكا من «البيض»، وتحدثت معهم.. بل تناولت الطعام معهم.. ولكن النزعة «البيضاء» محاها من أذهانهم دين الإسلام، وما شهدت قط من قبل أخوة خالصة وصادقة كتلك الأخوة التي يمارسها الناس هنا من كل جنس بغض النظر عن لون بشرتهم»...

«إنني طوال الأيام الأحد عشر الماضية التي أمضيتها هنا في العالم الإسلامي، كنت آكل مع إخواني المسلمين من الطبق نفسه، وأشرب معهم من الكأس نفسها، وأنام معهم على السرير نفسه (أو على السجادة نفسها)، بينما نصلي كلنا لإله واحد، مع إخوة مسلمين لهم أعين زرقاء كأصفى ما تكون الزرقة، ولهم شعور شقراء شديدة الشقرة، ولهم بشرة بيضاء كأنصع ما يكون البياض.. ولكنني كنت ألمس في أقوال المسلمين البيض وفي أفعالهم وفي سلوكهم الإخلاص نفسه الذي ألمسه بين المسلمين السود من نيجيريا والسودان وغانا»...

رحلته إلى الحج جعلته يعيد تقويم موقفه من الرجل الأبيض

شخير بلغة واحدة !!

غير أن العادات الشائعة في العالم الإسلامي لم تعد تبدو غريبة في نظري.. فقد أصبحت يداي الآن تقتلعان الطعام بيسر وسهولة من الإناء المشترك الذي أتناول فيه الطعام مع الإخوة المسلمين، وأصبحت أشرب بلا تردد من الكأس نفسها مثلما يشرب الآخرون، وأغتسل من الإبريق الصغير نفسه، وأنام مع ثمانية أو عشرة آخرين على حصير في العراء. وأذكر ليلة المبيت بمزدلفة حيث لم يكن يظلنا شيء سوى السماء، فقد اضطجعت يقظان وسط الإخوة المسلمين النائمين، واكتشفت أن الحجاج من كل بلد، ومن كل لون، ومن كل طبقة ومنزلة، سواء كبار المسؤولين أو الفقراء المعدمين.. كلهم ينطلق شخيرهم بلغة واحدة.

مقابلة مع الأمير فيصل

ونالني شرف رفيع كنت قد دعوت الله أن أحظى به.. فقد دعاني صاحب السمو الملكي الأمير فيصل لمقابلة شخصية مع سموه.

عندما دخلت الغرفة نهض الأمير فيصل الوسيم، طويل القامة، وخرج من خلف مكتبه، ولن أنسى ما حييت الفكرة التي خطرت ببالي في تلك اللحظة.. فها هو ذا أمامي يقف أحد أهم الشخصيات العالمية، ومع ذلك يلمس المرء بوضوح تواضعه الصادق مع مهابته ومكانته الرفيعة. وأشار إليَّ بالجلوس على مقعد مقابل مقعده.

وكان يترجم بيننا محمد عبدالعزيز ماجد نائب مدير المراسم، وهو مصري الأصل، وعندما بدأت أتلعثم بحثًا عن كلمات أحاول أن أعبر بها عن امتناني للشرف الكبير الذي منحني إياه عندما جعلني ضيفًا على الدولة، أومأ الأمير فيصل متأففا، وقال: إن ذلك لا يعدو كرم الضيافة الواجب من مسلم لمسلم، وإنني مسلم غير عادي؛ لأنني قادم من أمريكا. وطلب مني أن أعرف أولاً وقبل كل شيء أن كل ما فعله كان مدعاة لسروره، وأنه ليس هناك أي دافع آخر لذلك.

الهوامش:

١- خالد يحيى بلانكشب، رحلة مالكوم إكس من أوماها إلى مكة المكرمة، المجال، العدد ٢٦٧، يونيو/حزيران ١٩٩٣م، ص ص٢٣ - ٢٧.

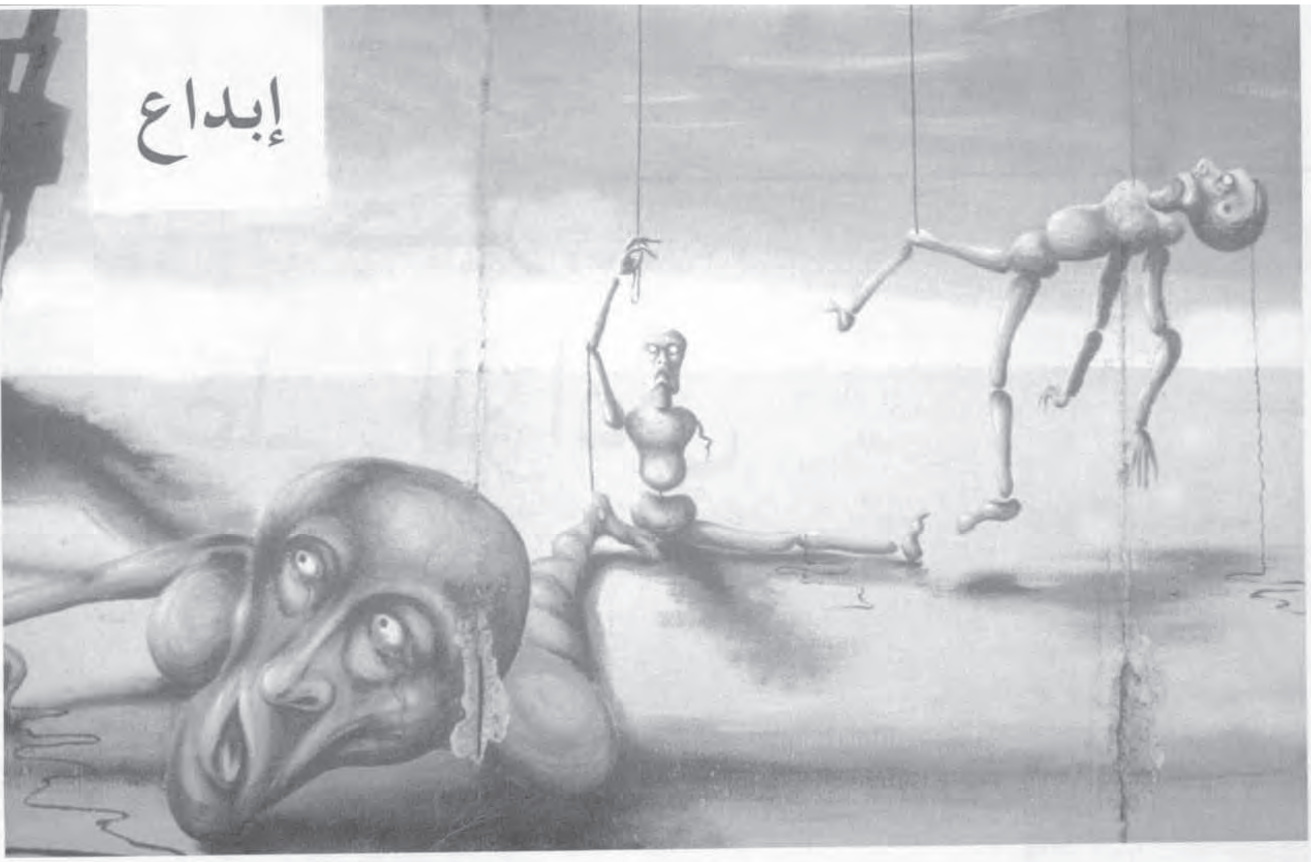
٢- المرجع السابق

٣- THE BLACK MUSLIMS IN AMERICA. P. 291.

٤- هو الدكتور محمود يوسف الشواربي ، من علماء المسلمين البارزين، وحاصل على الدكتوراه من جامعة لندن، وكان يحاضر في الإسلام، كما عمل مستشاراً للأمم المتحدة، وكان من يعتنق الإسلام في أمريكا لا يحج إلا بموافقة خطية منه.

٥- يقصد الحجر الأسود

٦- لعله أخطأ في الترتيب، لأنه من السنة القراءة بسورة (الكافرون) في الركعة الأولى، وبسورة الأخلاص في الثانية.



الموت

عبدالكريم الرازحي

ـ اتركوا الشرفةَ مفتوحةً ـ
واتركوني لوحدي
لوحش الضبابْ

خذوا كل شيءٍ
دعوا الريحَ تدخلُ
والروحَ تخرجُ من أي بابْ

أطفئوا الكهرباء
واشعلوا شمعةً عند رأسي
وهاتوا الكتابْ

إنني منهك
مزّقتني الحروبُ
وهذي الحرابْ
إنَّ لي حفرةً

تسمى مجازًا: بلادًا
وأسميتها: موطن الإغترابْ

إن هذي البلادَ
ليست بلادي
وهذا ـ الحصان ـ
ليس جوادي
وهذا النشيد
نشيدُ الخرابْ

مضى العمرُ
لم يبق لي من شبابي
غير السراب
وهذا العذابْ

هو الموتُ

يصعدُ من حفرةٍ
ويهبطُ مُتَّشحًا بالترابْ

هو الآن
يقرعُ بابي
ويُمسكني من ثيابي
وينزعُ عني الثيابْ

أيها الموت يا سيدي
أنت مثلي وحيدٌ
ومثلي حزينٌ
ومثلي تعاني من الإكتئابْ

أنت تشبهني يا صديقي
وأنت الكبيرُ
وأكبرُ مني
فاحمني، من سُعارِ القطيعِ
وحمَّى الكلابْ

أيها الموت يا صاحبي
قف إلى جانبي
ضُمَّني يا رفيقي لحزبِ الترابْ

شِعر

حجر على الوادي



إلى صديقي المسافر بعيدا

عز الدين سليمان سليمان

يسقي سهولَ الأمسِ ماءُ جفائهِ
ويظلُّ في قلبي نداءُ دمائهِ
تاهتْ غيومي في الزمانِ، وليتها
ظلَّتْ ترشُّ الغيثَ في بيدائهِ
وإذا خُطايَ تعثَّرتْ يهفو له
قلبي، ويسكنُ في حروف ندائهِ
خمدتْ مواقدُ أمسنا، فمن الذي
منَّا سقى جمرَ الوفا من مائهِ؟
قلبي له عبدٌ، ويشرقُ بغضُهُ
وبكيتُ إشفاقًا على بغضائهِ
أرجو الزمانَ، وكم محبٍّ ردَّهُ
هذا الزمانُ مكفَّنًا برجائهِ!!
نسيَ الربيع دروبَه، وجنى على
أزهاره، وقسا على أندائهِ
ومشى يلمُّ خيامَه، أبناؤه الـ...
أطيارُ قد ثارتْ على أبنائهِ

نسيَ الهوى أشياءَه، كم مرَّةٍ
علَّقْتُ أجفاني على أشيائهِ
كم أنَّةٍ راحَ الإباءُ يضمُّها
مازال يعمر خافقي بإبائهِ
هذي الحروفُ الراعشاتُ دموعُه
ويسرُّ ملتاعًا دموعَ بكائهِ
ويرفُّ للنعمى فتنفرُ من يدي
ويعودُ مهزومًا لحضنِ شقائهِ
يبكي على طللٍ خرابٍ غارقٍ
في صمتِه، مستوحشٍ بعرائهِ
ذاك الزمانُ السمحُ كم أبكي له
كالطفل أمسكه بفضلِ ردائهِ
حطَّمتَ كأسَ الأنس في قلبي، أما
تدري؟ فأنتَ العمرَ من ندمائهِ



حَجَرٌ على الوادي سهرنا عنده
مازال يسمعني حزين غنائِهِ
والملتقي الريفيُّ يعبق بالشذا
وتموجُ نعمى البوح في أفيائِهِ
وهتافُ شحرورٍ تعلَّقَ جنحُهُ
بسياجنا ما زلتَ رحبَ فضائِهِ
قلبي زرعتَ الحزنَ فيه مواسمًا
وسقيتَها، فالحزنُ من أسمائه
هل يكسرُ الزمنُ الحرونُ قناته
ويرقُّ؟ أمضي العمرَ في إرضائِهِ
أسعى إليه كما تلهَّفَ تائهٌ
للدرب، ما أشقى حنينَ التائِهِ!!
أسعى إليه، كما تلهَّفَ عاشقٌ
خفقتْ جوانُحُه إلى حسنائِهِ

وعلى رمال القلب تغفو موجةٌ
وتفيق ثانيةً على أشلائِهِ
عيناي عالقتانِ في أطيافه
فكأنَّني أصبحتُ من رقبائِهِ
عينايَ لو فرشَ الظلامُ عليهما
ما زلتُ أستهدي ببعض ضيائِهِ
بالأمسِ نبعُ وفائه متدفِّق
عمري له، قد غاضَ نبعُ وفائِهِ
أمشي إليه فأيُّ حلمٍ كاذبٍ
ما زلتُ أغرق في ندى آلائِهِ
أمشي وتدفعني الخطا للقائه
وأجرُّ أقدامي لغير لقائِهِ
بالأمس كنتُ مغرِّدًا في عرسه
واليومَ جئتُ مواسيًا بعزائِهِ

قَسَمُ الولاء

أحمد محمد المعتوق

أمفارق يا حبُّ! تخنقني العبارة أن أقول هو الجفاءْ!
أو أن أقول سئمتَ من قربي وشئتَ لي المرارة والشقاءْ
وأقول غيّرك الزمان وعفتني، ونسيت أيام الصفاءْ
حاشاك، لم تبد الملالة منذ لقيانا ولا نضب الإخاءْ
لكنني - أسفًا - أراك تصدُّ عني كاشحًا هذا المساءْ
أدنو إليك فتعبس الدنيا بوجهك، أو تدمدم في استياءْ
وأهبُّ نحوك مثلما الظمآن مهجته تطاير كالهباءْ
وأضجّ بين يديك يا لهفي، صدٍ يسعى إليك ألا ارتواءْ!
وأظل ضارعة إليك ألوذ ترهقني الندامة والبكاءْ
فتشيح وجهك ثم تنأى مثلما ينأى الصحيح عن الوباءْ
وتلمُّ في صمت خطاك وأضلعي تهفو وتعثر بالرداءْ

****

لا لن أصدِّق، كل شيء ها هنا يُنعى ويؤذن بانقضاء
ماذا أقول ومهجتي الحرّى تذوب على أناملك اصطلاءْ
أين الوعودُ وكنت قد منيتني وأريتني طرق السماءْ؟
يومًا حلفتَ بأن تصوغ لي النجوم قلادة أنى أشاءْ
وحلفتَ بالنوار يطرب إذ يُقبِّلُ راحتيّ وبازدهاءْ
يتكسر الياقوت في وَهَج على كأسي فيبتسم الإناءْ
أنّا نسير معًا كما سِرّيْن مفتونينِ ذابا في الخفاءْ
ونطير خلف السحب نغزل عشنا من كل لون في الفضاءْ
ونظل عُصفورينِ جوالينِ نحسو الضوء والشمس الإناءْ
أفلستَ أنتَ فتى الهوى يشدو فؤادك بالمحبة والوفاءْ؟!
أفلست أنت أضأت لي دربي وصغت بخاطري نغم الرجاءْ؟!
وأريتني غرفًا مهفهفة الحواشي مترعات بالهناءْ
أنسيتَ إذ كنا كما شئنا نصوغ الكون كيف الحب شاءْ
ونغيب في الآفاق حيث نمد صدرًا وارفًا يزهو علاء



وتطيـر من فـرح حكايانا، وضـحكتنا تلألأ في انتـشـاء
ونسـير خطوي فـوق خطوك والدنا تشـدو وتصدح بـالغناءْ
في كل شـبر تلتقينا نجمـة سمـراء، تحضننا احتـفاءْ
أنسـيتَ إذ تدعـو فـيـسـعى قلبيَ النشوان يـهتـف بالولاءْ
وأذوب بين يديك، تسـحرني ويـهزج فـي دمي لحن الدعـاءْ
نغم لروحي نايك المبحـوح مـا أحـلاه، مـا أحلى النداءْ

***

سرنـا وركن الشمس كـان محطّنا ورواقـهـا كـان الخـبـاءْ
لا نشـتكي أبدًا عناء أو شـجى، من أين للدنيـا العنّاءْ؟
حتى جفوت فـراحت الأفلاك يا ويحي تسير إلى الوراءْ
عُدْ يا حبيبي كيف تتركني وترحل ليس عندي من عـزاءْ؟
عن مـهجتي ورؤى مناي ومَنْ يشدّ أواصري بعُرا البقـاءْ
أنت الوجـود وجـوديَ الأبديّ يا قـدري وهـجـرك لي فناءْ
قلبي يعانق صدرك الحاني بغيب السـر يلتمس الرضـاءْ
ويرف حـولك في حنين للتـصـافي إذ أكـابر فـي إباءْ
أهذي وقـد طاش اللسـان حـمـاقة وتملكتني الكبـرياءْ
وأعود نادمة كمن صعقت يؤنبني ضميري في حيـاءْ
ماذا جرى! فقأت أميمة عينها! رحماك! أم حمّ القضاء؟
ربي شـهـيـد أنني مما هذرت ومـا هذيت بـه براءْ
وهو العليم بأننا مما جنى قـدر علينا أبرياءْ
كنا إذا عـصـفت رياح الليل ننكرها ونـهـزأ بـالفناء
وإذا دجا الأفق ابتسمنا فاستحال ظلامه الأعمى ضياء
ملكان زنبـقـة الضحى تروى بقلبـينا وتنضح بالنقـاءْ
فـتعـال ننسى جـرحنا هونًا علينا أن نظل على الجفـاءْ
أهلاً تعـال وخـذ فؤادي بين كـفـيك اسقـه كـأس الهناءْ
سأذوب في دفء المحبة بين جنحيك افتتانًا وانتشاء
خـذني إليك وضـمني، الله مـا أحلى ظلالكَ يا لقـاءْ!!



لا أصدقاء على العشاء

الكاتب البريطاني: جورج ثورنلي

ترجمة: نجمة موسى

جاء السيد ألان لوفت ليسكن في منزل السيدة فيني. ولم تكن هذه السيدة امرأة لطيفة، وهو يعلم ذلك جيداً، ولكنه لم يتمكن من إيجاد أية غرفة أخرى في المدينة. فكل الغرف الأخرى كانت مشغولة.

لم يكن يحب السيدة فيني، لكنه كان مسروراً؛ لأنه وجد سريراً وطعاماً.

السيدة فيني: لا تضع قدمك على كراسيّ أيها الشاب.. حافظ على نظافة الكرسي.

- لن أضع قدمي على الكرسي.. أجاب بهدوء، لكنه نظر إلى روفر، كلب السيدة فيني الذي ينام دائماً على أفضل الكراسي.

- لا تتأخر في الخارج ليلاً.. ولا أريد الكثير من الضجيج عندما تعود متأخراً. أريد أن أنام.

- سأبقى في البيت كل ليلة.. هل يمكن أن أدعو صديقاً إلى العشاء أحياناً؟

- لا. لا تحضر أياً من أصدقائك إلى هنا. لا أريد جمعاً من الرجال في بيتي. وإذا أردت أن تتناول العشاء، فعليك أن تأتي في الوقت المناسب، إذا عدت متأخراً، فلن تحصل على عشائك.

- لن أتأخر أبداً.. ولكن روفر يحصل على عشائه عندما يأتي، وفي بعض الأحيان يأتي متأخراً جدا في الليل.

- يجب أن تدفع لي عند بداية كل شهر.. وليس عند نهايته. ليس لديّ الكثير من المال، يلزمني شراء الكثير من الطعام لرجل ضخم مثلك.

دفع ألان بعض النقود في الحال.

عاش هناك حوالي شهر. لم يكن سعيداً، لم تقدم له الكثير من الطعام، ولم ير أصدقاءه كثيراً.

في صباح أحد الأيام كان يحكي مشاكله لصديقه روي.

قال له روي: ولكن يجب ألا تدع أحداً يحدثك بهذه الطريقة.

- وماذا يمكنني أن أفعل؟ يجب أن أبقى هناك. فإذا غضبت، قد تطردني. أين سأذهب عندها؟

- أعرف امرأة عندها منزل كبير.. إنه بعيد عن مركز المدينة، ولكنها أجّرت غرفتين لإحدى الفتيات. والفتاة ستغادر عند نهاية الشهر. ربما تتمكن من استئجار هاتين الغرفتين في الشهر التالي. دعنا نذهب ونسألها.

شكره ألان، وذهب لرؤية المرأة. كان اسمها السيدة كول.

السيدة كول: نعم، لقد غادرت الفتاة.. ربما غادرت كي تعيش في لندن.

- هل يمكنني أن آتي وأسكن هنا الشهر القادم؟

- نعم إذا لم يأت أحد ويستلم الغرفتين قبل ذلك.

شكرها ألان وغادر الرجلان.

قال روي: عندما تعود إلى البيت الليلة تذكر أن تتحدث كرجل. إذا غادرت غرفتك غداً، يمكنك أن تأتي لتسكن معي ثلاثة أيام. عندها يمكنك أن تذهب إلى السيدة كول.

ذهب ألان إلى الغرفة متأخراً، ولم يكن هنالك عشاء على المائدة.

السيدة فيني: ليس لك عشاء.

تذكر ألان كلمات روي: بل هنالك.

قال: اذهبي أعديه في الحال. إنني أدفع مقابل عشائي وسأحصل على عشائي الآن! في الحال، من فضلك!.

لم تصدق السيدة فيني أذنيها.

- هل تتكلم معي، أيها الشاب.

- نعم اذهبي، وأحضري عشائي. وبسرعة.

- يجب أن تغادر منزلي غدا.. لا أسمح لأي كائن أن يكلمني بهذه الطريقة.

- سأكلمك كما تكلمينني.. سأكون مسروراً لمغادرتي منزلك غدا. لكنني الليلة هنا، وأريد عشائي أحضريه.

- أين ستسكن؟

- وجدت مكانا أفضل من هذا. أحضري عشائي، من فضلك، ولا تتكلمي كثيراً.

أحضرت العشاء، ونظر إلى الطعام.

- أريد أكثر من هذا.. أجلبي المزيد.

- آخذه خارج المنزل.

فتح الباب الأمامي، و وضع روفر خارجاً.

- هذه الليلة أريد أفضل كرسي، وسأحصل عليه. ولا تدعيني (أيها الشاب) اسمي السيد لوفت.

- نعم سيد لوفت.

- غدا صباحاً.. أريد سيارة أجرة، يجب أن تخرجي وتتصلي من أجل سيارة.

جلس على أفضل الكراسي، وأخذ كتاباً.

- لا أريد أن تغادر سيد لوفت.. ابق من فضلك، يمكنك أن تتصرف كما تريد إذا بقيت هنا. أنا امرأة فقيرة، وأنت تدفع جيدا.

- لا أريد البقاء هنا. لست ولداً؛ أنا رجل. أنا أحيا حياة هادئة، ولكنك تتحدثين دائما كشرطي غاضب.. هذا هو البيت الوحيد الذي لديّ. إذا بقيت، فسآتي كل ليلة متأخراً كما أريد. وسأجلب كل أصدقائي إلى هنا. وذلك الكلب يجب ألا يدخل أبدا الغرفة التي أكون فيها، تذكري إذا دخل، سأغادر في الحال.

- نعم سيد لوفت.. هل ستغادر؟

- سأخبرك غدا. سأفكر في الأمر.

في اليوم التالي، قبل أن يخرج، تلقى رسالة من السيدة كول، فتحها بهدوء، كانت السيدة فيني تنظر إلى وجهه عندما كان يقرؤها:

«عزيزي السيد لوفت

أتيت إلى منزلي لتسأل عن الغرفتين؛ لكن الفتاة التي تسكنها لن تغادر؛ لذلك لا يمكنني أن أعطيكهما الشهر القادم. أنا آسفة.

المخلصة: آدا كول».

وضع الرسالة جانباً. لم يرها للسيدة فيني، لكنها أرادت أن تقرأ الرسالة. وهو يعرف ذلك تماماً.

- هذه رسالة من أحد أصدقائي.. يريد أن أتحدث إليه، سأدعوه إلى العشاء الليلة؛ لذلك لا يمكنني أن أغادر منزلك، لا يمكنني أن أغادر الآن. ولكن تذكري! يجب أن يكون العشاء جيداً، وإذا تأخرنا، فأبقيه ساخنا إلى حين قدومنا.. شيء آخر، سيدة فيني. العشاء الذي قدمته لي كان قليلاً.. يجب أن يكون أكبر، ومن فضلك ليس هذه الليلة فقط، ولكن عندما أتناول العشاء وحدي. تذكري المزيد من الطعام، سيدة فيني!.

- نعم، سيد لوفت.

وذهب ألان كي يدعو روي إلى العشاء.



جلبت له كمية إضافية قليلة، لكنه أنهى طعامه بسرعة، وصل روي عندما كان على وشك الانتهاء. بدأت السيدة فيني تعد بعض الطعام للكلب.

قال ألان: اتركي ذلك الكلب.. اجلبي لي كأساً من الماء من فضلك.

لم تفهم السيدة فيني هذا التغيير من جهة ألان. جلبت الماء، وخرج روفر من الغرفة من دون طعامه.

دخل ألان الغرفة الأخرى، ولم يكن روفر على أفضل الكراسي، أخذ الكلب بين ذراعيه، وابتدأ روفر في إثارة الضوضاء.

ركضت السيدة فيني إلى الغرفة. قالت له بغضب: ماذا تفعل للكلب، أيها الشاب؟

أبي..
وشمسي الكبيرة

فريد محمد معوض

سنوات عدة، وأبي ينتقل بين دارنا وحوض الدنيبة، ولا أحد يحس به، حتى حفظ الطريق والطرق المتفرعة عنه، ويستطيع أن يسير فوقه دون الاعتماد على عينيه اللتين بدأتا في الأفول.

كيف ارتضى لنفسه أن يركب الحمار في صحبة اثنين من البشر - يمشيان على الأرض - واحد عن اليمين، والآخر عن اليسار؟.

ذات مرة قالت أمي لأبي: نشتري الحمار يحملك، ويحمل عنك الفأس، فقال لها: ثمن الحمار نكسو به الأولاد.

كيف هانت الفأس على أبي؟ وكيف يحملها الذي هو عن اليسار بينما يميل أبي ناحية الذي عن اليمين؟ ثم ما الذي أتى بأبي الآن؟ وهو الذي اعتاد العودة عند غروب الشمس. تروح الشمس، ويأتي أبي، هكذا دائمًا منذ وعيت الدنيا، وها نحن في وضح النهار والشمس تلمع على جبهة أبي بينما تزاوت عن وجوههم.

اقترب الموكب من الدار، رمى الرجل الفأس، وسمعوا صوت ارتطامها بالأرض، تجمّع الناس حول أبي، حملوه، أنزلوه من فوق الحمار، لم يتكلم، دخلوا به الدار، حنوا رؤوسهم لحظة مرورهم من الباب، دخل أبي الدار، أول مرة دون أن يتنحنح، أو حتى يطرح جلبابه على جرة الماء، أو يقول شيئًا، أقعدوه حين جاءت أمي من الداخل مشمرة اليدين، همت أن تصرخ، فوضع خالي يده في فمها، دارت تبحث عن صوابها، ثم رفعت رأسها وهي تقترب من أبي، ومن سقف بيتنا المكشوف مسحت السماء بعينيها، وارتعش بدنها وهي تمسح يديها المبللتين، وصار وجهها مثل وجه أبي، وقالت: يارب.

وقفت أرقب أبي والناس حوله مجتمعون، كنت أريد أن أقول لهم: اذهبوا. أبي لا يحب أن تقفوا هكذا، أبي يقول لي دائمًا: كن قويًا أمام الناس، وقال لي أيضًا: أمسك القلم كما أمسك الفأس بإخلاص.. لماذا لا يقول هكذا الآن؟.. إنه ينظر إليّ، ولا يتكلم، ولا يبتسم، وعلى جبهته العريضة تلاحمت الخطوط الملتوية، عادت أمي مضطربة، ونادت عليّ، وانتحت بي جانبًا، همست في أذني:

- تعرف دار فلفلة؟

ليست المرة الأولى التي سمعت فيها هذا السؤال، أعرف سببه وما يأتي بعده، سأذهب إلى فلفلة المقاول من أجل النقود، زملاء أبي يتقاضون منه عن الأسبوع، أما أبي فيجر اليوم بيومه، وغالبا يقبض مقدمًا يومًا أو يومين أو أسبوعًا، هكذا منذ وعيت الدنيا، وأبي يرسلني لأطلب منه نقودًا، أعرف كيف يتجهّم؟ وكيف ينهرني؟ ولا سيما إذا كان يتناول طعامه، وكيف يلعن أبي إن اقتضى الحال؟ وكيف أهبط حزينًا الدرجات القليلة من السلم بينما تلاحقني لعناته للزمن، وللذي نصّبه مقاولاً كل هذا على الرغم من الكلام الحلو الذي أطالعه به لحظة دخولي عليه، والذي لقنه أبي لي، مع أن أبي يعمل معه منذ سنين، وهو الذي كان يجلب له الأنفار، وكثر الكلام حول أبي عن البصل الجاف والتعويذه وصلاة النبي؛ تبدل لوني وتبلد، أدركتني أمي بصوت فيه رجاء لما وجدتني سكت:

- لأجل خاطري!

قطع خالي حديثنا بعد أن سمع:

- أنت ناسية.. فلفلة مازال في الغيظ.

ثم أردف:

- أروح أنادي الدكتور.

كانت أمي قد حارت بين وصفتين: الملح والماء والسكر والماء، وعين أبي متعلقة بي، ينظر إليّ، وأختي الصغيرة تقف قرب الباب، لا تبكي ولا تضحك كعادتها..

عادت أمي بكوب الماء، وبيدها الأخرى حفنة من الملح، ووجهها مبلل.. كثيرًا ما حلم أبي بقطعة أرض يزرعها - جنة الدنيا - هكذا يصفها لو كانت ملكًا لله.. سعل أبي فأدار الجالسون وجوههم، وانتفض الذي بجانبه، تناثرت على ثيابه قطرات من الدم، وبقية التصقت بشفتيه، قال أحد الجالسين:

- لو يشرب من الصبار يبقى مثل الحصان.

تقول أمي إنها وأبي يشربان المر كل يوم، إذن لماذا يمرض أبي؟

اقتربت أمي لتمسح الدم العالق بهما، أمسكها أبي من جلبابها، فردته والدموع تتوالى على وجنتيها، دلق أبي في حجرها دمًا.

يمرض أبي كثيرًا في الشتاء، وهذه الوعكة الأولى في صيف، كان يدخل المستشفى ويبقى بها أيامًا، ثم يفر منها إلينا، ويقول:

- أكره المستشفى يا أولاد.

ويعود إلى المقاول ثانية. في العام الماضي غاب كثيرًا في المستشفى، تمنيت لو أراه لكن أمي رفضت، وقالت إنهم يمنعون زيارات الصغار، وإنها لن تذهب إليه قبل أسبوع، وعملت أمي مع المقاول يومًا واحدًا، وعادت تبكي آخر النهار، عادت تسب المقاول وتلعن أباه، وقالت: إنها لن تذهب معه ثانية، وبالليل جاء إلينا. إنه يريد أن يشرب الشاي، ثم أدخل يده في جيبه، أخرج نقودًا - أكثر مما كان يعطيني بكثير، أعطاها لأمي، لكن أمي بصقت على الأرض، واحمرّ وجهها، دفعت يده وطردته من الدار، سألتها: لماذا لم تأخذي النقود؟ فربتت عليّ وبكت.

وساءت حالتنا، وساءت حالة أبي، لكنه كان يعرف الطريق، فبصم لهم على ورقة كتب عليها: أخرج تحت مسؤوليتي.. كان قد عاد إلينا بلهفة، أخذني بين يديه، قبلني، قال لأمي - وهو يشير إلى الفضاء - إنه سعيد، وقال: إنه سيبعثر عظامه في الأرض. من يومها ما تخلف أبي يومًا عن المقاول، بل كل من يراه يقول: إنه بالعمل أحسن حالاً، فقد استدار وجهه، وصار أبيض مثل الحليب.

أبي.. وشمس الكبيرة



صبوا الماء فوق رأس أبي، وغسلوه بالصابون، ونزعوا عنه الصديري الذي امتلأ بالدم، ودخلت إحدى الجارات بكوب من السكر والليمون، وصدر أبي يعلو ويهبط، ونقطة من الماء ترقد في الحفرة الراقدة أسفل رقبته، يمنع نزولها جذع من عظامه يرقد أسفل الحفرة، وترتعش رقبته وهو يبلع. بينما يرقد - في سكينة اسم أبي المحفور على ذراعه واسم البلد ويوم ولد. كنت وأنا أتعلم كتابة اسمي كاملاً أراه وقد شمّر عن ذراعه، ولا يمل حتى أنتهي.. دخل خالي يحمل حقيبة سمراء وخلفه دخل طبيب الوحدة الصحية.. يحلم أبي أن أكون طبيباً - أقتل كل أمراض الدنيا في البطون والصدور... «البلهارسيا والسخونية والكحة والحزن الكامن في كل العيون».. ألملم عظام المتعبين، بينما تحلم أمي أن أكون طياراً كالذي يركب طائرة الرش، يرش القطن فيموت الدود، وتموت الحشرات، ويموت الناموس، تقول أمي إنه بطل، وسألني الأستاذ ماذا أحلم أن أكون؟

قلت أحلم أن أكون طبيباً كي أقتل مرض أبي، وأكون طياراً مثلما تحب أمي. ضحك وهو ينظر إلى الأستاذة التي تجلس بجانبه، وقال:

- وأنا أحلم أن تحضر القلم الرصاص.

فضحك التلاميذ، وضحكت الأستاذة. وسأل الطبيب أمي عن البداية فأحضرت له أوراقاً صفراء وورقة من البلاستيك مرسوماً عليها رئة واختفت الأخرى - كما يقولون، وأحضرت له علب الدواء الفارغة، سعلت وهي تقول: ربنا يخليك.

تأمل وجه أمي فأدارت أمي وجهها، ثم أدار وجهه ناحية أبي، ثم نظر إليّ، وإلى سقف الحجرة.. كان الجميع يرقبون الطبيب، وأبي ينظر في صمت، يمسح بعينيه طوله الفارع، ورأيت امرأتين تتغامزان وأخرى تنظر إليّ وتمصمص شفتيها، وكان الطبيب كلما مشى بالحجرة علا صوت حذائه اللامع، بعد ما مسح الحجرة بعينيه صرخ فجأة:

- ليس للحجرة نوافذ!! ثم ما هذا الدخان؟ الحجرة عتمة في عز النهار.

ثم اقترب مني. حتى أنت..؟

منذ متى يكح الولد؟

قالت أمي: منذ أيام.

لماذا نكح؟ أبي يحكي لي أنه كان قويا، كان يعمل «مجعولية» رجلين، ولم يكن يعطيه المقاول أجرين، كان يزيده بمقدار ربع أجرة، تقدم خالي وقال: أقلقتنا يا دكتور. همس الطبيب في أذن خالي، ثم نظر إليّ وهمس ثانية، فسحب خالي أختي من حجر أبي، قالت أمي لخالي: خير يا أخويا؟

رد خالي: لابد أن يذهب إلى المستشفى يا سعدية.

انتحت بخالي جانباً، وأمسكت أنا جلبابها، ولاحظت أن الطرحة بلون السقف وبها ثقوب، وتمتمت شفتا أبي، وتحشرج صوت أمي. «منين»؟

رد خالي بسرعة وهو يكز على أسنانه:

قلت لك: تنازلي عن حقك، وخذي ما تريدين.

ثم أردف خالي:

- سوف يجرون فحصاً عليك، وكذا الأولاد من باب الاطمئنان.

سكتت أمي قليلاً، ثم أومأت بالموافقة، تنهد خالي مبتسماً، وانصرف مع الطبيب الذي قال لأمي أن تذبح لأبي شيئاً، ورأيت أبي ما يزال مستنداً إلى الحائط، وانفضّ الجميع من حوله فيما عدا أختي التي عادت لتلعب بجانبه، وأبي يتابعني تارة ويتابعها تارة أخرى، أتت أمي بالطعام، جلست إلى جوار أبي، ناولته معلقة ثم معلقة وقالت.. باسم الله. وبلع أبي وأكل قطعة من الديك الصغير، وأشار لنا أن نأكل الباقي، خطفت أختي المتحفزة قطعة والتهمتها فابتسم أبي وناولها أخرى، وأكلت أنا الجناحين، وقال:

- أنام يا سعدية.

بعد ساعة تقلب أبي وسألته أمي عن الحال فقال:

- خيريا سعدية.

بالليل انزلقت أمي بجواره، وهمست في أذنه سائلة، وقال:

- الحمد لله يا سعدية.

وفيما كنت نائماً سمعت صوت أمي، وهي تتوسل:

- لا.. ليس مهماً يا أبا محمد.

وأبي يدفعها غير عابئ بكلامها، وعندما فتحت عيني لأرى الصبح، قبلني أبي، وقبل أختي ودعا لأخي الجندي، وقال لأمي التي حاولت منعه من الخروج:

- استهدي بالله يا سعدية.

وسحب الفأس، وحنى رأسه لحظة مروره من الباب وراح.

ضياع

حميد محمد الحاج



الريح تعصف من حولي وأنا أسير في الشارع متدثرًا بمعطفي السميك، لا أشعر بالبرد ولا بالدفء، كل ما أشعر به هو أنني نسيت شيئًا أو فقدت شيئًا، أفتش جيوبي للمرة العاشرة، وأتفقد المحفظة، كل شيء في مكانه، لكني لا أستطيع التغلب على مشاعري كما لا أستطيع تفسيرًا لها. أرى صديقي على الطرف المقابل من الشارع، فأشير إليه ملوّحًا بيدي، لا يعيرني أدنى انتباه. أنا متأكد أنه رآني فلماذا لم يرد تحيتي؟ لا أعرف، ولست قادرًا على التفكير بذلك؛ لأن كل حواسي مشغولة بالأمر الذي فقدته، ولا أدري ما هيّته.

أمر أمام محل ألبسة فيستوقفني، يجب أن أكون أنيقًا، أنظر إلى المرآة فلا أرى نفسي، أتعجب أين أنا؟ أهزّ يدي أمام المرآة ولا أرى سوى كمّ المعطف، أحرك فلا يبين غير القبعة، أما أنا فلا وجود لي على الإطلاق.

أدخل المحل لأسأل صاحبه عن قصة هذه المرآة العجيبة، أكلمه فلا يرد عليّ، أحاول الاستفسار من أي شخص تلمحه عيني، ولكن عبثًا، لابد أنني ضيّعت نفسي. أحاول التذكّر.. أين كنتُ عندما فقدتها؟ كنت في البيت حيث رأيت ابني المريض وزوجتي جالسة بقربه تنتحب غير أني لم أتحدث إليهما، فربما كنت ضائعًا من قبل.

الساعة الآن الثانية عشرة ولم يتبق على موعد المحاكمة سوى ساعة واحدة.. يا إلهي عليّ أن أجد نفسي بسرعة وإلا فإني سأفقد ولدي المريض، فأنا لا أملك ثمنًا لعلاجه. أخاف، أفتش، أبحث في كل جانب من جوانب الشارع، أسأل ولا جواب، أرى محلاً صغيرًا كُتبَ عليه (مكتب النفوس). ربما أجد نفسي ههنا. أنزل درجات السلم حتى أصل إلى الباب. يستقبلني رجل أنيق ويطلب إليّ التفضّل بالدخول.. الحمد لله، هذا أول شخص يشعر بوجودي منذ ضياعي. الأمور تتحسن إذًا. يبتسم الرجل الأنيق مظهرًا أسنانه المدببة الناصعة كالثلج، ويقول لي: ما نوع النفس التي تطلبها؟ اطلب ولا تخشَ شيئًا، كله متوافر عندنا، ولكل ثمن. أتعجب من السؤال وأجيب: أريد نفسي ولا أريد شيئًا آخر. يقول الرجل: حسنًا، حسنًا. اشرح لي ما هي قضيتك وأنا أتفهّم الوضع؟ نعم.. تريد أن تدلي بالشهادة، وأعطوك مقابل ذلك مئة ألف. فهمتُ سأعطيك بدل ضائع ريثما تجد نفسك. خذ هذه النفس فإنها تليق بك ولكن.. تكلفك خمسين ألفًا. ترددت، احترت، خرجت من المحل راكضًا وأنا ألهث من التعب والفزع. لم أكن أعلم أن النفوس الوضيعة غالية بهذا الشكل.. المهم أن ألحق بالمحاكمة، ثم ألحق بولدي المريض.

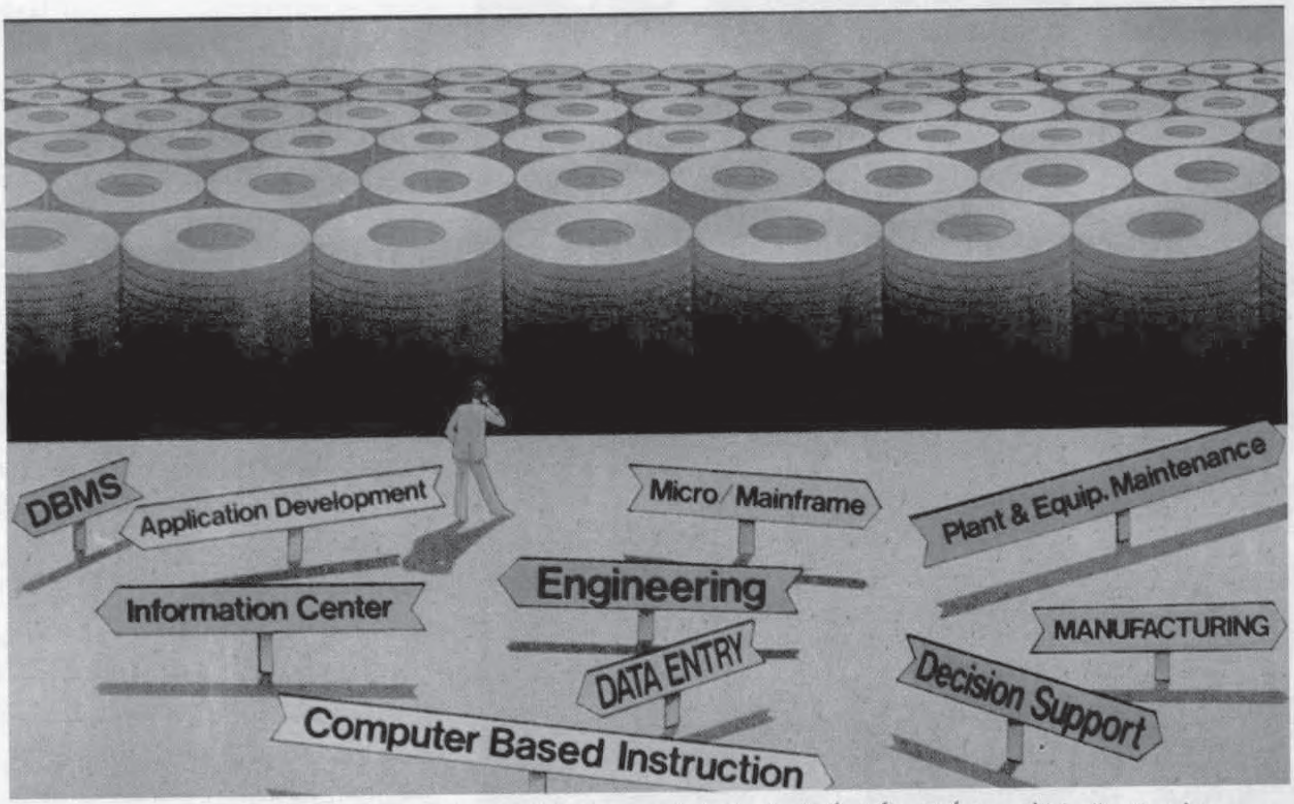
مضت ساعات لا أعرف عددها وأنا أبحث عن البيت. لقد جرى كلّ شيء على ما يرام. أدليت بالشهادة، وقبضت المال، ولكن المشكلة أني لا أجد بيتي. إنّ مشاكلي لا تنتهي. فتشت كل أرجاء المدينة التي أحس أنها غريبة عني، ولم أهتد إلى بيتي. ألمح محلاً كتب عليه مشروبات روحيّة. أشعر بالحنين إليه مع أني لم أدخله مرّة واحدة في حياتي. هناك شيء خفيّ يشدّني إليه، أهي أنواره الخافتة أم الموسيقى الناعمة التي تنساب منه؟ لا أعتقد هذا ولا ذاك، بل اسمه هو ما يجذبني إليه.. أشعر أن روحي ضعيفة، وتحتاج إلى ما يقوّيها. أنزل درجات السلم، وأدخل من الباب، فتستقبلني فتاة أنيقة، أحسّ أنها مألوفة إليّ. أسألها هل رأيتك من قبل؟ تبتسم ابتسامة فاتنة تكشف عن أسنان ناصعة كالثلج وتقول: ألم أرك اليوم في مكتب النفوس حيث أعطيتك هذه النفس العزيزة، وتشدّني إليها قائلة: ما ضاع لن يعود أبدًا!

يتلوى لساني خارجًا من فمي، ويرسم كلمة لا ضخمة حمراء. تربّت زوجتي كتفي مطمئنة، وتقول بصوت خفيض: أرجوك لا تصرخ في نومك هكذا وإلا ستوقظ الصغير فأنا لم أصدق أنه غفا قليلاً.

علوم

العميل الذكي يقتحم حاسوبك !!

عدنان عضيمة



سوف يستخدم العميل الذكي مرشداً إلكترونياً بارعاً ينتقي لك ما تحتاج إليه من بين الركام الهائل من المعلومات والبيانات الذي يملأ الإنترنيت وباقي الشبكات

تكاد تكهّنات العلماء والمستشرفين المعاصرين حول مستقبل العلم في القرن الواحد والعشرين تلتقي تماماً عند بعض الرؤى و«السيناريوهات» التي تبدو كأنها مُقتطفة من قصص الخيال العلمي، أو كأنها من شطحات العقل، إلا أنهم يؤكدون أن «طبخاتها» بدأت بالنضج على نيران هادئة في مختبرات البحوث العلمية الجادّة في الدول المتطوّرة. وغدت تصريحاتهم كلّها تتلخّص بعبارة واحدة خلاصتها أنه: «مع حلول بداية القرن الواحد والعشرين يكون عصر الاكتشافات قد انتهى، ليبدأ عصر التفوّق، وميلاد الكوكب الذكي».

يتضمن آخر سيل أُعلن عنه من الاختراعات الجديدة عدداً يصعب حصره من الأنظمة والأجهزة والتقنيات ذات الوظائف والإمكانات التي لايكاد يصدّقها العقل بسهولة، ومنها:

- الشبكات العصبية neural nets، التي صممت بحيث تحاكي في عملها دماغ الإنسان من حيث القدرة على الإدراك والتفكير والتعلّم الذاتي، وإبداء العواطف والانفعالات الخاصة.
- الروبوتات الناطقة talking robots، ذات القدرة الخاصّة على تعلّم القراءة بالمراس كالأطفال الصغار.
- الإنسان الأوتوماتيكي android، الذي يمتلك القدرة على تقليد الإنسان في حركاته بمجرّد النظر والمحاولة.
- الحاسوب الخفيّ invisible computer، الذي لايفوق في حجمه حجم حبّة العدس على الرغم من إمكاناته الخارقة في إنجاز وظائف الحواسيب العادية، ويمكن تعليقه على حافة حامل النظّارات أو على جانب كعب الحذاء.. وغيرها كثير.

وفي هذا المقال، سيكون الحديث حول بعض مايُنتظر حدوثه من تطورات لاتكاد تُصدّق في حقل الحاسوب والتلفاز والإنترنيت خلال السنوات العشرين القادمة، وفقاً لروايات بعض كبار العلماء المعاصرين المهتمين باستشراف تأثيرات التطوّر العلمي في الحضارة الحديثة.

الإنترنيت.. هل تصوغ حياتنا من جديد؟

يُعدّ لاري تيسلير Larry Tesler، العالم الرئيس في شركة « حاسوب آبل » Apple Computer، واحداً من المستشرفين لمستقبل ثورة المعلومات، ولقد غادر شركة «كزيروكس بارك» حتى يتمكن من الانصراف إلى التكهّن بالتأثير الذي ستحدثه الإنترنيت في حياتنا، وهو يتفق مع الكثير من وجهات النظر الناقدة للإنترنيت حيث يقول: «نعم.. هناك الكثير من القمامة في الإنترنيت. نعم.. هناك الكثير من الإسفاف، ولكن الأشياء الجيدة فيها تفوق الأشياء الرديئة، إن الشيء الأساسي في الموضوع هو أن الإنترنيت وجدت لتبقى».

ويوافق تيسلير على أن النمو الهائل للإنترنيت سيقف عند حدّ معين، وسوف يذوي هوس الناس بالإنترنيت عندما يملّون من تحمّسهم الطاغي لها. ولكنها، حتى ذلك الحين ، ستكون قد غدت جزءاً لايتجزأ من الحضارة الحديثة. وسوف تصبح عنصراً أساسياً في العمل والتجارة والعلوم والفنون والترفيه. ويسرد تيسلير الطرق المتعددة التي ستجعل الإنترنيت تغني حياتنا وتغيّرها نحو الأفضل، بدءاً بقدرتنا على ممارسة العمل من بيوتنا، ولمّ شمل أصحاب الهوايات في كل أرجاء العالم ، وحتى الاستمتاع بالسوق الإلكترونية التي ستغير أسلوبنا في التسوّق.

وسوف تتمكن وكالات شركات الخطوط الجوية المشاركة في الإنترنيت من تقديم اقتراحات متكاملة للألوف من عروض السفر عبر صفحاتها. ومؤسسات السمسرة المشاركة فيها، التي لايتعدى حجم تعاملها في البيع والشراء الآن واحداً بالمائة من مجموع عدد الأسهم المعروضة، سوف تنطلق على خطها بسرعة الصاروخ، لأنها لن تتكلّف بعد الآن بدفع أكثر من عُشر الضرائب العادية التي كانت تدفعها، كما أصبح بوسعها أن تقدم التحاليل المالية الفورية. وسوف يكون في وسع المكتبات المشاركة في الإنترنيت تقديم الملايين من عنوانات الكتب، أو مايعادل محتويات عدة مكتبات كبرى. ومع حلول عام ٢٠٠٠، سوف يتم إبرام ١٥ بالمائة من الصفقات من أصل الحجم الكلي لتجارة البقالة في الولايات المتحدة والبالغة ٤٠٠ بليون دولار بطريقة إلكترونية. ويمكن الحكم أيضاً على مستقبل



الصيرفة والأعمال (البنكية) من خلال التمعّن في طريقة تسيير الأعمال فـي «بنك الشبكة الأمنية الأولى» Security First Network Bank في مدينـة بينفيل بولاية كـينتيكي، الذي أصبح يمرّر معاملاته كلها عبر الإنترنيت.

وتقول صحيفة وول ستريت جورنال: «إن التجارة الحقيقية عبر الإنترنيت مستمرة الآن ببطء، ولكن بثقة، وهناك إغراء طاغ. وليس هناك في الإنترنيت مخزن يغلق أبوابه، ولا مكان معزول عن باقي أرجاء الأرض. والتجار الذين يعلقون لافتاتهم الإلكترونية في فضاء الإنترنيت الرحيب، لم تعد بهم ثمّة حاجة إلى أن يأبهوا بالفراغات الموجودة في الرفوف، وغدا في وسعهم أن يوجهوا بضائعهم إلى الزبائن المهتمين بتكلفة أقلّ بكثير مما كانت عليه. وأصبح حجم المخازن الذي توفره الإنترنيت يفوق بكثير أي شيء آخر مبني من الآجرّ أو الإسمنت!».

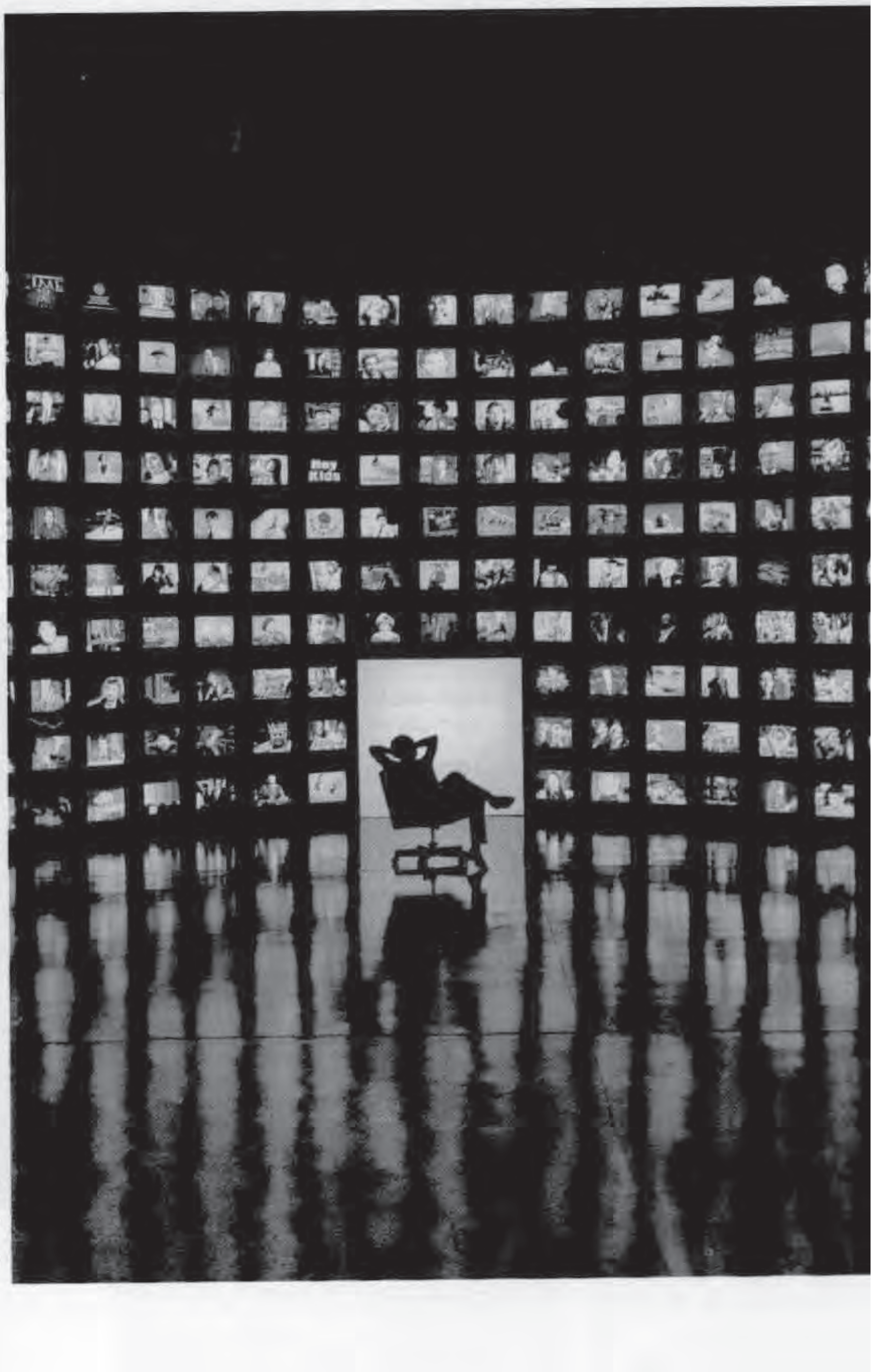
ويمكن للإنترنيت أيضاً أن توفّر الزبائن بالجملة لأرباب الصناعة والخدمات. وفي المستقبل، سوف يكون بوسعك أن تختار النموذج المفصل والدقيق للشيء الذي تريده، ثم ترسله عبر الإنترنيت إلى المصنع، الذي سيتولى صنعه وفقاً لطريقة «منتوج مصنوع للزبون» product custom made -. وبطبيعة الحال، تقوم الآن «شركة تكنولوجيا الملابس» Clothing Technology Corporation ببناء مسبار تبلغ تكاليفه ٥ر٨ مليون دولار بوسعه أن يقدم قياساً ثلاثي الأبعاد لجسم الإنسان كله خلال ثانيتين تحضيراً لتفصيل الملابس المناسبة له بطريقة إلكترونية بحت. ويقوم الزبون أولاً بارتداء بزّة خاصة مصنوعة من البلاستيك المرن تغطي جسمه كله بإحكام، فيستخدم المسبار ستة كشّافات ضوئية وست كاميرات فيديو لالتقاط سلسلة من صور الخطوط الأفقية لقالب الجسم من سطح البزّة. وبعد ذلك يتولى الحاسوب حساب القياسات الدقيقة ذات الأبعاد الثلاثة للجسم بانحناءاته كافة. وعندما تقوم باختيار الزيّ «الموديل» الذي تريده، فإن الحاسوب يرسل قياساتك إلى المصنع الذي يرسل هذه المعلومات إلى جهاز القصّ.

الإنترنيت تقتحم تلفازك !

إن أجهزة التلفاز الحديثة سوف تُجهّز بوصلات لربطها بشبكة الإنترنيت تجعل من التلفاز العشري DIGITAL TV أكثر فاعليّة. فبدلاً من جلوس المشاهد أمام شاشة التلفاز العادي بطريقة سلبية، فإنه سيتمكن في المستقبل من التفاعل مع الصور التي يراها على الشاشة.

ولقد بدأت ست شركات كبرى حاليًا بتسويق أجهزة التلفاز المتصلة مباشرة بشبكة الإنترنيت. ويتوقع ريك دوارتي، من «مجموعة هندسة الاستشراف» En-visioneering Group أن ثلث البيوت في الولايات المتحدة سوف تكون قد اقتنت هذه الأجهزة مع حلول عام ٢٠٠٢م. وعندما سيصبح البثّ العشري التلفزي أمراً إلزامياً، فإن الإنترنيت ستغدو في النهاية السمة المشتركة التي تربط ٩٩٪ من سكان الولايات المتحدة بعضهم ببعض.

وفي عام ١٩٩٧، سنّت «لجنة الاتصالات الفيدرالية» FCC في الولايات المتحدة قانوناً يقضي بإجبار مؤسسات البثّ التلفزي كافة على اتباع التكنولوجيا العشرية بحلول عام ٢٠٠٦م. ولهذا فإنه لن يكون أمام المستهلكين من خيار. فإما أن يشتروا



لقد غيّرت المعلومات التي تتدفق بغزارة عبر المئات من شاشات الاستظهار التلفزية والحاسوبية أسلوبنا في العمل والتسلية وتناقل الأفكار

تلفازاً عشرياً، أو محوّلاً عشرياً لتلفازهم العادي. والتلفاز العادي الضخم الذي تراه الآن في مخازن بيع الأجهزة الكهربائية سوف يُحال إلى المتحف.

الشاشات الجدارية wall screens

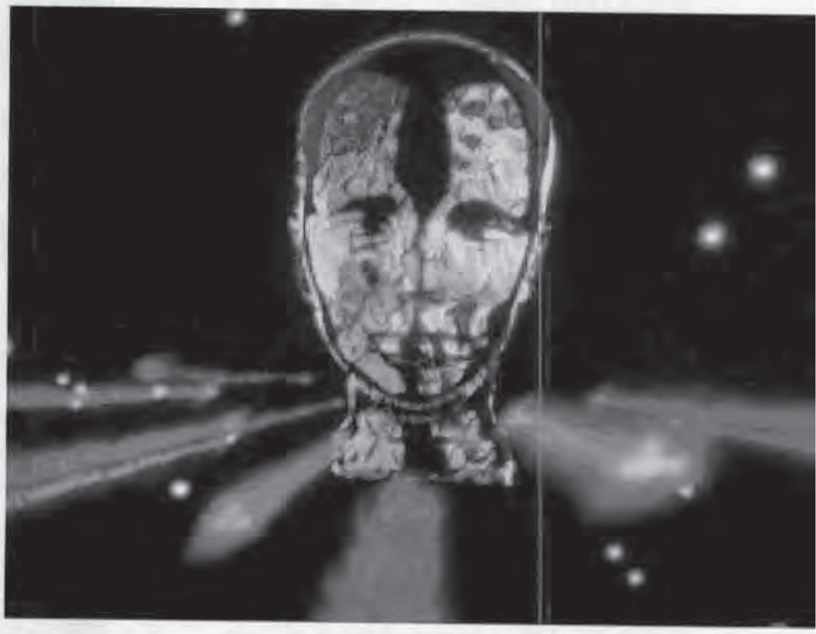
وفي آخر المطاف، وكنتيجة أخرى لقانون مور (الذي ينصّ على أن قوّة الحواسيب تتضاعف كل ثمانية عشر شهراً)، سوف تغدو شاشات الحاسوب والتلفاز على درجة من الاتساع تكفي لتعليقها على الحائط وكأنها لوحات تشكيلية، أو أن تكون صغيرة للحد الذي يسمح بتعليقها بمعصم اليد.

وفي عام ٢٠٢٠م، من المحتمل أن تُصنع شاشات الاستظهار باللوحات الواسعة وفق أشكال مختلفة، وسوف يتم تصغيرها حتى تعمل كشاشات معصم اليد التي يمكن دمجها مع النظّارات الشمسية، وسلسلة المفاتيح. وأخيراً، سوف تغدو رخيصة إلى الحدّ الذي يجعلها تنتشر في كل مكان، كخلفيات مقاعد الطائرة، و ألبومات الصور، والمصاعد، وأوراق الدفاتر، ولوحات الإعلانات، وجوانب الحافلات والقطارات. وفي يوم من الأيام ستصبح هذه الشاشات تحاكي في انتشارها ورق الكتابة.

تمييز الكلام

يُقصد بمصطلح «تمييز الكلام» speech recognition، قدرة الآلة على تلقّي الأوامر المنطوقة وتفهّمها، والتفريق بين الأصوات وتعرّفها. وينطوي تحقيق هذا الهدف على أهمية خاصة في أثناء سعي العلماء لتحقيق حلم صناعة الآلات الذكيّة.

وفي الحكايات الخرافية، لايقوم الأبطال بطباعة التعليمات «للمرآة السحرية» على لوحة المفاتيح، بل إنهم يتحدثون إليها. ولكن تمييز الكلام لم يزل حتى الآن يمثل تحدياً معوّقاً أمام تحقيق حلم «أوتوستراد المعلومات». ولقد تمّ إحراز تقدم كبير في مجال تصميم الحواسيب التي بإمكانها أن تتلقى المعلومات والبيانات بطريقة الإملاء؛ وتكمن المشكلة في



العميل الذكي يجمع المعلومات المستجدة التي نحتاج إليها بصمت تام

أن هذه الآلات أصبح في إمكانها أن تميّز كلام البشر، ولكنها لاتستطيع أن تفهم ماتسمع.

ومن حيث المبدأ، يجب أن تكون مشكلة تمييز الصوت سهلة الحلّ. ونحن، خلال أحاديثنا العادية وحدها، نستعمل نحو ٢٠٠٠ كلمة. ومن المفترض أن يعرف الشخص المثقف مابين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ كلمة. ويكون من السهل خزن مثل هذا الزاد من المفردات في الحاسوب. ويمكن تقسيم هذه الكلمات بدورها إلى مقاطع صوتية (فونيمات) phonemes سبق لعلماء اللسانيات أن وضعوا لها فهارس منذ زمن بعيد.

ويمكن للحواسيب أن تتعرّف المقاطع الصوتية بتفكيكها إلى مقدارين فيزيائيين: تواتر الصوت وشدته. وبقياس هذين المقدارين، يستطيع الحاسوب استخلاص «الطابع الصوتي المرئي» لكل مقطع، ويتألف هذا الطابع من سلسلة خطوط مخربشة عمودياً. (فمثلاً، كلما زادت سعة الخربشات كان الصوت أعلى، وكلما كانت الخربشات أكثر سرعة، زادت حدّة الصوت). ويمكن تحقيق هذه الظاهرة في معظم المتاحف العلمية، وحيث تتكلّم عبر مجهر الصوت (الميكروفون)، لتتمكن بعد ذلك من رؤية عناصر صوتك على شكل موجات تتذبذب على الشاشة.

وتتوافر حاليًا في الأسواق برامج المكوّن اللين لتمييز الصوت القادرة على تلقي النصوص المملاة بدقة ٩٥٪. وفي وسع الآلة النموذجية لتمييز الصوت تمييز ٤٠٠٠٠ كلمة منطوقة من شخص لم يسبق للحاسوب أن سمع صوته من قبل، ولكن هذه البرامج تفتقر إلى الدقة، ويكون على المرء الذي يتكلم معها أن يتصنّع الوقفات الصوتية بين مقاطع الكلمة نفسها حتى تتسنى للحاسوب فرصة تمييز الكلمات المختلفة. إلا أن الكثيرين يتوقعون أنه بحلول عام ٢٠٠٥م سوف يتم التغلب حتى على هذه المشكلات؛ لأنها لاتعدو أن تكون مشكلات تقنية، ولاتنطوي على أي نوع من المصاعب العلمية الجديدة، ولا يقتضي حلها أكثر من زيادة قدرة الحاسوب.

والأمر الذي قد يكون أكثر صعوبة، هو تصميم الآلات التي لاتقتصر إمكاناتها على سماع أصوات البشر، بل تتعدى ذلك إلى فهم مايقال لها. وغدا في وسع الحاسوب أن يقرأ ويسمع، ولكنه لايفهم مايُقال له. وحتى تتحقق المرآة السحرية الحقيقية، فإن من الضروري الوصول بالذكاء الصناعي إلى درجة الكمال، وهذا يمثل أصعب مشكلة في تكنولوجيا الحاسوب . فهذه المشكلة ترتبط بالدرجة الأولى بصميم السؤال الأزلي : ما الذي يجعل منّا بشراً؟

وتتعلق الخطوة الصغيرة الأولى لحل هذه المشكلة بتطوير برامج «العملاء الأذكياء» intelligent agents التي يمكنها اتخاذ القرارات المبدئية والعمل كمصافٍ في وسعها أن ترشّح المعلومات لتفرز منها ما يبحث عنه مستخدمها، ومن ثمّ، فإن الحل الحقيقي لهذه المشكلة يقتضي الانتظار حتى حلول عصر الطور الرابع من الحاسب، الذي يُرجح أن يتحقق عام ٢٠٢٠، حيث يتوقع العلماء أن ينتشر العملاء الأذكياء في حواسيبنا وتلفازاتنا ، بل في كل أرجاء بيوتنا.

العملاء الأذكياء

إن حجم المعلومات المخزونة في شبكة الإنترنيت تزداد بسرعة هائلة. ففي عام ١٩٩٦ كان بإمكان المرء أن يدخل إلى نحو ٧٠ مليون صفحة من المعلومات المخزونة فيها، وقفز عدد صفحاتها إلى ١٤٠ مليون



الاستظهار بالبلورات السائلة -LIQUID CRYSTAL DIS
PLAY فتح آفاقًا رحبة للتحكم بحجوم الشاشات، وتنويع مجالات استخدام الحاسوب والتلفاز.



عندما سيقتحم العميل الذكي حاسوبك، سيكون له وجه شبيه بوجه الإنسان يظهر عند الطلب على الشاشة الجدارية، وسوف يتمتع بنحو عشرين من المظاهر العاطفية والانفعالية، وسوف «يستخلفك» بالقيام بآلاف المهمات التي كانت ترهقك.



قريبا سيحال التلفاز العادي إلى متحف الاختراعات القديمة عندما سيتم دمجه بالحاسوب، وسوف تصبح الشاشات الجدارية مرتعا للعميل الذكي الذي سينتظر منك الأوامر الصوتية فينفذها.



صفحة خلال عام ١٩٩٧، وأصبح من المعتقد أنه مع حلول عام ٢٠٢٠ سوف تتضمن الإنترنيت المجموع الكلي لخبرات الإنسان ومعارفه على هذا الكوكب .. كل المعارف والخبرات المتراكمة خلال الخمسة آلاف سنة الماضية من التاريخ المدون.

ولهذا، يتوجب على العميل الذكي أن يكون قادراً على العمل كمصفاة في شبكة الإنترنيت بالنسبة إلى مستعمله، بحيث يميّز بين المادة الغثّة والسمينة. ومعلوم لدى كل من تجوّل عبر الشبكة، أنّ الكثير من المعلومات التي تحملها ليست إلا تفاهات كبرى، وثرثرات عظمى، تنطوي على كل شيء، من صور فيديو لحفل زفاف تم قبل خمس سنوات لإنسان لاتعرفه ولايعرفك، إلى تبجّحات إنسان أخرق يدّعي النبوّة، وحتى الأفلام والعروض التي تخلو من أدنى المعايير الأخلاقية. وعلى العملاء الأذكياء أن يكونوا قادرين على القيام بالاختيار المعقّد لما يبتغيه مستخدموهم.

وتُعدّ باتي مايز Pattie Maes، الباحثة في المختبر الإعلامي التابع لمعهد ماساشوسيتس التكنولوجي MIT، من أكثر الناس اهتماماً بتحقيق هذا الحلم، وتعدّ أيضاً واحدة من روّاد تقنية العميل الذكي. وتشتمل هذه التقنية على برنامج مكوّن ليّن يجمع بين وظيفة أمين السر (السكرتير)، والمخطط الشخصي، والرفيق.

وبعد أن حصلت على درجة دكتوراه الفلسفة في علم الحاسوب، بدأت مايز بحوثها في علم الذكاء الصناعي، وعملت مع رودني بروكس في معهد ماساشوسيتس التكنولوجي لبناء «كوج» Cog ، (يُقرأ بالجيم المصرية المعجمة)، وهو إنسان آلي يمكنه أن يتعلّم كالطفل، غير أنها سرعان ما شعرت بالنفور من العمل في الذكاء الصناعي، وانتهى بها الأمر إلى أن قالت: «إنني لست مقتنعة بأنني إذا ما تمكنت من بناء روبوت له ذكاء طفل في الثانية من عمره، فإنه سيكون قادراً على تعليمنا أشياء تتعلق بالكبار، وإن من الأسهل لنا أن نبني طفلاً في الثانية من عمره بطريقة بيولوجية»!.

وعندما حملت مايز جنينها الأول، سارعت إلى مراهنة بروكس حول من سيسبق في الوصول إلى ذكاء طفل في الثانية من عمره، إنسان بروكس الأوتوماتيكي كوج، أم طفلها الذي ستلده؟ وكسبت الرهان.

وتساءلت مايز: إذا لم يكن في وسعنا تحقيق الذكاء الصناعي في هذه المرحلة، فلماذا لانحاول على الأقل أن نعزّز ذكاءنا الخاص بكتابة برامج المكوّن الليّن للعملاء الأذكياء الذين يستطيعون أن ينجزوا المهمّات الصعبة في جمع المعلومات، واتخاذ القرارات؟.

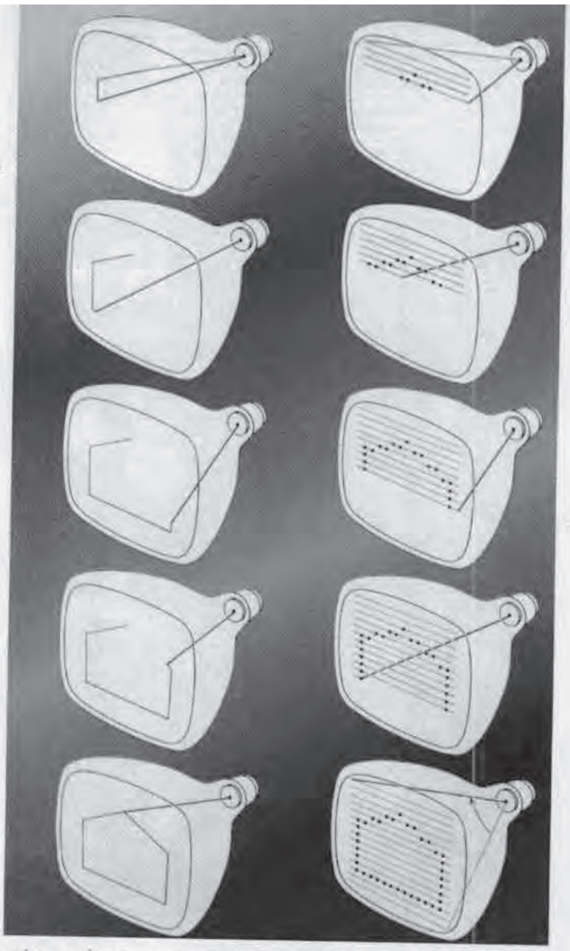
وسوف يكون في وسع العميل الذكي، في أدنى مستوياته مرتبة، أن يمحّص في البريد الإلكتروني، وأن يرتّب الرسائل بحسب أهميتها، ويقذف بالبريد الإلكتروني السخيف بعيداً، ويصنّف الرسائل ويفهرسها. وسيكون في مقدوره، في أعلى مستوياته، أن ينجز خطط العمل التي تتفق مع المعطيات الراهنة، وأن يمرّر المكالمات الهاتفية المهمة، وأن يخبر مستخدمه بفرص العمل الجديدة والطيّبة المتاحة ، وأن يرفض العروض العقيمة. ويمكنه في الحالات الطارئة أن يتصل بمستعمله أينما كان.

وسوف يعمل هؤلاء العملاء الأذكياء في المستقبل عمل المصافي التي تدرأ عنّا أخطار الغرق في محيط الإسفاف والتفاهة المنتشرين عبر شبكة الإنترنيت، كما سيمكنوننا من البحث عن البنود التي تهمنا فيها. ولقد تمكنت مايز وزملاؤها فعلياً من تطوير عميل ذكي يمكنه أن يبحث عن قواعد البيانات العلمية الأساسية، وأن يستعيد المقالات ونصوص البحوث المختارة التي تهم العلماء. وسوف يسمح لأكثر العملاء نجاحاً أن يتحدوا



باستعمال الحاسوب في فن «التصوير العشري» digital imaging تمكن الفنان لي فاريس من إدخال هذا الحشد من القرود إلى مكتبة عامة ليخرج بهذه الصورة

«أو يتـزاوجـوا»، وأن يـنقلوا «مـعلومـاتـهم الموروثة!» للجـيل الـتـالي من العـملاء. وبهـذه الطريقة، سـوف يصبح كل جـيل من العمـلاء المتطورين أكثـر «تكيّفًا» مع رغـبات المبرمج. وتـقول مايز: «وفـقًا لتصـوّري للنظام النهائي لبرنامج المكوّن اللّين للعميل الذكي، ستكون هناك كل هذه الأشكال (الحـيـة) الـتي تتطوّر ذاتيـًا، وتتـخـصص في الاتجـاه الذي يرغـب فـيـه مستخدمها. وكل جيل جديد سيحقق غايات مستخدمه بشكل أفضل».



يتم استظهار الصور على شاشة التلفاز أو الحاسوب بوساطة أنبوب الأشعة المهبطية CATHODE - RAY TUBE بطريقتين: ففي طريقة «الاستظهار الموجّه» VECTOR DISPLAY (إلى اليسار)، ويُوجه الشعاع الإلكتروني باستمرار ليقطع المسافة بين نقطتين حتى يشكل خطاً مستقيماً يدعى «الشعاع». ويشتمل رسم منزل مثلاً على تكرار محدد لهذه العملية. أما في الاستظهار التلفازي (يمين) فإن الشعاع الإلكتروني يرسم شبكة من النقاط الضوئية في أثناء عملية المسح الأفقي للصورة وبالسرعة التي تحقق ظاهرة الانطباع الشبكي في عيني المشاهد؛ حتى تبدو الصورة كتلة واحدة غير متقطعة.

وحتى عندما ننام، فسوف يكون في وسع العملاء الأذكياء الذين اقتحموا حواسيبنا أن يجمعوا المعلومات المستجدة التي نحتاج إليها بصمت تام. وتتضمن الاستخدامات الأخرى للعملاء الأذكياء القيام بدور الوسيط الشخصي في التعامل مع الناس الآخرين، وبذا يمكن للأفراد أن يستخدموهم لإنشاء قاعدة معلومات من معطيات كوكب الأرض كله. ويمكن للباحثين عن عمل أن يطلعوا على إعلانات الترشيح للوظائف في العالم أجمع بوساطة عميلهم الذكي، وسوف يكون في وسع الشركات أن تصل عن طريق عميلها إلى القرارات الاستشارية حتى في القضايا الغامضة، وسوف يتمكن أصحاب الهوايات من الاتصال بالأشخاص الذين لهم اهتماماتهم نفسها عبر العالم.

لقد شعرت مايز بأن أكثر العملاء الأذكياء فاعليّة هو ذلك الذي يمتلك شخصيته المستقلّة، وله وجه الإنسان وسحنته ومظهره. ولقد تمّت فعلياً كتابة البرامج الخاصة بنموذج العميل الذكي الذي يحاكي نوعاً من أنواع «الرجل السعيد» الذي يمتلك مابين عشرة وعشرين من المشاعر الانفعالية المختلفة.

وكتبت مايز في أحد تقاريرها تقول: «بدلاً من التعامل مع لوحة المفاتيح والفأرة، فإن الناس سوف يخاطبون عملاءهم، أو يومئون إليهم بما

يحتاجون إلى إنجازه من أعمال، وسوف يستجيب العملاء، فيظهرون على الشاشة كأنهم كائنات (حيّة) أو أشباح ذكيّة، ويعبّرون عن حالتهم وانطباعاتهم اللحظية عن طريق سحناتهم المرسومة التي تجسد مشاعرهم بلغة حيّة بدلاً من لغة (ويندوز) المقرونة بالنصوص والرسوم والأرقام. ويعني هذا، تحقيق التخاطب المباشر مع وجوه شبيهة بوجوه البشر في وسعها أن تبتسم، وتعبس، وتكشّر، وحتى أن تطلق النكات!.

إذن .. كيف يمكن لهذه الثورات العلمية أن تؤثر في حياتنا خلال السنوات العشرين القادمة؟.

إن في وسع العلماء أن يخمّنوا بدقة معقولة ما ستكون عليه الحياة في عام ٢٠٢٠؟ وذلك لأن عدداً من النماذج الأولى للمخترعات والتكنولوجيات التي تنطوي عليها القصّة التي سنرويها بعد قليل، تتوافر الآن فعلياً في المختبرات. وبعيداً عن أدب الخيال العلمي، فإن الكثير من التكنولوجيات التي اقتبس منها الفيزيائي والمستشرف العلمي الأمريكي ميشيو كاكو Michio Kaku هذه القصّة قد بدأت منذ الآن تثبت جدواها. وقد قال بول سافو Paul Saffo: «إن المستقبل أصبح حاضراً، وكل مافي الأمر أنه موزّع على نحوٍ غير متساوٍ».

وتحمل قصّة كاكو عنوان: «أسبوع من الحياة في عام ٢٠٢٠م»، وتمثل تصويراً «سيناريو» مثيراً لما يمكن أن تكون عليه الحياة عام ٢٠٢٠م قد يجتذبك كثيراً إذا كنت من الذين يهتمّون بمتابعة آخر التطورات التكنولوجية.

أسبوع من الحياة في عام ٢٠٢٠م

الزمان: الساعة ٦:٣٠ صباحاً، الأول من حزيران/ يونيو من عام ٢٠٢٠م.

رنين جرس رقيق يوقظك في الصباح. وفجأة.. تدبّ الحياة في لوحة جدارية ضخمة تصوّر شاطئ البحر معلّقة على الحائط، فيحلّ محلّها وجه دافئ ودود، لفتاة جميلة تدعى مولّي Molly، فتحيّيك بلطف قائلة: «حان وقت الاستيقاظ!».

وبينما أنت تمشي إلى المطبخ، تشعر الأدوات المنزلية بوجودك. فيشغّل إبريق القهوة الكهربائي نفسه، ويتحمّص الخبز تلقائياً بالقدر الذي تفضّله، وتملأ الموسيقى التي تفضلها أجواء المكان آلياً.. لقد دبّت الحياة في أرجاء بيتك الذكي!.

وعلى مائدة الطعام، تكون مولّي قد طبعت النسخة الشخصية من جريدتك المفضلة بعد أن تكون قد مسحت الشبكة الإلكترونية. وحالما تغادر المطبخ، يتفحّص البرّاد محتوياته آلياً، ليخبرك قائلاً: «لقد انتهى الحليب، وأصبح اللبن الزبادي حامضاً». ثم تضيف مولّي: «إننا فقيرون بالحواسيب، أحضر معك دستة أخرى منها ما دمت ذاهباً إلى السوق بطبيعة الحال».

إن معظم أصدقائك اشتروا برامج «العميل الذكي» التي تفتقر للوجوه أو الشخصيات، والآخرون في طريقهم لشرائها، وهناك من لايستسيغون التحدّث إلى أدواتهم المنزلية، أما أنت فإنك من النوع الذي يرغب في الاستمتاع بإصدار الأوامر الصوتية.

وقبل أن تغادر المنزل، تصدر أوامرك إلى الروبوت المنظّف الذي يعمل بطريقة تفريغ الهواء لتنظيف السجادة. فتدبّ الحياة في الروبوت،

العميل الذكي يقتحم حاسوبك !!

ويتحسّس مسار الأسلاك المختفية تحت السجّادة، ويبدأ عمله.

وبينما تقود سيارتك الكهربائية الإلكترونية على الطريق السريعة نحو مكتبك، تكون مولي على اتصال مع «قمر نظام تحديد الموضع» -Global Positioning System Satellite الذي يدور فوقها حول الأرض، فتخبرك بأمر لم يكن في حسبانك أبداً، فتقول: «سوف يكون هناك تأخير كبير في الوصول إلى المكتب بسبب الأشغال الجارية على الطريق السريعة رقم ١. وهناك ثمّة طريق بديلة لها». وتظهر فجأة خريطة كالشبح على مصدّ الرياح.

وبينما أنت تقود سيارتك على الطريق السريعة، تستشعر إشارات المرور الضوئية عدم وجود سيارات أخرى يمكن أن تعترض طريقك فتضيء كلها باللون الأخضر. وتراقب رادارات مولي بهدوء السيارات التي تحيط بك، وفجأة يشير حاسوبها إلى وجود خطر، فيصرخ: «انتبه.. هناك سيارة خلفك»!، وعندئذ ستلاحظ أنك لم تكد تتفادى الخطر الذي كان يهددك من سيارة كانت تتحرك ضمن البقعة العمياء إلا بشقّ النفس. وهكذا تكون مولي قد أنقذت حياتك.

وفي مكتبك التابع لشركة «علم الوراثة الحاسوبي» Computer Genetics ، وهي مؤسسة ضخمة متخصصة بتحليل التراتب الشخصي للحامض النووي DNA، تقوم بسبر بعض بريد الفيديو، فتجد بعض الفواتير، وتقحم بطاقتك الذكية في الحاسوب المثبّت على الجدار. ويتفحص شعاع ليزري بؤبؤ عينك حتى يتمكن من التعرف إليك، وهكذا تكون الصفقة قد تمت. وبعد ذلك، وفي الساعة العاشرة «يقابلك» عضوان من الهيئة الإدارية عبر الشاشة الجدارية لتدارس بعض الأمور المتعلقة بالعمل.

الساعة الرابعة بعد الظهر.

الآن.. تخبرك مولي بحلول موعد استشارة الطبيب، وبعد أن تفرغ مولي من إجراء الاتصال اللازم، يظهر طبيبك بذاته على الشاشة الجدارية فيقول لك: «لقد لاحظنا وجود بعض الكميات القليلة من أنواع معيّنة من البروتينات في بولك، واستنتجنا من ذلك وجود مستعمرة سرطانية مجهرية تنمو في معيك الغليظ» .

فتسأله بقلق: «وهل هذا شيء خطير»؟.

فيجيبك: «ربما لايكون، إن الأمر ليس أكثر من مجرّد وجود بضع مئات من الخلايا السرطانية وسوف نقضي عليها بواسطة عدد قليل من الجزيئات الذكية».

وتسأله بفضول: «أودّ أن أعلم ما الذي كان سيحدث لو لم يتمّ فحص البروتين وتطبيق العلاج بالجزيئات الذكيّة»؟.

فيجيبك: «في الواقع، إنه في غضون عشر سنين، سينشأ عندك ورم صغير وخبيث . وفي تلك المرحلة سيكون قد وصل عدد الخلايا السرطانية النامية في جسمك إلى بضعة بلايين، ولن يتعدى احتمال بقائك على قيد الحياة الخمسة بالمئة».

ويقطّب الطبيب حاجبيه، ويقول: «لقد استعملنا أيضاً مسبار التصوير بالرنين المغناطيسي MRI لإلقاء نظرة على شرايينك. ووفقاً للسرعة الراهنة لتراكم الصفيحات الدهنية، فإن الحاسوب أظهر أنه خلال ثماني سنوات، سوف يرتفع احتمال إصابتك بأزمة قلبية إلى ثمانين بالمئة، وها أنذا أرسل إليك عن طريق بريد الفيديو video mailing برنامجاً صارماً من التمارين الرياضية، والاسترخاء، واليوغا، والابتعاد عن التوتّر».

إنه لأمر عظيم..! وهكذا.. فإن أعباء مولي ستزداد الآن؛ لأنها ستصبح هي مدرّبتك الخاصة لتطبيق هذا البرنامج بالصرامة كلها! .

وبعد.. فقد يكون من الجدير أن نتساءل بعد كل هذا: هل أشرف الإنسان على استكمال دوره في الحياة؟.

على الرغم من أن المستشرف العلمي جيمس ماكلير سبق أن أجاب عن مثل هذا السؤال بقوله: «في وقت ما من الأعوام الثلاثين القادمة، سوف نفقد موقعنا كأكثر الأشياء ألَقاً على الأرض!»، إلا أن ذلك لم يمنع من تصاعد الأصوات الجديدة التي بدأت بالمناداة بإيجاد صيغ تنظيمية جديدة من شأنها أن تدرأ الأخطار الجسيمة الناجمة عن مثل هذا الامتزاج الغامض بين «ضمير العلم» و «ضمير الإنسان».



في استظهار الصور الملونة على شاشة الحاسوب بأنبوب الأشعة المهبطية، يقذف مدفع الإلكترونات ثلاث حزم من الأشعة المهبطية يمثل كل منها أحد الألوان الأصلية الثلاثة: الأحمر، والأزرق، والأخضر، ويمزج هذه الألوان تتشكل الألوان الهجينة كلها.



البارابسيكولوجيا المعاصرة

جمال نصار حسين

ظهرت البحوث الأولى عن الظواهر الخارقة على يد بعض الدارسين الذي ادّعوا أن ممارسة التنويم المغناطيسي MES-MERISM، الذي عُرف لاحقًا بالتنويم HYPNOSIS، يمكن أن يتسبب في ظهور بعض التأثيرات الخارقة، كانتقال الأفكار بين المُنوِّم والمُنوَّم. كما دُرست حالات عدد من أولئك الذين اصطُلح على تسميتهم بـ «الوسطاء الروحيين» MEDI-UMS الذين ادّعوا قدرتهم على إقامة ما سُمي في حينه بـ«جلسات تحضير الأرواح» SEANCES؛ أولئك الوسطاء الذين ازداد عددهم بشكل كبير نتيجة لانتشار الحركة التي عُرفت بـ «الروحانية» SPIRI-TUALISM في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا. ولم يقتصر الاهتمام بدراسة الظواهر الخارقة في تلك الفترة على باحثين اهتموا بهذه الظواهر حصراً، وإنما تم إجراء بعض البحوث على يد باحثين مرموقين من المتخصصين في مجالات علمية تقليدية كالفيزياء، والكيمياء، والفلسفة. ومثال على هذه الدراسات تلك البحوث التي قام بها الفيزيائي الإنجليزي الشهير وليم كروكس على أحد أشهر الوسطاء الروحيين، وهو الأسكتلندي زانيال هيوم، فحاول كروكس قياس القوة الفيزيائية التي تضمنّتها بعض الأعمال الخارقة لهذا الوسيط، إلا أن مثل هذه البحوث لم تكن سوى جهود فردية، ولم تكن بالتأكيد جهوداً منظمة أو متواصلة، ولكنّ الاهتمام المتزايد بدراسة الخوارق بشكل عام، وظاهرة الوساطة الروحية بشكل خاص قاد مجموعة من (الأكاديميين) في جامعة كمبردج البريطانية إلى إنشاء أول جمعية رفيعة المستوى متخصصة في دراسة الظواهر الخارقة، وهي جمعية بحث الخوارق SOCIETY FOR PSYCHICAL RESEARCH، وكان ذلك في عام ١٨٨٢م، وكان أول رئيس لها أحد أساتذة جامعة كمبردج المعروفين، وهو الفيلسوف هنري سيدويك HENRY SIDGWICK، وقد أدّى إنشاء هذه الجمعية الجامعة (الأكاديمية) إلى تنظيم دراسة الظواهر الخارقة، وتأسيس معايير للبحث العلمي في هذا المجال. ثم قامت جمعية بحث الخوارق بعد تأسيسها مباشرة تقريباً بإصدار دورية متخصصة ذات مستوى (أكاديمي).

أخذت دراسات الظواهر الخارقة تتحول تدريجيًا إلى علم نظري. وبعد تأسيس جمعية بحث الخوارق بثلاثة أعوام قامت مجموعة من الأكاديميين الأمريكيين، من بينهم عالم النفس المشهور وليم جيمس، بتأسيس جمعية بحث الخوارق الأمريكية AMERICAN SOCIETY FOR PSYCHICAL RESEARCH في ولاية بوسطن.

تركزت بحوث جمعية الخوارق البريطانية ونظيرتها الأمريكية على دراسة حالات من الظواهر الخارقة، وكذلك القيام ببحوث ميدانية. وقامت الجمعيتان بنشر عدد

والظواهر الخارقة

من التقارير والبحوث، إلا أن الثورة الحقيقية في مجال دراسة الظواهر الخارقة حدثت في العقد الثالث من القرن الحالي؛ بظهور البحوث المختبرية للظواهر الخارقة على يد عالم حياة (بايولوجيا) النبات جوزيف راين JOSEPH RHINE؛ إذ قام راين بدراسة عدد من الظواهر الخارقة تحت ظروف مختبرية مسيطر عليها، وأخضع نتائج بحوثه هذه للتقويمات الإحصائية، كما هو متعارف عليه في العلوم التقليدية، ليضع أسس ما يُعرف حالياً بـ «الباراسايكولوجيا التجريبية» EX-PERIMENTAL PARAPSYCHCOLOGY. في الحقيقة أن مصطلح «باراسايكولوجيا» نفسه هو من وضع راين الذي صاغه من الألمانية. وأدت جهود راين إلى إنشاء أول مختبر للبحوث الباراسايكولوجية في العالم في عام ١٩٣٤م، وهو مختبر باراسايكولوجيا LA-PARAPSYCHOLOGY BORATORY؛ جامعة ديوك DUKE UNIVERSITY.

نوعان من الظواهر الخارقة

ركزت دراسات الباراسايكولوجيا التجريبية على نوعين بالذات من الظواهر الخارقة: الظاهرة الأولى هي التحريك الخارق PSYCHOKINESIS، التي تشير إلى ظاهرة إحداث تأثيرفي جسم ما عن بعد من دون استخدام وسيلة فيزيائية مدركة كالجهد العضلي أو أي نشاط للجهاز الحركي في الجسم، والظاهرة الثانية هي الإدراك الحسي المسبق EXTRASENSORY PERCEPTION، التي تُقسم عادة بدورها ثلاثة أنواع من الظواهر هي: أولاً: توارد الخواطر TELEP-ATHY، ويقصد بها انتقال الأفكار والصور العقلية بين الكائنات الحية من دون الاستعانة بأية حاسة من الحواس التقليدية.

ثانياً: الإدراك المسبق PRECOGNITION، التي تشير إلى ظاهرة معرفة أحداث مستقبلية قبل وقوعها.

ثالثاً: الاستشعار CLAIRSENTIENCE، وهي ظاهرة اكتساب معلومات عن حادثة بعيدة أو جسم بعيد من غير استخدام الحواس.

ومع أن الباراسايكولوجيا التجريبية هي أكثر شكل اتخذته دراسة الخوارق قرباً إلى العلوم التقليدية على قدر تعلّق الأمر بمنهج البحث، فإن هذا المنهج أخفق مع ذلك في كسب تأييد الكثير من المختصين في العلوم



التقليدية. إن أحد أسباب هذا الإخفاق هو ضعف التأثيرات التي يتم إحداثها في معظم هذه البحوث، والتي لا يمكن على الإطلاق موازنتها بالقابليات الخارقة التي يستعرضها الأفراد الموهوبون. في الحقيقة، لو كانت قابليات الأفراد الموهوبين تماثل التأثيرات الضعيفة التي يولدها باحثو الباراسايكولوجيا في المختبر لما نشأ أي اهتمام أساساً بدراسة هذه القابليات على وجه معين أكثر من غيره هو دليل على تمتع هذا الشخص بقابليات تحريك خارق مثل التي يتمتع بها بعض الموهوبين من الذين لبعضهم القابليات، على سبيل المثال، على« تحريك قطعة معدنية عن بعد».

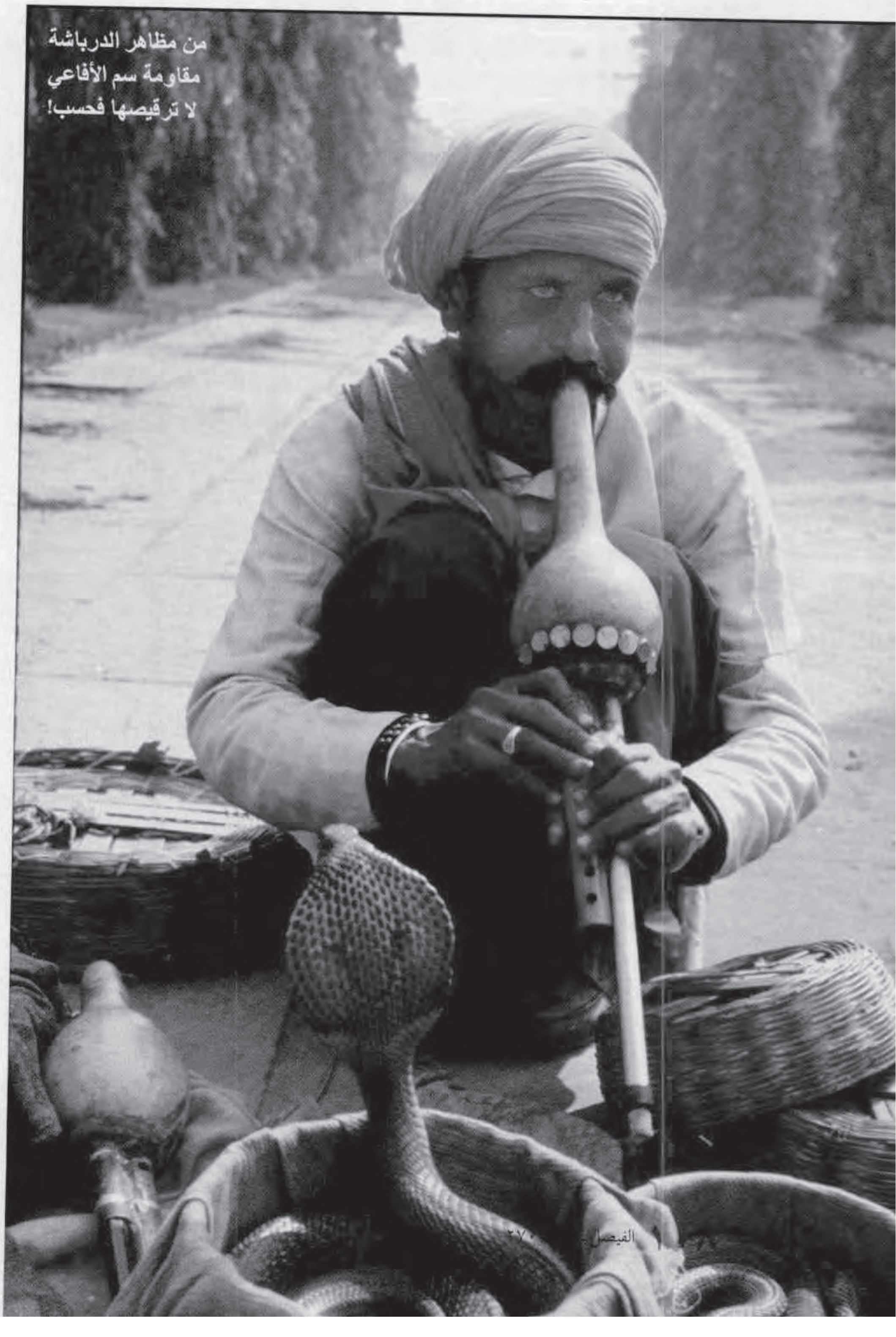
ظاهرة عدم التكرارية

إن ضعف التأثيرات التي تظهر في الدراسات الباراسايكولوجيا المختبرية في الأفراد غير الموهوبين ليس العامل الوحيد الذي يحد كثيراً من قدرة هذه الدراسات على إقناع المشككين skeptics بوجود الظواهر الخارقة؛ إذ إن هنالك مظهراً سلبياً آخر يمكن ملاحظته حتى على نتائج التجارب التي تقام على أفراد يتمتعون بقابليات خارقة. هذا المظهر السلبي هو ما يعرف في مصطلحات الباراسايكولوجيا «عدم تكرارية» IR-REPRODUIBILLTY الظواهر الخارقة.

والمقصود بعدم التكرارية هو أن الفرد صاحب القابلية الخارقة لا ينجح دائماً في استعراض قابليته هذه. وعلى سبيل المثال، فإن الشخص الموهوب بقابلية توارد الأفكار بإمكانه أن ينجح أحياناً في قراءة أفكار غيره من الناس، إلا أنه يعجز في أحيان أخرى عن القيام بالفعل نفسه مما يبرهن على أن قابليته هذه غير ثابتة، ولكنها متغيرة بين ظهور واختفاء، ومن ثم، فإنه من الواضح أن هذا الشخص ليست لديه السيطرة الفعلية على قابليته الخارقة.

لقد شكلت ظاهرة عدم التكرار أكبر عقبة أمام إقناع كثير من العلماء التقليديين الذين اعتادوا دراسة الظواهر الفيزيائية؛ التي تتبع قوانين ثابتة لا تتغير بين حين وآخر. إلا أن من المهم هنا تأكيد أن صفة عدم التكرار التي تتميز بها الظواهر الخارقة لا تمثل تسويغاً للتشكيك في هذه الظواهر؛ لأن الدراسات المختبرية للموهوبين تأتي عادة بنتائج إيجابية لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار أهميتها. فعدم تكرار القابليات الباراسايكلوجية يجب ألاّ يدفع الباحث إلى إنكار هذه القابليات، وإنما يجب أن يتعامل معها كصفة من صفات هذه الظواهر الخارقة.

إن الدراسات التجريبية تمثل قدراً كبيراً من حجم البحث العلمي في الباراسايكولوجيا، ومع ذلك لم يجعل من هذا العلم علماً تجريبياً حقاً يلتزم الدلالات التجريبية للنتائج المختبرية، ويتجنّب الانسياق وراء الفرضيات النظرية التي ليس في نتائج التجارب ما يدلل على صحتها. فالناظر بتمحيص إلى طبيعة البحوث الباراسايكولوجيا التجريبية لن تخفى عليه النزعة الواضحة لاستغلال نتائج هذه البحوث في دعم تفسيرات معينة تتجاوز كثيراً دلالات التجارب المختبرية. وعلى وجه التحديد، فإن الدراسة النقدية للاتجاهات في الباراسايكولوجيا تكشف عن ميل شديد لدى



من مظاهر الدرباشة مقاومة سم الأفاعي لا ترقيصها فحسب!



لا تزال الباراسايكولوجيا عاجزة عن تفسير بعض الظواهر الخارقة

غالبية الباحثين للبرهنة على أن الإنسان، ولا أحد سواه، هو مصدر الطاقة للأعمال الخارقة التي تظهر على يديه. وهناك مفارقة ساخرة هنا؛ وهي أن الباراسايكولوجيا نشأت أساسا لدراسة ظواهر من المفترض أنها تحدث بسبب تدخل كائنات غير بايولوجية، كما أن من المفترض في عالم الباراسايكولوجيا أن يكون باحثًا يتمتع بذهنية منفتحة لكونه يدرس ظواهر تهملها العلوم التقليدية، بل تنكر وجودها، فإن من الواضح أن هذا الانفتاح الفكري يتوقف عند حد التسليم بوجود هذه الظواهر، ويغيب تمامًا حين يبدأ الباحث بدراسة الظاهرة. إذ إن كثيراً من بحوث الباراسايكولوجيا تتضمن إنكاراً ورفضًا ضمنيًا أو صريحًا، لاحتمال أن تكون الظواهر الخارقة ذات مصادر طاقة غير بشرية. فهذه البحوث ترفض أن تدرس بشكل جدي احتمال وجود كائنات غير بشرية يمكن أن يكون لها دور ما في مثل هذه الظواهر. وعلى سبيل المثال، فلقد وضع باحثو الباراسايكولوجيا كثيراً من النظريات التي تسعى إلى تفسير ظواهر مثل الأماكن المسكونة HAUNTED PLACES وتحضير الأرواح والأطياف APPARITION OR GHOSTS والأرواح الضوضائية POL-TERGEIST على أساس يتم النظر بموجبه إلى هذه الظواهر على أنها ليست سوى تجليات لطاقات بشرية، لا مسوغ هنالك لافتراض أن هذه الظواهر تشير فعلاً إلى وجود مخلوقات غير بشرية. فوفقًا لأكثر هذه النظريات شيوعًا، وهي نظرية «بساي الفائقة» SUPERPSI فإن كل ما يحدث في ظواهر البيوت المسكونة والأرواح الضوضائية وتحضير الأرواح من أصوات وتحريك أشياء وغيرها هو نتيجة تأثيرات خارقة غير واعية لأحد الأشخاص من حضور المكان. ومع هشاشة البناء العلمي لهذه النظرية وافتقادها للبرهان التجريبي، فإن لها شعبية كبيرة بين علماء الباراسايكولوجيا. وفي الحقيقة أن دراسة الاتجاه التفسيري السائد في البحوث الباراسايكولوجية لابد أن يترك في الشخص الانطباع بأن هدف الباراسايكولوجيا الوحيد، سواء صرح به هذا العلم أم لم يصرح، هو البرهنة على أن الإنسان هو مصدر الطاقة للظواهر الخارقة، وأن الظاهرة الخارقة تبدأ وتنتهي في الإنسان.

الباراسايكولوجيا في العالم العربي

إذا كان هذا هو الأسلوب الذي تعاملت به الباراسايكولوجيا الغربية مع الظواهر الخارقة المتوافرة في البيئة التي ظهرت فيها، أي في المجتمعات الأوروبية والمجتمع الأمريكي، فما موقف هذا العلم من الظواهر الخارقة التي تنتمي إلى مجتمع غير غربي؟

من الحقائق البديهية التي يعرفها كل من له بعض الاطلاع، مهما كان محدوداً، على المجتمعات العربية والإسلامية هو أن هذه المجتمعات تزخر بمختلف أنواع الظواهر الخارقة. وهذه الحقيقة لا يتطلب الرجوع إلى كتب التاريخ للتثبت، لأنها موجودة في الواقع إلى يومنا هذا.

قد يجد بعض الناس في الصعوبات العملية المتضمنة في دراسة الظواهر الخارقة التلقائية عذراً مقبولاً لإهمال الباراسايكولوجيا الغربية لمثل هذه الظواهر التي تحدث في البيئة العربية. إلا أن ما لا

مسوّغ مقبول له هو الإهمال التام لباراسايكولوجيا الغرب للظواهر الخارقة التي يستطيع بعض الأفراد السيطرة عليها واستعراضها. والظاهرة التي سأتطرق إليها هنا هي الظاهرة المعروفة بـ «الدرباشة» أو ما نطلق عليه تعبير «إصلاح الضرر الجسمي المتعمد» REPAIR OF DELIBERATELY CAUSED BODILY DAMAGE.

ومن ظواهر إصلاح الضرر الجسمي المتعمد:

أولاً: قيام الدرويش بإدخال أدوات حادة كالأسياخ والسيوف في مناطق مختلفة من جسمه، من دون أن تخضع الأدوات المستعملة لأية عملية تعقيم مسبقة. بل قد يلوث الدرويش أحياناً الأدوات التي يستخدمها بشكل متعمد قبل أن يدخلها في جسمه. أما أجزاء الجسم التي تستخدم في هذه الأعمال فتشمل الخدين، واللسان، وقاعدة الفم، وشحمة الأذن، والذراع، وعضلات الصدر، والبطن بمناطقها المختلفة. والأدوات التي تستعمل في هذه الأعمال تكون عادة معدنية وذات سمك أو أقطار مختلفة. إلا أنه عند استخدام أجزاءً رقيقة من الجسم، كالخدين وقاعدة الفم، قد يستبدل الدرويش الأداة المعدنية بعصا خشبية حيث يمكن إدخال العصا في تلك الأجزاء الرقيقة من الجسم باستخدام ضغط اليد، ومن دون أن تتكسر العصا.

ثانياً: يستخدم الدرويش مطارق مصنوعة عادة من الخشب، لإدخال خناجر في جوانب مختلفة من عظم الجمجمة، وكذلك في عظم الترقوة. ويقوم الدرويش أحياناً بطرق الخناجر في رأسه بنفسه، وفي أحيان أخرى يقوم درويش آخر بعملية الطرق. يُغرس الخنجر أحياناً إلى عمق يجعل إخراجه باليد غير ممكن بسبب ضغط عظم الجمجمة عليه، وأحياناً يؤدي الإصرار على سحب الخنجر بالقوة، طبعاً من قبل شخص آخر، إلى انفصال المقبض وبقاء نصل الخنجر في الرأس. إلا أن من المظاهر الغريبة في هذه الأعمال هو أن ترك الخنجر في الرأس لبضعة دقائق يؤدي إلى خروجه بشكل تدريجي بسحبه باليد أو بسقوطه تلقائياً إذا لم يسحبه أحد. كما تُستخدم ضربات خفيفة بالمطرقة لإدخال سكاكين وخناجر وأسياخ تحت العين مباشرة.

ثالثاً: يمضغ الدرويش ويبتلع قطعاً من زجاج مكسور، غالباً من قدح زجاجي أو شمعة إنارة. يتضمن ابتلاع زجاج شمعات الإنارة عنصر خطورة يضاف إلى خطورة الزجاج الجارح، هو سمية مادة الزئبق التي تطلى بها شمعات الإنارة. الشكل الآخر الذي يمارس من خلاله الدراويش هذا النوع من أعمال الدرباشة هو مضغ أمواس حلاقة غير مستعملة وابتلاعها. وتجدر الإشارة إلى أن الدرويش يمكن أن يقوم بممارسة أي عدد من أعمال الدرباشة أعلاه في الوقت ذاته.

إن أعمال الدرباشة لا تتضمن فعاليات إصلاح الضرر الجسمي المتعمد فقط، إذ إن الدراويش يمارسون أعمالاً أخرى نطلق عليها تسمية «مقاومة الضرر الجسمي المتعمد» RESISTANCE TO DELIBERATELY CAUSED BODILY DAMAGE لأن هذه الأعمال تبين قدرة خارقة للجسم على مقاومة الإصابة التي من المفترض أن تنتج عند التعرض لمؤثرات مؤذية معينة، أي إن الضرر لا يحدث أساساً في هذا النوع من أعمال الدرباشة، وهي بذلك تختلف عن النوع الأول من أعمال الدرباشة التي تتضمن إصلاحاً خارقاً لضرر جسمي قد تم إحداثه بشكل مقصود.



مقاومة النار من ممارسات الدرباشة

من مظاهر الدرباشة

تتمثّل ظواهر مقاومة الضرر الجسمي المتعمد في الطريقة الكسنزانية في الأعمال التالية:

أولا: مقاومة النار. هناك أشكال متعددة لمارسة هذه الأعمال، منها استخدام قطعة من القماش ملفوفة على عصا خشبية أو معدنية، تغمر في مادة سريعة الاشتعال كالنفط وتوقد فيها النار، ليقوم الدرويش بعدها بتعريض وجهه ويديه وأقدامه للهب النار.

الشكل الآخر لهذه الظاهرة هو تسخين صفائح معدنية حتى تصل إلى درجة الاحمرار، ثم يقوم الدراويش بحملها بأيديهم ووضعها بين أسنانهم. ومن الأشكال الأخرى حمل الدرويش بيد عارية لقطع من الفحم الساخن حتى الاحمرار ووضعها في فمه أيضاً.

ثانياً: مقاومة سم الأفاعي والعقارب: في هذه الأعمال يعرض الدراويش أيديهم للدغات عقارب وأفاع سامة. كما يعرضون ألسنتهم بشكل مقصود للدغات الأفاعي. وفي كثير من الأحيان، بعد أن يستعرض الدرويش هذه الأعمال يقوم بأكل رأس الأفعى أو التهام العقرب بالكامل.

ثالثا: مقاومة الصدمة الكهربائية، يعرّض الدرويش نفسه لعدة دقائق لتيار كهربائي عالي الضغط. يقوم الدرويش بإنارة مصباح كهربائي مرتبط بدائرة كهربائية تمر بجسمه.

من الواضح أن أعمال الدرباشة هذه تتضمن العديد من المظاهر الخارقة التي تتجاوز القدرات الاعتيادية للجسم البشري؛ وهذه المظاهر الخارقة هي المناعة ضد الألم، والمناعة ضد النزيف، والمناعة ضد الالتهاب. ففي خلال ممارسته لأعمال الدرباشة لا يعاني الدرويش من أي ألم، علما بأن من المفترض أن يكون هذا الألم غاية في الشدة، بسبب نوعية هذه الجروح وحساسية مناطق الجسم المستعملة. أما بخصوص المناعة ضد النزيف، فإن بضعة قطرات فقط من الدم تخرج عادة من الجرح وأحياناً يسيل خيط قصير من الدم من منطقة الجرح. ولخروج الدم من الجرح أهمية خاصة لأنه يشهد على حقيقة العمل الذي قام به، ويدفع عن الدرويش أي اتّهام من المشاهدين بعدم إدخال الأداة الجارحة في الجسم فعلاً أو ممارسة نوع من الخداع كاستخدام خفة اليد للإيحاء للناظر باختراق الأداة الجارحة لأنسجة الجسم. والجروح التي تسببها أعمال إصلاح الضرر الجسمي المتعمد المذكورة أعلاه يصاحبها في الحالات الاعتيادية نزف شديد في الجسم، بل إن المتوقع طبيعياً هو أن بعض حالات النزيف هذه يمكن أن تكون قاتلة. ومع أن الأدوات المستعملة لإحداث الإصابات في الجسم غير معقّمة، بل تكون أحياناً ملوثة بشكل مقصود، فإن جروح جسم الدرويش لا يصيبها التهاب.

أما عملية شفاء الجروح فهي أكثر غرابة من المناعات الخارقة، إذ تختفي جميع الجروح الناتجة من حماسيات الدرباشة خلال فترة قصيرة جداً من إخراج الدرويش الآلة الحادة من جسمه، بغض النظر عن موضعها في الجسم وحجمها. وبينما تلتئم غالبية الجروح ولا تكاد تبين بمجرد إخراج الآلة الحادة من الجسم، فإن التئام بعض الجروح قد يستغرق ١٥ ـ ٢٠ ثانية. وتلتئم بعض هذه الجروح من دون ترك أثر يمكن تمييزه بالعين المجردة فيما يترك بعضه الآخر ندبة صغيرة.

قد يظن فريق من الناس أن سبب إهمال



توارد الخواطر أحد أنواع ظاهرة الإدراك الحسّي المسبق

الباراسايكولوجيا الغربية لظواهر الدرباشة هو إهمال عام للظواهر الطبية الخارقة، إلا أن هذا الظن في الواقع غير صحيح. فمع أن الظواهر الطبية الخارقة لم تحصل على قدر من الاهتمام مساو لنظيراتها من الظواهر الخارقة التقليدية، فإن العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة قد شهدت فعلاً اهتماماً متزايداً بدراسة مختلف أنواع الظواهر الطبية الخارقة التقليدية التي تُعرف عادة بظواهر «العلاج الخارق» psychic healing. إذ توجه كثير من الباحثين إلى دراسة قدرة بعض الأفراد الموهوبين على التأثير إيجاباً في الحالة الصحية لغيرهم من البشر عن بعد، ومن غير أن يلمسوهم أو يستعملوا عقاقير عُشبية أو كيماوية. وأكثر ممارسات العلاج الخارق انتشاراً هي الظاهرة المعروفة بـ «وضع اليد» LAYING ON OF HANDS، ويقوم خلالها المعالج بمحاولة التأثير في الحالة الصحية للمريض بمجرد وضع يديه قريباً من جسم المريض.

وذهبت الدراسات العلمية لظاهرة العلاج الخارق إلى أبعد من دراسة تأثير هؤلاء الموهوبين في حالات مرضية بشرية معينة، فقد ظهر الكثير من الدراسات حول تأثير هؤلاء المعالجين الموهوبين في مختلف المنظومات الحيوية (البايولوجية). ويشير وليم برود WILLIAM BRAUD، أحد الباحثين البارزين في مجال العلاج الخارق، إلى «أن البحوث العلمية قد بينت أن هناك أشخاصاً استطاعوا التأثير، عقلياً وعن بُعد، في أهداف مختلفة من المنظومات البايولوجية، من ضمنها البكتريا، ومستعمرات الخميرة، ومستعمرات الفطر، والطحالب المتحركة، والنباتات، والبرزويات [حيوانات وحيدة الخلية]، واليرقات..والنمل، وأفراخ الدجاج، والفئران، والجرذان، والعضل، والقطط، والكلاب، إضافة إلى مستحضرات خلوية (كخلايا الدم، والخلايا العصبية، وخلايا السرطان)، وفعالية الأنزيمات. كما أمكن التأثير في جسم الإنسان مثل حركات العين، وفعالية الجهاز الحركي، والفعالية الكهربائية للجلد، وحجم الأطراف [عن طريق تغير ضغط الدم]، والتنفس، وأمواج الدماغ».

إن ظواهر العلاج الخارق التي يدرسها الباحثون في المختبر لا يمكن على الإطلاق مقارنتها بالشفاء الفوري الخارق لجروح عميقة وخطيرة كالذي يحدث في أعمال الدرباشة. ولكن إذا كان الباحثون مشغولين بالبحث عن أي تأثير لظاهرة العلاج الخارق، وهذا اهتمام يشهد له العدد المتزايد من البحوث في هذا المجال، فما الذي يجعلهم يتجاهلون ظواهر الدرباشة التي تظهر فيها آثار العلاج الخارق بأقوى أشكاله، والذي لا يمكن على الإطلاق أن توازن به التأثيرات المحدودة في تجارب الباراسايكولوجيا؟ إن من غير الممكن إيجاد أي تسويغ لهذا الموقف المتجاهل لظواهر الدرباشة الخارقة. بل إن موقف الباراسايكولوجيا الغربية هذا يبدو أكثر غرابة إذا أخذنا بنظر الاعتبار إحدى الخواص الأساسية التي تمتلكها الأعمال الدرباشة وهي صفة «التكرارية».

ومن المهم هنا التأكيد أن الباراسايكولوجية الغربية لم تهمل كل الظواهر الخارقة التي تحدث في بيئة غير غربية، وإنما كانت انتقائية في اختيار الظواهر التي تهملها. إذ قامت الباراسايكولوجية الغربية فعلاً بدراسة الكثير من الحالات والظواهر الخارقة التي تحدث في بيئات غير غربية، مما يؤكد أن إهمالها لظواهر الدرباشة هو إهمال استثنائي مقصود. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فمع بداية بحوث العلاج الخارق في الغرب الأوربي والأمريكي، بدأت في الخمسينيات حركة بحث ناشطة تناولت بالدراسة التأثيرات العضوية (الفلسجية) للعديد من ممارسات التأمل كاليوجا والتأمل المتعالي وغيرها. وكانت حركة البحث هذه جدية ومستمرة حتى إنها تحولت إلى فرع جديد في الدراسات الطبية هو «الطب السلوكي» BEHAVIORAL MEDICINE، الذي من رواده طبيب جامعة هارفرد الأمريكية الشهير هيربيرت بينسون.



الباراسايكولوجيا الغربية عنيت بالممارسات التأملية

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

مجلة الدراسات اللغوية

فصلية محكمة تعنى
بدراسات النحو والعروض
واللسانيات وعلم الدلالة

المجلد الأول - العدد الأول - محرم ١٤٢٠ هـ
إبريل/نيسان ١٩٩٩م



القوتلي، محمد نبيل/ بحث مختصر في أنساب العرب.. بيروت: دار البشائر، ١٤١٩/١٩٩٨، ج٢.

صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب، وتناول فيه مؤلفه أنساب عدنان (من العرب المستعربة)، وجعله في ثلاثة أقسام وملحق، أفرد القسم الأول لولد نزار بن معد بن عدنان، وخصص القسم الثاني لولدي إلياس بن مضر بن نزار (طابخة بن إلياس وقمعة بن إلياس). بينما تناول في القسم الثالث أنساب قيس عيلان بن مضر بن نزار.

وأما الملحق فيتضمن بحثًا مختصراً عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم.



إبراهيم، محمد محمود/ نظام الطعن بالتمييز في المملكة العربية السعودية.. الرياض: معهد الإدارة العامة، ١٤٩١هـ - ١٩٩٨م، ٤١٧ص.

قدّم المؤلف في هذا الكتاب شرحًا وافيًا ومفصلاً لنظام الطعن بالتمييز في النظام القضائي السعودي منذ عهد المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود مستعرضًا التطور الذي طرأ على هذا النظام خلال عهود أصحاب الجلالة الملك سعود، والملك فيصل، والملك خالد، وحتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد حفظه الله.

والكتاب يقع في خمسة فصول:

الفصل الأول: تطور فكرة الطعن بالتمييز في النظام القضائي السعودي.

الفصل الثاني: إجراءات الطعن بالتمييز لدى القاضي مصدر الحكم المطعون فيه.

الفصل ثالث: إجراءات نظر الطعن لدى محكمة التمييز.

الفصل الرابع: نظر محكمة التمييز للطعن وقرارها القضائي فيه.

الفصل خامس: الوسائل النظامية الأخرى للاعتراض على الأحكام.



البدري، حسن أحمد/ حرب التواطؤ الثلاثي. تأليف/ حسن أحمد البدري، فطين أحمد فريد.. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٧م، ٧٩٠ص.

ألّف اللواء حسن البدري، وتلميذه العقيد فطين أحمد فريد هذا الكتاب بمناسبة مرور أربعين عامًا على حرب العدوان الثلاثي على مصر في خريف عام ١٩٥٦م، بعد أن تكشفت لديهم حقائق كثيرة من خبايا ذلك العدوان، فجاء الكتاب عرضًا أمينًا وموثقًا لأحداث تلك الحرب وملابساتها والتي قادتها مصر ضد العدوان الصهيوني الأنجلو فرنسي.



الطبيب، أحمد محمد/ الإدارة التعليمية: أصولها وتطبيقاتها المعاصرة.. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٩م، ٣١٧ص.

يعدّ علم الإدارة من العلوم الحديثة التي لم تحظ بنصيبها من الاهتمام إلا مؤخراً، حيث ثبتت ضرورتها، والحاجة إليها؛ لذا عقد المؤلف العزم على تأليف هذا الكتاب الذي تناول فيه ماهيّة الإدارة، وأصولها وأسسها، وعلماءها ونظرياتها لتكون مدخلاً لدراسة الإدارة التعليمية والمدرسية، والإشراف والتخطيط التربوي، متعرضًا فيه للاتجاهات التربوية الحديثة، والمبادئ والأفكار التي تنادي بها هذه الاتجاهات.



عمّار، محمود إسماعيل/ الأخطاء الشائعة في استعمالات حروف الجر.. الرياض: دار عالم الكتب: ١٤١٩هـ/١٩٨٨م، ٢٤١٧ص.

وجد المؤلف أن حروف الجر في لغتنا المعاصرة جرى التوسع فيها، عمّا عهدته العربية من استعمالات ومعان وتراكيب، حتى أصبحت لبعض الحروف معان جديدة لم تعرف عند القدماء من أهل اللغة الذين اهتموا بتدوين اللغة وتقْعيدها؛ لذلك حاول المؤلف رصد الاستعمالات الخاطئة لبعض أحرف الجر في لغتنا المعاصرة والتنبيه عليها.



مبارك، علي باشا/ الميزان في الأقيسة والأوزان.. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٨م، ١٤٩ص.

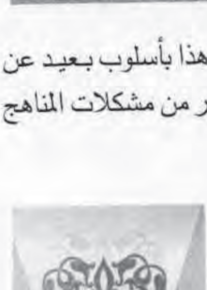
الأقيسة على اختلاف أنواعها هي القطب الذي تدور عليه رحى المعاملة فيما بين الناس، وينضبط بها أمر التبادل العام بينهم، وقد أدرك المؤلف أهمية هذا الأمر، فألّف كتابه هذا الذي وضح في مقدمته الأقيسة المصرية القديمة، بينما خصص الباب الأول للأوزان عند الأمم السابقة مبتدئًا

بالعبرانيين، فالبطالمة، فالرومانيين، ثم العرب، وأسلمه هذا إلى الباب الثاني الذي خصصه للمكاييل عند هذه الأمم على الترتيب السابق، بينما دار محور الكلام في الباب الثالث على مكاييل مصر في الوقت الحاضر مع تخصيص خاتمة للحديث عن الأذرع.



الحارثي، إبراهيم أحمد مسلم/ تخطيط المناهج وتطويرها من منظور واقعي.ـ الرياض: مكتبة الشقري: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٣٤١ص.

تناول المؤلف في هذا الكتاب الطرق العلمية في تطوير المناهج من خلال خبرته الطويلة وعمله في هذا الميدان في عدد من الدول العربية، وقد صاغ كتابه هذا بأسلوب بعيد عن التنظير، قدم فيه حلولاً جذرية وعملية لكثير من مشكلات المناهج في بلادنا العربية.



الربيعي، محمود/ في نقد الشعر.ـ القاهرة: دار غريب للطباعة، ١٩٩٨م، ٢٠٠ص.

تناول هذا الكتاب مفهوم الشعر وغاياته، واستعرض آراء أهم نقّاد الشعر في الأدبين العربي والعالمي، أمثال: أرسطو، وأفلاطون، وهوراس، ودني، وبوب، وشكري، والعقاد، والمازني، وغيرهم.

وقد جمع الكتاب بين العرض المستقصي والتحليل الوافي معتمداً على مصادر أصلية، وأورد في آخره بعض المصطلحات المستعملة في نقد الشعر.

الكتاب يقع في ستة فصول وخاتمة.



محمد، حمادي بن علي / أوائل المطبوعات السعودية: قائمة مختارة.ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، ١٥١ص.

يضم الكتاب الذي أُخرج بشكل أنيق حصراً لمئة عنوان من الكتب التي طُبعت على نفقة الملك عبدالعزيز ـ طيّب الله ثراه ـ كما يقع في صلب الكتاب التعريف بمجموعة منتقاة لمئة عنوان من الكتب النادرة والمبكرة، مما صدر في المملكة وعنها منذ عام (١٣٠١ ـ ١٣٧٣هـ) وتقتنيه المكتبة الوطنية.

ويأتي هذا الإصدار التذكاري متزامناً مع تنظيم معرض الكتاب السعودي خلال مئة عام الذي تقيمه المكتبة ضمن الاحتفال بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية.



المطلق، سليمان بن أحمد/ قفوا مع التاريخ: مناسبات ومساجلات.ـ الطائف: د.ن: ١٤١٨، ٢٥١ص.

هذا ديوان من نظم الشاعر قبيل وفاته ضمّ ألمع القصائد التي تغنّى بها الشاعر للمليك وولاة الأمر في هذا الوطن الغالي وغيرها من القصائد الجميلة.



هيجان، عبدالرحمن بن أحمد بن محمد/ ضغوط العمل: مصادرها ونتائجها وكيفية إدارتها.ـ الرياض: معهد الإدارة العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٤٧١ص.

يتضمن الكتاب دراسة وافية مدّعمة بالنماذج والأشكال والجداول عن ضغوط العمل: أسبابها ونتائجها وكيفية إدارتها. وقد ربط فيه المؤلف بين المفاهيم السيكولوجية والإدارية المتعلقة بضغوط العمل، ساعده في ذلك دراساته الأكاديمية وخلفيته العلمية والتطبيقية.

الكتاب موجّه إلى القارئ العربي العادي والمتخصص، ويقع في أربعة أجزاء تتضمن عشرة فصول وخاتمة.



مكتبة الملك فهد الوطنية/ كشاف معجم المؤلفين لكحالة.ـ الرياض: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ٤ أجزاء، ٢٤١٨ص.

يقع الكشاف في أربعة أجزاء، ويحوي ما مجموعه (١٩١٠٠) مدخل لأسماء الأعلام الذين وردت تراجمهم في ثنايا الأجزاء الخمسة عشر ومستدركاتها من كتاب معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.

وقد رُتبت مداخل الكشاف ألفبائيا ترتيباً دقيقاً حسب الأسماء الأولى بعد تصحيح ترتيبها، إذ كان الترتيب غير سليم في المعجم، مع الإشارة إلى مواقعها من الجزء والصفحة، مما يُسهل على الباحثين الوصول إلى الأسماء المستهدفة دون عناء مراجعة كل الأجزاء ومستدركاتها لكتاب معجم المؤلفين.

ويأتي هذا الإصدار تحت رقم (٣٤) ضمن السلسلة الثالثة من مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، التي تختص بنشر الكشافات والببليوجرافيات والفهارس.

حماية حقوق المؤلف بين النظرية والتطبيق

د. تركي صقر مراجعة: جان ألكسان

يتناول الدكتور تركي صقر مؤلف كتاب «حماية المؤلف بين النظرية والتطبيق» موضوعا من أبرز الموضوعات الثقافية الشائكة، وهو المتمثل في حقوق المؤلف، فيعالج بأسلوب علمي رصين الطبيعة القانونية لحقوق المؤلف التاريخية في إطار النظريات القانونية، وحدود الحماية القانونية، والمصنفات الأدبية، وشروط حمايتها وأحكامها، والحقوق الاعتبارية والمالية للمؤلف، ومن ثمّ الوضع القانوني لحق المؤلف في سورية.

واللافت للانتباه في هذا الكتاب هو المشروع القانوني لحماية حقوق المؤلف، والمقترح من الكاتب، وتسليطه الضوء على المبدعين والمفكرين؛ وبهذا نرى أن الكتاب مهم في بابه، ومرجع لموضوع حماية حقوق المؤلفين، وصيانة الروح الإبداعية لديهم، سواء أكانوا كُتاباً أم فنانين، ومحاولة جريئة للدعوة لرفع الحيف والظلم الواقعين على المؤلف بعامة.

والمعروف أن التشريعات التي صدرت في مختلف دول العالم بعد ظهور عصر الطباعة والرامية إلى حماية حق المؤلف مستندة إلى قانونها الداخلي، وإلى الاتفاقيات الدولية لحماية الإبداع، ومنع الاعتداء على نتاج الفكر، وعدم تركه عرضة للسرقات والاستغلال لمصلحة غير أصحابه، وركزت هذه التشريعات على المبدأ القائل: إن المؤلف هو (صاحب الحق) في إنتاجه الفكري مع عدم إغفال مصلحة الجماعة، وحقّق عدد من هذه التشريعات التوازن بين مصلحة المجتمع ومصلحة المؤلف الفرد، وحددت القوانين الحقوق المحمية بأنها على المستوى المادي: حق النشر، والطبع، والتسجيل، والتصوير، والنسخ، والترجمة، والتحرير، والتعديل، والتلخيص، والتوزيع، والاقتباس، والعرض في الأماكن العامة، والعرض التلفازي والإذاعي، وإعادة البث.

كما حددت القوانين الخاصة بحماية حق المؤلف الحقوق على الصعيدين المادي والمعنوي، فجعلتها تشمل نسبة العمل إلى المؤلف، ومنع أي عمل من شأنه الإساءة إلى سمعته، أو شهرته، أو مكانته الأدبية والفنية.

مشكلات جديدة

وفي ظل ثورة الاتصالات والتقنيات الإعلامية الحديثة برزت بشكل كبير الحاجة إلى حماية الحقوق الفكرية، وبخاصة حقوق المؤلف، فالشكوى لم تعد تقتصر على سرقة هذا الكتاب أو ذاك المقال، وإعادة نسخه أو نسبته إلى غير صاحبه، بل امتدت إلى أن عشرات محطات التلفاز الخاصة وغيرها باتت تعرض أفلاماً وبرامج ومسلسلات دون إذن من أصحابها أو منتجيها؛ مما أدى إلى منازعات قضائية كثيرة.

في الفصل الأول من الكتاب (وهذا تلخيص مكثف بسبب ضخامة الكتاب) يتحدث المؤلف عن الطبيعة القانونية

أخذت الملكية الأدبية والفنية تحظى بالاهتمام القانوني بعد أن كانت الحقوق غير الفكرية طاغية على ما عداها

لحقوق المؤلف من حيث النشأة التاريخية، ومن ثمّ النظريات القانونية والفلسفية التي وضعت الأطر الخاصة بهذه الحقوق كنظرية الملكية والنظرية الشخصية والنظرية المختلطة - ونظرية الحقوق الفكرية، وأيها أقرب إلى مفهوم حق المؤلف.

في الفصل الثاني تناول محل الحماية، وهو الشيء المادي الذي تقع عليه الحماية القانونية، فاستعرض المصنفات الأدبية والعلمية والفنية والموسيقية، وأشار إلى أمثلة ونماذج منها، مركزاً على أن جوهر الحماية ينطلق من وجود الإبداع والابتكار؛ لأن ذلك هو المحل الذي يستأهل موجبات الحماية القانونية، وأخذ بنظرة الفقه الإسلامي فوضع الإبداع والاختراع، وتفاصيل هذه المسألة كما رآها الفقهاء المسلمون.

وشرح في الفصل الثالث شروط حماية المصنفات: الشكلية منها والموضوعية، وأحكام هذه الشروط، وما يترتب على توافرها من مقتضيات قانونية تجعل الحماية مستوجبة على تلك المصنفات.

من هو المؤلف؟

ووقف الباحث في الفصلين الرابع والخامس على صفة المؤلف، والإجابة عن سؤال: من هو المؤلف؟ وما شروطه والحالات التي يكون فيها المؤلف مغيباً، كأن يستخدم الاسم المستعار، أو يخلو المصنف من وجود اسم المؤلف؟، وكذلك، شروط حماية عنوان المصنف لكونه جزءاً مهمّا من إبداع المؤلف.

ثمّ تطرق الباحث إلى حالة وجود أكثر من مؤلف للإنتاج، أي المساهمة في الإنتاج، ويقع ذلك أكثر ما يقع في المصنفات السينمائية، والتلفازية، والأعمال المسرحية، وبيّن أحكام الشراكة في هذه المصنفات وحقوق الشركاء.

وفي الفصل السادس تحدث مؤلف الكتاب عن حقوق التأليف، وأهمها حق النشر ومضمونه، وحق الأداء العلني، والعرض، وما يتوجب في كل حالة من هذه الحالات.

وفي الفصلين السابع والثامن تمّ التفصيل في الحق المالي للمؤلف في حياته، وكذلك بعد وفاته، وحقوق الموصى لهم، والورثة، ومدة الحماية للمصنفات، وأجرى المؤلف مقارنة قانونية لمختلف وجهات النظر الحقوقية بصدد هذا الموضوع، واستند محوريا في ذلك كله إلى التشريع المصري لكونه الأكثر عراقة في هذا المجال.

وفي الفصل التاسع يشرح حقوق المؤلف المعنوية، الملاصقة لشخصية المؤلف، والتي لا يجوز التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، وعدّد هذه



حماية حقوق المؤلف
بين النظرية والتطبيق
تركي صقر
دمشق: اتحاد الكتاب العرب.



الأفلام أصبحت محل منازعات قضائية كثيرة

الحقوق، وأجرى مقارنة قانونية لحالاتها، والأوضاع المختلفة التي يستفيد منها المؤلف، كعدم الحجز على مؤلفاته، والحق في سحبها من التداول.

وخصص الفصل العاشر للحماية المدنية والجزائية لحق المؤلف، أي ما يترتب على الآخرين من جزاءات تعويضية، وعقوبات وغرامات في حال الاعتداء على حق المؤلف من سرقة وتزوير وتقليد وتلاعب، وكذلك الأصول والإجراءات المتبعة لإيقاع هذه الجزاءات، والمحاكم المختصة بذلك.

وفي الفصل الحادي عشر والأخير يقف الباحث عند الوضع القانوني لحق المؤلف في سورية، مستعرضاً ما جاء في قانون المطبوعات العام حول حق المؤلف، وكذلك قانون العقوبات العام والقانون المدني، ثمّ استعرض مشروع قانون حق المؤلف المقترح، والملاحظات على هذا المشروع الذي لم يصدر بعد.

وقد أرفق المؤلف الكتاب بأربعة ملاحق:

- الملحق الأول: اتفاقية برن لحماية المصنفات الأدبية والفنية: والمعروف أن الدول التي تسري عليها هذه الاتفاقية تشكل اتحاداً لحماية حقوق المؤلفين على مصنفاتهم الأدبية والفنية.

- الملحق الثاني: أحكام خاصة بشأن البلاد النامية: وهي ثمرة التعديل الذي تمّ في باريس عام ١٩٧١م لتمكين بعض بلاد الاتحاد من أن تتجنب في حالات معينة، بشروط معينة، وخلال مدة معينة - الحدود الدنيا للحماية المنصوص عليها في الاتفاقية.

- الملحق الثالث: الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف.

- الملحق الرابع: موجز اتفاقية (الغات) حول الملكية الفكرية (تريبس).

وهكذا نجد أنه نتيجة تطور المجتمع البشري، وارتقاء الوعي والأفكار، أخذت الملكية الأدبية والفنية تحظى بالاهتمام القانوني بعد أن كانت الحقوق غير الفكرية طاغية على ما عداها؛ مما دعا إلى ضرورة تقنين الحقوق الفكرية، وإصدار القوانين اللازمة لحمايتها، وتطور الوضع كثيرا بعد أن تنادت دول كثيرة لوضع الاتفاقيات الدولية لحماية المؤلف ليس على النطاق الداخلي فحسب، بل على الصعيد الدولي، انطلاقا من مقولة أن الفكر لا يعيش معزولاً، ولا تستطيع الحدود أن تمنعه من الانتشار والانطلاق.

في ظل ثورة الاتصالات، لم تعد الشكوى قاصرة على سرقة كتاب أو مقال، وإنما امتدت إلى عشرات المحطات التلفازية التي تعرض أفلاماً وبرامج ومسلسلات من دون إذن منتجيها

وقد أعطت قوانين حماية حق المؤلف المؤلفين الذين يشعرون بأن أعمالهم قد سرقت أو على وشك السرقة، الحق في مراجعة القضاء أمام قاضي الأمور المستعجلة ليطلبوا اتخاذ الإجراءات كافة التي تمنع حصول الاعتداء، أو وضع حد للاعتداء الذي يكون قد بدأ مع حقهم في المطالبة بالتعويض في حال الضرر. وفرضت عقوبات بالسجن تراوح ما بين ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات للذين يعتدون على الحقوق الأدبية والفنية مع غرامة مادية تتضاعف في حال تكرار المخالفة.

لقد أضحت الملكية الفكرية ذات أهمية بالغة في عصر التواصل الحضاري والإنساني السريع بين الأمم والشعوب، وكذلك داخل المجتمعات ذاتها، وفي الوقت نفسه باتت حماية هذه الملكية من الاعتداء والسطو والتزوير والسلب والنهب موضع اهتمام الدول والأنظمة والتشريعات المختلفة؛ حماية للإبداع والمبدعين، وحفاظاً على حقوقهم وثمرات إنتاجهم الفكري.

وإذا كانت الملكية الصناعية تحكمها قواعد قانونية تدور حول الاقتصاد والصناعة كون هذه الملكية هي للاختراعات؛ فإن الملكية الفكرية تتعلق بالمبتكرات الفنية، كالقصائد، والروايات، والمصنفات الموسيقية والتصويرية والسينمائية، ويعني مصطلح حق المؤلف COPYRIGHT حقوق المؤلف في معظم اللغات الأوربية، خلاف اللغة الإنجليزية، ويشير هذا المصطلح إلى أن العمل الأساسي الذي يجوز للمؤلف وحده أن ينجزه، أو يجيز إنجازه بتصريح منه فيما يتعلق بالمبتكرات الأدبية والفنية.

وهذا العرض المكثف للكتاب وفصوله يؤكد أهميته؛ لأنه يسلط المزيد من الضوء على هذا الجانب الأساسي من عمل المبدعين والمفكرين، وقد قدم مؤلف الكتاب ما يوجب الاهتمام بموضوع حماية حق المؤلف، إذ بات ضرورياً أن ترتسم الحدود والمسؤوليات القانونية للملكية الأدبية والفنية، وتتمتع بقانون متطور ومتجاوب مع معطيات العصر.

المدرسة والتمدرس

محمد منير مرسي مراجعة: محمد حيان الحافظ

لم يُعدّ مفهوم «التمدرس» من المفاهيم التي استخدمت بكثرة في أدبيات التعليم. وهو تعبير عن تطور العملية التعليمية، وتحولها إلى نظام متكامل له جوانب إدارية وقانونية وتربوية. فالتمدرس يشمل نظام التعليم بكل جوانبه، والتعليم بوصفه أحد مكونات عملية التمدرس. وهذا الكتاب «المدرسة والتمدرس» يسلط الضوء على الأبعاد المختلفة لمفهوم التمدرس، والتحديات التي تواجه التمدرس في الأقطار العربية. ومؤلفه ذو خلفية أكاديمية ومهنية رصينة أفادته في حسن عرض الموضوع، وتقديم حلول للمشكلات المطروحة فيه. فالمؤلف أستاذ بكلية التربية في جامعة عين شمس، وكان المدير المؤسس لمركز البحوث التربوية بجامعة قطر منذ إنشائه عام ١٩٨٠م حتى أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٠م، وله عدة إصدارات ودراسات وبحوث في مجال التربية.

يشتمل الكتاب على سبعة فصول: يتناول الفصل الأول معنى التمدرس وأبعاده. فالتمدرس هو كل ما يتعلق بتنظيم عملية التعليم والتعلم داخل المدرسة من أصول تشريعية وقانونية، ومستويات ومراحل تعليمية، وبرامج ومناهج، وأساليب تعليم وكتب، ومعلمين وأنشطة متنوعة ذات صلة. ويقوم التمدرس في مفهومه التقليدي على أساس فتح نوافذ المعرفة أمام التلاميذ في إطار المواد الدراسية بالاعتماد على تقانة الكتب المدرسية وشرح المعلم. وعلى النقيض من ذلك الفكر التربوي التقدمي الذي ازدهر في الولايات المتحدة منذ الثلاثينيات، والذي يقوم التمدرس فيه على أساس تقديم مقررات دراسية متكاملة للتلميذ، وعلى المشاركة الإيجابية للتلميذ في العملية التعليمية مع الاهتمام بتنمية القدرات الإبداعية لدى التلاميذ.

ووفقًا للمؤلف، فإن نظرية التمدرس قد تأثرت بشدة منذ القرن الثامن عشر حتى أيامنا هذه بالأفكار والآراء المعرفية (الإبستمولوجية) والنفسية (السيكولوجية) التي تتعلق بالعقل البشري، وتزايدت النظرة التجريدية المعرفية إلى التلميذ نتيجة لتزايد المعرفة في عالمنا المعاصر الذي يتصف بأنه عصر الانفجار المعرفي. ثم استعرض المؤلف نظريات التمدرس التي ظهرت خلال القرن العشرين وما يتصل بها من تطبيقات وممارسات، وأهم المبادئ التربوية للتمدرس.

الزمن والتمدرس

وفيما يتعلق بعامل الزمن، يرى المؤلف أن الوقت يؤدي دوراً مهمًا في عملية التمدرس، لكنه ليس العامل الوحيد وأن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن عامل الزمن مهم لإتمام نضج المعلم، وأن التدريب الموزع أفضل من التدريب المركز في أنه أبقى وأدوم. ومع ذلك، فهناك دلائل على وجود فاقد أو هدر في الزمن المستغرق في التعليم، مما يستوجب تطبيق التدريب المركز أو المكثف.

فقد أشارت بعض الدراسات التي



المدرسة والتمدرس
محمد منير مرسي
القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٨م، ١٧٥ص.

مع أن الوقت عامل مهم في عملية التمدرس، إلا أنه ليس العامل الوحيد

أجريت على التعليم الأمريكي إلى أن التعليم المتحصل على مدى اثنتي عشرة سنة من الدراسة لا يعادل إلا ثماني سنوات فقط. ويشير المؤلف إلى أن زمن التمدرس يُعد من الميادين التي شهدت إصلاحات عدة في مختلف دول العالم، شملت إطالة مدة التعليم الإلزامي، وإطالة اليوم الدراسي، وعدد ساعات الدراسة، وإطالة مدة بقاء التلاميذ في المدرسة، وتمكين التلاميذ الذين يريدون مواصلة الدراسة بعد سن الإلزام من الاستمرار في التعليم في المدرسة.

ومن العوامل التي تؤثر في عملية التمدرس، البيئة التربوية بشقيها المادي والبشري، ويجب تهيئتها بما يكفي لإنجاح العملية التعليمية. فمثلاً، يجب أن تعكس

على المربّين تهيئة الأطفال للتمدرس ليقبلوا على التعليم بروح إيجابية ناشطة

المناهج المدرسية أحدث تطورات المعرفة في الوقت الراهن، وأن يكون الكتاب المدرسي عصريًا مثيرًا لحب الاستطلاع والبحث، وأن يكون المعلم معدًا جيدًا من الناحية العلمية والمهنية. ويقتضي ذلك التركيز على أهمية دراسة تاريخ التربية وفلسفتها للمعلم، وجعلها من المواد الأساسية التي لا غنى عنها في برنامج إعداده في كليات التربية.

مفاهيم أساسية

يدور الفصل الثاني حول علاقة التلميذ بالتمدرس. فالتلميذ هو محور العملية التربوية، وعليه أن يمتثل لنظام المدرسة وقواعدها، وأن يكون منضبطًا طوال اليوم المدرسي.

ويرى المؤلف أن التربية، بوصفها عملية نمو لقدرات التلميذ، ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمفهوم النضج والاستعداد والاهتمام؛ وهي المفاهيم الأساسية التي تشكل البنية الأساسية لتعليم التلميذ في المراحل التعليمية المختلفة، وأنه يتعين على المعلم أن يضعها دائمًا في حسبانه كموجهات لعملية التعليم والتعلم في حجرة الدراسة.

ويحث المؤلف المربِّين على تهيئة أطفالهم للتمدرس ليقبلوا على التعليم بروح إيجابية نشيطة، ويمكن تحقيق ذلك بتشجيعهم على الكلام في سن مبكرة، وعلى تنمية مفرداتهم اللغوية، وعلى تنمية ملكة التفكير لديهم، كما يجب أن تولد المدرسة في نفوس الشباب اهتمامات مفيدة في شغل وقت الفراغ عن طريق هوايات مثل الرسم والتصوير والتمثيل والأشغال اليدوية وممارسة الرياضة البدنية، وهو ما يتطلب توفير الأندية الثقافية والرياضية وحمامات السباحة ومراكز الترفية المفيدة وساحات اللعب.

جماعية القيادة

يدور الفصل الثالث حول المدرسة بوصفها وعاء للتمدرس. أوضح فيه المؤلف أن المدرسة يجب أن تخدم أغراض المجتمع، وتعمل في حدود الإطار الذي رسمه لها. ومن جهة أخرى، فإن المدرسة في دول العالم النامي - ومنها الأقطار العربية - تعد الجهاز الفكري (الأيديولوجي) للدولة، وتسخر لخدمة أغراضها ومراميها. ولذلك فإن المقررات الدراسية تعكس رغبات الدولة، وتنسجم مع سياستها العامة.

وفقًا للمؤلف، فإن عملية التمدرس تستلزم ضرورة توافر نظام جيد للاتصال، ونظام لحفظ السجلات والتقارير. ويرى أن المدرسة العصرية الحديثة تقوم إدارتها على جماعية القيادة من خلال المجالس واللجان، وجماعية اتخاذ القرار والمشاركة والتمثيل في المجالس واللجان، وفي عملية اتخاذ القرار.

يتناول الفصلان الرابع والخامس المرحلتين الابتدائية والثانوية بشيء من التفصيل. فقد استعرض المؤلف فيهما اهتمامات الطفل في المرحلة الابتدائية، وخصائصه السلوكية، وتأثير نمط شخصية التلميذ في تقدمه وتحصيله في المواد الدراسية المختلفة، والأنماط العامة للتدريس في التعليم الابتدائي، وأساليب التعليم والتعلّم التي أهمها طريقة الموضوعات أو المشروعات. وتتضمن قيام التلاميذ أنفسهم بالبحث عن المعلومات في المصادر والمراجع المختلفة، مثل دوائر المعارف، والكتب الموسوعية الكبيرة. ومن مميزات هذه الطريقة أنها تقوم على العمل التعاوني الجماعي للتلاميذ.

وبالنسبة إلى التعليم الثانوي فإنه يماثل التعليم الابتدائي في الأهداف التي تتمثل في تنمية مختلف جوانب شخصية التلميذ مع الامتداد والتوسع، بالإضافة إلى أهداف أخرى تشمل:

- تنمية الانتماءات الصحيحة، وهي انتماءات وطنية عربية إسلامية إنسانية.
- مساعدة التلميذ على تكوين فلسفة رشيدة موجهة له في الحياة.
- تنمية الميول والاهتمامات والهوايات الرياضية والعملية الفنية والموسيقية والمسرحية والثقافية والاجتماعية وما شابهها.

ويشير المؤلف إلى أن التقدم التقاني في هذا العصر يعتمد على علم الفيزياء، وعلم الأحياء وما يتصل به من الهندسة الوراثية، وعلوم الرياضيات، والحاسب الآلي. وهذا ما يستلزم أن يعير منهج المدرسة الثانوية أهمية كبيرة لتدريس هذه العلوم.

وينتقد المؤلف ما يحدث في العالم العربي من تدريس بعض المواد كالكيمياء باللغة الإنجليزية بدعوى التجديد

والإصلاح، ويرى أن هناك فرقًا بين تعلم اللغة الإنجليزية ودراسة المادة باللغة الأجنبية.

مواصفات سلوكية

يدور الفصل السادس حول المعلم بصفته مصدر عملية التمدرس. ولكي تنجح العملية التعليمية، فإنه لابد من توافر المدرس الذي يتمتع بالكفاءة المهنية. وتشير بعض الدراسات إلى أن أهم المواصفات السلوكية للمعلم الناجح هي: وضوح عرض الدرس، والحماسة، وتنويع أنشطة الدرس، واستثارة تفكير التلاميذ، والنقد الموضوعي، واستخدام التعليقات المخططة أو المعدة سلفًا في بداية الدرس وفي أثنائه.

وفيما يتعلق بإستراتيجية التعلّم، فإن التعلّم الجماعي التعاوني أجدى نفعًا من التعلّم الفردي؛ لأنه يحسّن أداء التلاميذ وإنتاجهم.

يتناول الفصل السابع التمدرس في البلاد العربية، الذي يأخذ صورًا متعددة يندرج بعضها تحت ما يسمى بالتعليم النظامي، وبعضها الآخر تحت ما يسمى التعليم غير النظامي. ووفقًا للمؤلف، فإن دور الدولة في التعليم قد تزايد في مختلف الأقطار العربية، وإن الاتجاه العام في هذه الدول هو زيادة الفرص التعليمية، وإتاحتها أمام مختلف فئات الشعب. وقد تضمنت الدساتير والتشريعات العربية بنودًا ومواد تتعلق بإلزامية التعليم ومجانيته، ولكن التعليم في العالم العربي قد تطور باتجاه الاهتمام بالكم على حساب الكيف، حيث تدهورت نوعية التعليم وجودته؛ وذلك بسبب عدم العناية بإعداد المعلم وبتحسين مضمون التعليم، وما يتصل به من منهج وكتاب وتقانة تعليمية. فمازالت المناهج الدراسية في العالم العربي دون المستوى المطلوب، ولا سيما كتب الثقافة العامة التي تشمل اللغة العربية بمختلف فروعها، والتربية الإسلامية، والمواد الاجتماعية.

وثمة ثغرات ونقائص أخرى في نظم التعليم العام في البلاد العربية يذكر منها المؤلف، أن مرحلة دور الحضانة ورياض الأطفال مع أهميتها وحيويتها ما تزال خارج نطاق السلم التعليمي.

تحولات مهمة

ومع أن هناك اهتمامًا متزايدًا من جانب كثير من الدول العربية بهذه المرحلة، وقيام الحكومات بتحمّل بعض المسؤوليات فيها، إلا أن معظم الجهود القائمة تعتمد على المدارس الخاصة.

ثم استعرض المؤلف أهم التحولات في التعليم العام في البلدان العربية.. ومن ذلك - مثلاً - إعادة تنظيم وهيكلة التعليم الثانوي - حيث أخذ يتخلى عن تعدد أنماطه ومدارسه التقليدية من أكاديمية، وفنية تجارية أو صناعية أو زراعية ليتوحد في إطار نمط واحد هو ما يعرف بالتعليم الثانوي الشامل أو الموحد. مع ذلك تظل هناك مشكلات مزمنة في هذه المرحلة التعليمية، ومازالت بلا حل وأهمها: كسر حدة علاقة التعليم الثانوي بالجامعة، وزيادة ارتباطه على اختلاف أنواعه بميادين العمل والإنتاج والتأهيل لكسب العيش، وتيسير تحويل التلميذ أو انتقاله من نوع إلى آخر من التعليم الثانوي، ومشكلات التشعب والمواد التخصصية. وفيما يتعلق بالمناهج الدراسية، يرى المؤلف ضرورة أن يتم تضمين مناهج التعليم الثانوي العلوم التي استحدثت كالحاسب الآلي، والأقمار الصناعية، وتقانة الإلكترونيات، والهندسة الوراثية.

وثمة مشكلة أخرى ألا وهي الرسوب والإعادة والإعاقة، والذي يمثل فاقدًا وهدرًا في التعليم لما يترتب عليه من ضياع الوقت والجهد والمال للدولة والطلاب على حد سواء. ولحل هذه المشكلة، يقترح المؤلف إلغاء امتحان الشهادة الإعدادية أو المتوسطة، وإعادة النظر في نظام امتحانات



العمل المشترك للتلاميذ سمة المدرسة المعاصرة

لا مسوغ لتدريس العلوم باللغة الإنجليزية، لأن هناك فرقًا كبيرًا بين تعليم الإنجليزية والدراسة بها

شهادة الثانوية العامة، بحيث تخف حدة الرسمية التي تضفي عليه وما يتصل بها من مهابة وخوف. وهذا يتطلب إعادة النظر في برنامج الدراسة في مرحلة الثانوي العام بحيث يتضمن دراسة مواد إجبارية في الثقافة العامة، ومواد اختيارية في المقررات التخصصية الأدبية والعلمية التي يختارها التلاميذ بتوجيه من المدرسة ومدرسيها. ويكون في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية مقررات اختيارية علمية وأدبية من مستوى رفيع يختار من بينها التلميذ المقتدر علميًا.

رحلة بروست إلى الحجاز عام ١٨٩٣هـ

أدريان بروست   مراجعة: سهيل صابان

تمتع السلطان عبدالحميد الثاني بقدر وافر من الثقافة لاطّلاعه على ما يكتب عن الدولة العثمانية، سواء في داخل أراضيها أو في الخارج، مما مكنه من اتخاذ التدابير الكفيلة بالاستمرار في الحكم مدة ثلث قرن في وسط ضباب كثيف من المؤامرات التي كانت مدبّرة لحكمه في داخل الدولة العثمانية وخارجها.

ومن تلك التدابير محاولاته الجادة الإبقاء على الوضع السائد في الجزيرة العربية، والعمل على تقوية نفوذ الدولة العثمانية في المناطق الخاضعة لها.. ولعل قيامه بالشروع في تمديد الخط الحديدي الحجازي، ومحاولاته الناجحة في تحسين علاقاته بشيوخ القبائل القاطنين في المناطق التابعة لها بالجزيرة العربية، وتركيز الاهتمام بالحرمين الشريفين في ظل سياسة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها، لعل ذلك كله دليل واضح على سياسة الاستمالة التي اتّبعها السلطان عبدالحميد الثاني من جهة، ونجاحه في نقل صراع الدول الغربية وروسيا على ممالك الدولة العثمانية من نزاع بينها وبين الدولة العثمانية إلى صراع حاد بينها، من جهة ثانية. ولم يكن ليتأتى ذلك للسلطان من دون الأخذ بما جاء في التقارير التي أعدها المفتشون العثمانيون، والرحالة الغربيون.

ومما يدل على ذلك الاهتمام أيضاً، المخطوطات الموجودة في مكتبة جامعة إستانبول التي تتناول مختلف الأوضاع بالحجاز في عهد السلطان عبدالحميد الثاني على وجه الخصوص. وكان كثير منها قدمت للسلطان عبدالحميد، بعضها باللغة العربية، وأخرى باللغة التركية، وقسم منها أيضاً



مارسيل بروست

مترجم من اللغة الفرنسية، منها هذا الكتاب الذي نعرفه. فجُلّ المخطوطات الموجودة بمكتبة جامعة إستانبول التي تخص الجزيرة العربية هي إما مهداة للسلطان عبدالحميد الثاني استئذاناً في طبعها، أو لمطالعته الشخصية، أو تقديم شيء يعطيه فكرة عن أحوال البلاد وأوضاعها(١).

وصف المخطوطة

هذه المخطوطة التي نتحدث عنها هي ترجمة القسم الخاص بالوضع الصحي في الحجاز من الكتاب الفرنسي الذي يقع في حدود أربعمئة صفحة - حسبما يذكرها المترجم أحمد نرمي، وهو أحد المترجمين العاملين في دار الترجمة التي كانت تقوم بالترجمة للسلطان عبدالحميد الثاني(٢)، وقد ألفه الرحالة الفرنسي بروست، الذي قام برحلة إلى الحجاز في موسم حج عام ١٨٩٣م.

تقع المخطوطة العثمانية للكتاب في مئتي صفحة من القطع المتوسط، ورقمها في مكتبة جامعة إستانبول ٤٦٣١، وهو مكتوب بخط الرقعة، ومقروء لمن يلم بقراءة الوثائق العثمانية، ويوجد في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض نسخة مصورة على ميكروفيلم ضمن المجموعة التي تم تصويرها من مكتبة جامعة إستانبول.

المؤلف

قام بتأليف أصل هذا الكتاب الطبيب الفرنسي بروست، وكان لرغبة أمين مكتبة الملك فهد الوطنية الأستاذ علي الصوينع في ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الأثر الكبير في محاولة الحصول على أصل الكتاب الفرنسي، وتحصيل معلومات -ولو يسيرة- عن المؤلف؛ وقد بحثنا عن الكتاب في فهارس الكتب الفرنسية، وفهرس كتب الكونجرس الأمريكي فلم نجد أدنى إشارة إليه، وسألنا المتخصصين فلم يكن لهم علم به، وكاتبنا المكتبة الوطنية الفرنسية لمعرفة مكان وجود المخطوطة إن كانت هناك مخطوطة بهذا الاسم، فأحالتنا إلى الأستاذ فرانسوا مورو - الأستاذ بجامعة السوربون، ومدير مجموعة البحث حول أدب الرحالة - فكاتبناه فجاء رده السريع مشكوراً في ٣ صفر١٤١٧هـ، وقد عرّف فيه بالمؤلف بروست على النحو الآتي:

«الدكتور أدريان بروست هو والد أديبنا الفرنسي المشهور مارسيل بروست الذي ألف قصته المشهورة: «البحث عن الزمن الضائع»، والدكتور بروست هو طبيب صحة عامة، ومتخصص في البحث عن أسباب

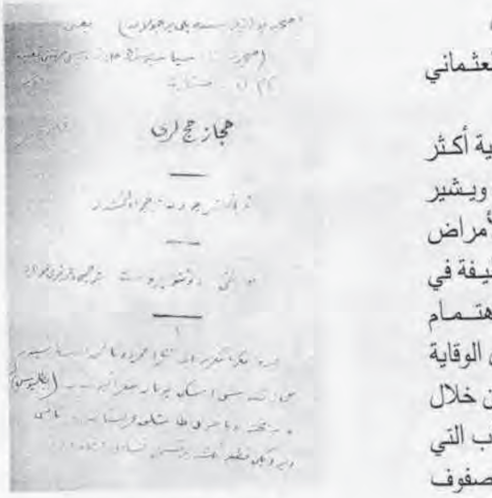
انتشار الأوبئة. وقد أرسل في عدد من المناسبات إلى المشرق في بعثات مراقبة صحية، من أجل أن يحدد طرق وصول الأوبئة، ويقترح وسائل تحدُّ من انتشارها بشكل واسع، وقد كان مبعوث فرنسا في المؤتمرات الصحية الدولية التي انعقدت في كل من فيينا (عام ١٨٧٤م)، وروما (عام ١٨٨٥م)، وفينيسيا (عامي ١٨٩٢ و١٨٩٧م)، وقد نشر كتاب: «دفاع أوربا ضد الكوليرا» (نشرهُ في باريس ماسون في ١٨٩٢م). كما نشر كذلك كتاب: «دفاع أوربا ضد الطاعون» (نشرهُ في باريس ماسون في عام ١٨٩٧م). وإثر إقامته في الجزيرة العربية عام ١٨٩٣م نشر مقالاً في مجلة «العالمين» في ١٥ مايو/أيار عام ١٨٩٥م، وعنوانه: «الحج إلى مكة وانتشار الأوبئة»(٣). كما أن ترجمة بروست موجودة في كتاب كلود فرنسيس، وفرناند فونتيني: «بروست وزملاؤه» المنشور من لدن بلوم عام١٩٨١م في باريس. ويمكن مراجعة الصفحة ٤٧ والصفحات التالية»(٤).

ظهر من هذه الترجمة التي وافانا بها الأستاذ فرانسوا مورو، أنه ليست هناك أي إشارة إلى الكتاب الذي ألّفه الدكتور بروست، سوى المقال الذي نشره تحت عنوان: «الحج إلى مكة وانتشار الأوبئة فيه». ونستبعد نشر كتاب يقع في أربعمئة صفحة في مجلة دورية؛ وذلك لكبر حجمه، وكون المعلومات الواردة في الكتاب جديرة بالنشر، لوجود موضوعات طريفة تعد غائبة عن الغربيين، ولا سيما الاحتكاك بالحجاج، ومرافقتهم للمشاعر الإسلامية المقدسة. ويستبعد كون الدكتور بروست مبعوثًا من السلطان عبدالحميد الثاني؛ لوجود الأطباء العثمانيين الأكفياء الذين أرسلهم السلطان فعلاً، وقدموا تقاريرهم الصحية المطولة إليه، مثل: التقرير الذي أعده شاكر - وهو طبيب عسكري برتبة قائمقام - وقدّمه إلى السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٣٠٨هـ بعنوان: «تقرير عن الأوضاع الصحية العامة في الحجاز ووسائل إصلاحها جذرياً مع بعض مشاهدات وملاحظات»، وهو باللغة العثمانية، وتوجد نسخة منه في مكتبة جامعة إستانبول تحت الرقم ٤٦٠٩.

منهج المؤلف في الكتاب

يتّضح من خلال قراءة النص العثماني المترجم من الكتاب:

- أنه يركز على النواحي الصحية أكثر من غيرها، حيث يفصّل فيها كثيراً، ويشير إلى الأسباب التي تؤدي إلى انتشار الأمراض الوبائية بين الحجاج، كنُدرة المياه النظيفة في جدة أو في مكة المكرمة، أو عدم اهتمام الحجاج بالنظافة، أو عدم توافر وسائل الوقاية الصحية من الأمراض التي تنتقل من خلال مياه الشرب، أو غيرها من الأسباب التي تؤدي إلى وقوع كثير من الوفيات في صفوف الحجاج.
- يذكر المؤلف المعلومات التي يوردها بدقة، سواء في الحديث عن جدة والحجاز بصفة عامة، أو عن المشاعر بصفة خاصة، والمعلومات الدينية المتعلقة بها؛ مما يدل بوضوح على مشاركته الفعالة في أعمال الحج مع الحجاج عام ١٨٩٣م. وبناءً عليه، فإن غالبية المعلومات التي يذكرها أدريان بروست هي لحج عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٣م، حيث يجري موازنة بينهما في شرح مختلف الأوضاع، ولا سيما الإحصاءات.
- لم توضع في الكتاب عناوين رئيسة أو جانبية، سوى عنوان في القسم الثاني عن زيارة المدينة المنورة، أمّا القسم الأول الذي يتكون من خمسة فصول فلم يفصل بينها إلا بالأرقام التي تميّز قسماً من آخر.
- يقدم الكتاب إرشادات صحية للحفاظ على حياة الحجاج، والطرائق المثلى في الوقاية من الأمراض. ولا شك أن محاولته المستمرة في ربط المشكلات التي يتعرض لها الحجاج كافة بالصحة تدل على انتسابه لهيئة صحية.
- يشير الكتاب إلى بعض المشكلات التي تتسبب فيها شركات الملاحة البحرية للحجاج، كتكديس الحجاج في سفنها، أو عدم مراعاة الوقاية الصحية، أو التنافس الشديد بين الشركات؛ مما يسبّب ضياع الحجاج بينها.
- يذكر الكتاب بعض المشكلات التي كان الحجاج يتعرضون لها من قبل البدو في أثناء تنقلاتهم في الحجاز.



رحلة بروست إلى الحجاز

أدريان بروست

ترجمه من الفرنسية: أحمد نرمي

مخطوطة من مقتنيات مكتبة جامعة إستانبول، رقم ٤٦٣١، ٢٠٠ص.

عرض موجز لمحتوى الكتاب

وسوف ندرج فيما يلي تلك المعلومات بشيء من التفصيل، مع الوحدة الموضوعية التي يفتقدها الكتاب؛ حتى يغني العرض عن الرجوع إلى الكتاب الأصل؛ وذلك لأن المعلومات الواردة في الكتاب مشتتة غير مجتمعة في وحدة موضوعية. ففي الصفحة الواحدة ينتقل المؤلف بين موضوعات متعددة، دون وجود أي ربط منطقي أو موضوعي بينها، إلا إذا أُريد التأكد من صحة المعلومات؛ وتسهيلاً لذلك سوف يُذكر رقم أو أرقام الصفحات التي وردت فيها المعلومة.

وقد أشرنا سابقًا إلى أن الكتاب يخلو من العناوين الرئيسة أو الجانبية. ولعدم تقيد النص العثماني بإيراد المعلومات تحت وحدة موضوعية، فقد عملنا على تقسيم البحث في هذا العرض إلى موضوعات رئيسة، ووضعنا لها العناوين الجانبية، وسردناها في وحدة موضوعية على النحو الآتي:

المبحث الأول: صور من الحياة الاجتماعية في جدة

التعريف بجدة:

ابتدأ المؤلف كتابه بتعريف مدينة جدة، فذكر أنها ميناء مكة المكرمة، وأنها تقع على



الحرم المكي قديماً

البحر الأحمر (ص١)، وأن المسافة بينها وبين مكة المكرمة تسعون كيلاً (ص٣١)، وأنها تقع شمال خط الاستواء بـ ٢١ درجة و ٢٨ ثانية (ص٦)، وأن لها أهمية تجارية كبيرة، غير أن جوها غير ملائم للسكن أو الإقامة فيها بشكل مستمر؛ بسبب الرطوبة العالية (ص٦). وأشار إلى أن منظرها من البحر رائع جدا، ولا سيما لأولئك الحجاج الذين يُحرمون من البحر بمجرد رؤية المدينة المغطاة بالبياض الناصع. وقد عدّ المؤلف جدة مهد الحضارة الإنسانية(ص٢)، غير أنها تخلو من أي أثر للنبات أو الشجر(ص٣)، أو حتى المياه العذبة(ص٤)، وذكر أنها مبنية على صخور صلبة، ولا يوجد بها أي مجرى للمياه(ص٦)، غير قناة عين زبيدة التي ترد من جبال الطائف الشاهقة(ص٣٦). كما أشار إلى أسوار المدينة، واصفاً إياها بأنها تشرف على الخراب(ص٧).

وصف المنازل وعدد السكان:

وصف المؤلف شوارع جدة وأزقتها بأنها ضيقة جداً، وأنها لا تشبه أي مدينة أخرى في العالم، بل إن شرفات المباني - على حد قوله - تجعلها أكثر ضيقاً، إلا أن تغطية تلك الأزقة بالحصر وألياف الأشجار تعدل ذلك الجو المشحون بالحر الشديد(ص٧). ووصف المنازل من الداخل بأنها مفروشة بأرقى الأثاث المنزلي، وأنه من الصناعات اليدوية الراقية؛ ولذلك فإن شراء تلك المنازل المبنية من خشب جلب خصوصاً من الهند غير ممكن، لغلاء السعر، كما أشار إلى أن أعمال الحفر تضفي على تلك المنازل طابعاً شرقيًا متميزاً، ولا سيما تلك الفنون اليدوية الدقيقة، والمهارة الفائقة، والجودة العالية(ص٨)، وذكر أن منازل جدة ذات عدّة طوابق، يصل عدد طوابقها في بعض الأحيان إلى خمسة، وأنها على الطراز الكلاسيكي القديم في زخارفها(ص٤). وتحدث عن عدد سكان المدينة بأنه يقدر بخمسة وثلاثين ألفا، وأن خمسمئة شخص منهم أوربيون وألبانيون(ص٤)، إلا أن القسم الأعظم من السكان هم ساميون، غير أنه أنكر وجود أهل جدة الأصليين أو الخلّص، وعلّل ذلك باختلاطهم بغيرهم من الأقوام، ولا سيما أهالي جنوب الجزيرة العربية(ص٩). ثم تحدث المؤلف بروست عن فنادق جدة التي يأوي إليها الحجاج في موسم الحج(ص٦).

المياه في جدة والأمراض الناتجة منها:

تحدث المؤلف بروست عن مشكلة المياه التي تتعرض لها جدة، وأنها تفتقر إلى المياه النظيفة العذبة، فذكر أن الأهالي يتوجهون إلى مكان يبعد عن جدة مسافة عدة ساعات للحصول على الماء، ويجلبونه إلى منازلهم على ظهور الإبل، فيضعونه في صهاريج لاستخدامه في وقت الحاجة.

وينقل المؤلف عن الطبيب العثماني صالح صبري، الذي ابتعث في لجنة صحية إلى جدة من لدن الحكومة العثمانية، أنه لا ينسى حياة جدة أبدا، وأن الإنسان لا يعرف قيمة الماء إلا حينما ينظر إلى درجة الحرارة، وقد تجاوزت الأربعين، ففي تلك اللحظة يعرف قيمة الصهاريج التي تحفظ المياه، وإن احتوت على أنواع من الحشرات(ص١١). وتحدث أيضا عن المحاولات الجادة والجهود التي بذلتها الحكومة العثمانية في جلب المياه من قناة عين زبيدة المائية بعرفات إلى جدة، وأنها مع كونها خصصت مبلغاً كبيراً من المال، وبدأت فعلاً بحفر الخنادق غير أنها لم تنجح لإنهاء المشروع إلى حينه. ثم ذكر معلومات عن النظافة في جدة، وأنها تعتمد على نزول المطر الذي يقضي على أوساخ المدينة كافة(ص١٢)، إلا أنه اشتكى من كثرة الكلاب في شوارعها، التي تسبب انتشار مختلف الأمراض. وذكر أن البلد تعرض لمشكلة كبيرة في حج عام ١٨٩٣م، وهي امتلاء الشوارع بالموتى، وكانوا بالقرب من صهاريج المياه. وكان كثير منهم مصابا بالطاعون الوبائي(ص١٤). فأصدر المؤلف حكمه بأن تلك الصهاريج تنشر أنواعاً من الأمراض بين الأهالي، ولا سيما المعدية منها(ص١٥).

البحر الأحمر وحركة الملاحة البحرية:

ذكر المؤلف أن دخول السفن إلى ميناء جدة صعب جداً، وأنها لا تستطيع الاقتراب من الساحل كثيراً، ولا سيما تلك السفن الكبيرة المحملة بأنواع من البضائع التجارية المتنوعة، وأنها ترسو على بعد ميلين من مدينة جدة. وعلل ذلك بأنها إذا اصطدمت بالوحل فإنها لا تقدر على الخروج منه(ص٤). ولذلك، فإنها تنزل تلك البضائع في وسط البحر إلى القوارب التي تقوم بحملها إلى الشاطئ.

لباس الأهالي وبعض المظاهر الاجتماعية:

تحدث المؤلف عن بعض المظاهر الاجتماعية في جدة، فذكر أن المدينة تكتسب وضعاً آخر قبل حلول عيد الأضحى بأسبوعين، حيث تقترب السفن المحملة بالحجاج من البلد، وترسو بالقرب منه، فينزل منها الحجاج، ومندوبو شركات الملاحة البحرية، والأجانب، وتُنشر الأعلام الأجنبية

في أطراف جدة، ويتبدل الجو العام فيها (ص١٦-١٧)، وتزدحم المدينة بمختلف الأجناس الذين وفدوا إلى بيت الله الحرام. ولقد استغرب المؤلف بعض العادات الاجتماعية بين الأهالي في جدة، منها على سبيل المثال عدم استخدام الأهالي للأشواك أو الملاعق في أثناء الأكل، وأن طريقة طبخ الأسماك مختلفة عما اعتادها الناس في النواحي الأخرى من العالم، كما استغرب عدَّ الأهالي في جدة شرب الماء في أثناء الأكل عيباً كبيراً(ص٤٦).

المبحث الثاني: مكة المكرمة ومظاهرها الاجتماعية

جغرافية مكة المكرمة وطقسها:

تحدث المؤلف في كتابه عن مكة المكرمة كثيراً، وأشار إلى الحرارة الشديدة التي تمتاز بها، والسلاسل الجبلية المحيطة بها، إلا أنه أكد أن تلك الحرارة التي تختلف عن البلاد الأخرى غير مضرة بالصحة، لكنها تصبح مضرة - على حد تعبيره - في أثناء موسم الحج. وقد استغرب ارتفاع الحرارة في موسم حج عام ١٨٩٣م، وأنها وصلت إلى ست وأربعين درجة، وتحدث عن شوارع مكة المكرمة الواسعة، لكنها تخلو من الأرصفة. كما أن الغبار كثير، ولا يظهر أي أثر لتصريف المياه (ص٣٧).

عدد السكان والمساكن في مكة المكرمة:

ذكر المؤلف أن طراز المساكن في مكة المكرمة يختلف عن الطراز المصري والأندلسي التقليدي (الكلاسيكي) (ص٣٨)، وأشار إلى أن المدينة المقدسة لم تتغير منذ زيارة الرحالة بوركهارت لها (ص٣٨)، وقدر عدد السكان بستين ألفا، وأن عددهم في أثناء فترة الحج يرتفع إلى مئتي ألف نسمة، غير أنه لم يدرج عدد العساكر العثمانية في البلد الحرام ضمن هذا الإحصاء (ص٣٨-٣٩). وذكر أن معيشة الأهالي في مكة المكرمة تعتمد على الحج والحجاج، وقد قدر أن الحجاج يتركون سنوياً عدة ملايين من الآقجات العثمانية(ص٣٩). وتحدث عن تعدد الزوجات في مكة المكرمة، فأشار إلى أنها مثل غيرها من البلاد الإسلامية (ص٥٤)، وأن هناك من الأثرياء من تزوج من أربع، أما الفقراء فيكتفون بواحدة، وعدَّ الطلاق سهلاً ميسراً، وذكر أن حفلة الزواج في مكة تشابه حفلات الزواج المقامة في غيرها من بلدان العالم الإسلامي، مع وجود فارق واحد هو جلوس العروس على كرسي إلى وقت صلاة العشاء(ص٥٥).

التجارة والصناعة في مكة المكرمة:

ذكر المؤلف أن تجارة مكة مثل تجارة سائر البلاد الإسلامية، وهي تصبح سوقاً كبيرة في أثناء موسم الحج، وأشار إلى أن أهم تجارتها تتركز في الذهب والفضة، ويتم فيها تصنيع الفضة المطلية بالذهب، وأنواع من المجوهرات، وأن أهل مكة يَفْتَنُّون في صناعة الذهب، كما تحدث عن فخاريات مكة الشهيرة التي تُصدَّر إلى الخارج مثل مصر وإستانبول(ص٤٠). أما المحلات التجارية فقد ذكر أن العاملين فيها على الأغلب هم الهنود، وهم أذكياء وتجار مهرة، حيث استطاعوا بمهارتهم تلك أن يستولوا على تجارة مكة المكرمة، غير أنه أشار إلى أن أكثر من يستفيد من تلك التجارة هم الإنجليز، كما أن الألمان أيضا يحاولون تصريف بعض البضائع التجارية الرخيصة في البلد الحرام(ص٤٠-٤١).

وصف الحرم المكي الشريف:

تحدث المؤلف بروست عن الحرم المكي الشريف، فأشار إلى أن الحرم حين يتراءى للحجاج يبدؤون بالتلبية، وذكر من أوصاف الحرم أنه مستطيل الشكل، فطوله ١٨٠متراً، وعرضه ١٣٠ متراً، وله تسعة عشر بابا. وأشار إلى أن للكعبة المعظمة هيبة كبيرة، تملأ قلب ناظرها بالخشية والدهشة، وهي مكسوة بستار يسمى الكسوة، مصنوعة من القماش الفاخر، وهي بسمك خمسة مليمترات(ص٧٦)، وقد صُرِف على الكسوة التي ألبست الكعبة عام ١٨٩٣م المصنوعة في مصر اثنا عشر ألف ليرة مصرية، وهذه الكسوة لا ترسل إلى مكة المكرمة إلا بمراسم خاصة(ص٧٧). ثم ذكر أنه يوجد في طرف الكعبة المعظمة ميزاب الرحمة، وأنه مصنوع من الذهب(ص٧٨) إلا أن باب الكعبة مرتفع؛ ولذلك يُستخدم سُلَّمان متحركان للصعود إليه، أهديا للحرم من أمراء من الهند، أحدهما للرجال، والآخر للنساء (ص٧٨ - ٧٩). وذكر أن الشرف



أحد أحياء مدينة جدة

على أمور الحرم يسمى نائب الحرم، ويشتغل تحت يده رئيس آغاوات الحرم، وهم المخصيون من السود، وأنهم يقومون بالحفاظ على الوضع الأمني للحرم، ويبلغ عددهم خمسين شخصاً. وهم يلبسون جبة سوداء وعمامة بيضاء، وبيد كل واحد منهم عصا بيضاء(ص٧٩)، ولهم رواتب من الحكومة، إلا أن اعتمادهم في الغالب على مبيعاتهم لبعض الكتب الخاصة بقراءة الأدعية، وماء زمزم، والمسابح، والأكفان(ص٨٠). ثم تحدث المؤلف عن كيفية أداء السعي بين الصفا والمروة، وأشار إلى أن أقدس مكان بعد الكعبة هو بئر زمزم، على حد تعبيره، الذي



تلوث المياه كان من أسباب الأوبئة

يقع في مواجهة الحجر الأسود (ص٨١). وقد وصف البئر والماء الذي ينبع منه بأنه ناصع براق وعذب، وذكر أن شرب هذا الماء مع ما يؤدي إليه من غفران الذنوب والخطايا في الدنيا والآخرة - حسب تعبيره - يوفر في الوقت ذاته مصدر رزق للعاملين فيه(ص٨٢).

المبحث الثالث: الأوضاع الصحية في الحجاز

الأمراض الوبائية في الحجاز

تحدث المؤلف عن الأمراض الوبائية الفتاكة في الحجاز في موسم الحج، فأشار إلى النفرة العامة لدى الحجاج فور سماعهم ظهور المرض متوجهين إلى ميناء جدة، للتخلص بأرواحهم قبل الإصابة بالمرض؛ لأنّ السفن تتيح لهم القدرة على مغادرة المنطقة(ص١٨). وذكر أن المنظر العام لجدة ١٨٩٣م كان مشابهاً تماماً لمكة المكرمة، فقد حولت المقاهي - على حد تعبيره - إلى مستوصفات حكومية، بسبب كثرة المرضى من الحجاج. وأشار إلى أن قناصل مختلف الدول في جدة كانوا يقومون بزيارات ميدانية للتأكد من الخدمات الصحية التي تقدمها تلك المستوصفات المتنقلة، التي تشرف عليها اللجنة الصحية العثمانية القادمة من إستانبول(ص١٩-٢٠). وقد ادَّعى المؤلف أن اللجنة المذكورة كانت تنظر إلى أي واحد من المرضى بأنه مصاب بمرض وبائي ينبغي التخلص منه قبل سرايته في الآخرين؛ ولذلك كانت تتخذ تدابير واقية عند التقرب من المرضى. والحقيقة أن كثيرا منهم كانوا مصابين بأمراض بسيطة، إلا أن الفقر وعدم العناية اللازمة بالتغذية الصحية كانا يؤديان بالمرضى إلى الوباء(ص٢٢)؛ لأن الماء أو الغذاء الصحي حسب رأيه لا يقدَّمان إلا لمن كان يدفع المال(ص٢٣). ثم ذكر المؤلف أنه لا يمكن معرفة عدد المصابين بالأمراض من الحجاج، أو عدد الموتى لانتشار الأمراض بسرعة، وعدم وجود إحصاءات دقيقة، وهو ما كانت اللجنة الصحية تشتكي منه دائماً (ص٢٤ - ٢٥)، بالإضافة إلى قيام بعض الحجاج بلبس ملابس المتوفين من الأمراض المعدية(ص٢٦)، كما ذكر أن مزاحمة الحجاج على السفن وتكديسهم فيها مثل البضائع التجارية من الأسباب التي كانت تؤدي إلى الإصابة بالمرض، الذي ينتقل معهم إلى بلادهم إن لم يدخلوا المحاجر الصحية(ص٢٨).

المحاجر وأعمال اللجنة الصحية العثمانية في الحجاز:

تحدث المؤلف بروست عن اللجنة الصحية في الحجاز، والأعمال التي تقوم بها، والتدابير التي تتخذها في مواجهة الأمراض المعدية، فذكر أن اللجنة الصحية بالحجاز تتكون من طبيب المدينة المنورة، والطبيب الأول في مكة المكرمة، والطبيب الثاني في جدة، والطبيب المسلم في جزيرة قمران، وذلك تحت رئاسة الرئيس العام للأعمال الصحية بالدولة العثمانية. وقد خُصِّص لهذه اللجنة مبلغ خمسين ألف قرش، أي ما يعادل ١١.٥٠٠فرنك (ص١١٥). وذكر أن عدد الحجاج المجتمعين في مكة المكرمة عام ١٨٩٢م ٣٠٠ ألف حاج(ص١١٦). خصصت الدولة لأعمال النظافة في جدة، ومكة المكرمة، والمدينة مبلغ ألفي ليرة أي ما يعادل ٤٦ ألف فرنك (ص١١٧). وتحدث عن قدوم الطبيب صالح صبري الذي أرسل إلى الحجاز عام ١٨٩٢م، والتقرير الذي أعده عن الحج والحجاج والتدابير التي ينبغي اتخاذها تجاه الأمراض(ص٦١)، ولا سيما الاشتراط على الحجاج بالتطعيم ضد الجدري(ص٦٢)، وأشار في لائحته التي قدّمها إلى نظارة الصحة العثمانية عن وجوب منع الحجاج القادمين من البلاد التي ظهر فيها مرض الطاعون الوبائي، وذلك لمدة عدة سنوات(ص٦٣)، كما ذكر أنه لما ظهرت وفيات كثيرة في صفوف الحجاج عام ١٨٩٤م، حرص الأطباء على البحث عن الأمراض التفشية في الحجاج، وأسبابها، مشيراً إلى أنهم ركزوا على المياه المستخدمة للشرب(ص١٣٠). ثم تحدث عن قدوم المشير أسعد باشا إلى جدة في مارس/آذار من عام ١٨٩٤م للشروع في إنشاء مشفى خيري في مكة المكرمة، يقوم بتقديم الخدمات اللازمة للحجاج(ص١١٧)، وذكر عزم الحكومة على إنشاء التشكيلات الصحية في كل من جزيرة قمران، وأبو سعيد، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، وغيرها من الأماكن بالحجاز(ص١١٩). وتحدث عن مستشفى مكة الذي يستوعب ١٤٠٠حاج، وأن العمل جار في إنشاء مستشفى آخر في مكة المكرمة

باسم دار الخيرات يستوعب ٣٠٠ سرير، وآخر في منى يستوعب ٢٠٠ سرير، وأنه سوف يتم تشكيل صيدلية بجانبهما وحمامات نظيفة (ص١١٩). وبيّن أنه من ضمن التدابير الصحية التي ينبغي اتخاذها، والتي سبق أن قدمها طرخان بك إلى مؤتمر باريس الصحي توسعة مشفى دار العجزة في كلٍّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وزيادة عدد الأطباء والصيادلة بمكة على وجه الخصوص، وتعيين مفتش صحي للإشراف على الأعمال التنظيفية بالبلد الحرام، وأنه تقرر وضع ثلاثة صناديق للقمامة في كل شارع من شوارعها، وتخصيص عربات تجرها الحمر لنقل القمامة(ص١٢٠)، وعدم السماح ببيع الخضر، والفواكه، واللحوم المضرة بالصحة العامة في أثناء موسم الحج، وتخصيص عربات بعدد كاف للقيام بنقل المرضى إلى المستشفيات سواء في مكة المكرمة أو المدينة المنورة(ص١٢١). وذكر المؤلف بروست أن آثار تلك المقترحات قد ظهرت؛ حيث أقيم مستشفى كبير في مكة المكرمة، ومحجر صحي في جزيرة قمران خاص بالحجاج الهنود والجاويين(١٥٠)، ومحجر صحي كذلك في جبل الطور، وآخر في مدينة الوجه(١٦٣). ويتم فيها توقيف الحجاج من ٣ إلى ٥ أيام، للتأكد من خلو الحجاج من الأمراض(ص١٦٤). بعد أن كانت المدة المذكورة في عامي ١٨٩٠م وعام ١٨٩١م عشرين يوما(ص١٦٥). كما ذكر أن الحكومة خصصت ٥٠٠ شخص لأعمال النظافة في منى، و٥٥٠ حماماً لاستخدام الحجاج في منى كذلك، وأن أحواض الماء الموجودة في عرفات وضعت تحت المراقبة، مشيراً إلى وجود مستشفى فيها، يحوي خمسين سريراً، كما ذكر أن هناك عدداً غير قليل من المراكز الصحية في مكة المكرمة تحت الإنشاء (ص١٥٧-١٥٨).

الرعاية الصحية في السفن:

ذكر المؤلف معلومات عن السفن التي تنقل الحجاج إلى الحجاز، وعدم اهتمامها بالرعاية الصحية، والأمراض التي تنتشر في السفن بسبب الازدحام الشديد، مما يعرقل القيام بأعمال صحية وتنظيفية لازمة في تلك السفن، فأشار إلى أن ذلك يؤدي إلى انتشار مختلف الأمراض الوبائية بين الحجاج(ص١٧٣)، بالإضافة إلى عدم خبرة الأطباء المعينين في السفن، حيث ذكر أنهم يبدؤون بالعمل في السفن بعد تخرجهم، وهم لم تتكون لديهم أي خبرة أو تجربة عملية في التعامل مع المرضى(ص١٧٣)، كما بيّن أن السفن التي لا يسمح لها بحمل أكثر من سبعمئة حاج، تقوم بحمل ألف وأربعمئة أو أكثر (ص١٨٢ - ١٨٣)، وأن ربابين السفن يرمون أجساد الموتى المتوفين في البحر، حتى لا ينتشر المرض بين الركاب، إلا أن المرض - حسب تعبيره - سرعان ما كان ينتشر في أطراف العالم(ص٦٥).

تقرير الطبيب أرنست عن الوضع الصحي في الحجاز:

تحدث المؤلف عن أعمال الطبيب أرنست هرت الذي قدم تقريراً صحياً نشره في لندن عام ١٨٩٥م، ووضح فيه العلاقة بين الطاعون والحج في مكة المكرمة (ص١٣١) مشيرا إلى أن الوسيلة الوحيدة لانتشار المرض هو الماء؛ ولذلك فقد حذر الحجاج من الاغتسال بماء زمزم(ص١٣٢) مدعيا أن المشرفين على الماء غير نظيفين، وهم يتسببون في نشر الأوساخ في الماء الذي يشرب منه الحجاج، فينتقل إليهم المرض.

المبحث الرابع: الوضع الإداري في الحجاز

تحدث المؤلف بروست عن الوضع الإداري في الحجاز بنوع من الاقتضاب الشديد؛ وذلك لاهتمامه بالوضع الصحي أكثر من غيره. ولقد اخترنا من ذلك ما يتعلق بالعلاقة بين الوالي والشريف.

العلاقة بين الشريف والوالي:

تحدث المؤلف عن السلطة الحكومية في الحجاز وأنها موزعة بين الوالي الذي هو نائب عن السلطان، والشريف الذي هو أمير مكة المكرمة، وذكر أن قناصل الدول الغربية المرخص لهم بالعمل في جدة يعملون بمعية الوالي، وأنهم لا يستطيعون الاتصال بالشريف بشكل مباشر، وأشار إلى أن الشريف أهم شيوخ المنطقة، وأن نفوذه يفوق نفوذ الآخرين. ويتم انتخابه من السلالة الهاشمية منذ اثني عشر قرنًا(ص٩٥). ثم تحدث عن الوضع السياسي والإداري في الحجاز، فأشار إلى أن للحجاز مكانة خاصة في الدولة العثمانية لما تضمه من مقدسات إسلامية، وأن وضعها لا يشبه وضع أي ولاية عثمانية أخرى؛ فقد أعفى الأهالي من الخدمة العسكرية الإجبارية المفروضة على مواطني الدولة في الولايات الأخرى، كما أُعفُوا من الضرائب المفروضة على غيرهم. ثم بيّن أنهم يعتمدون في عيشهم على المبالغ النقدية التي يرسلها لهم السلطان العثماني

عدّ بروست جدة مهد الحضارة الإنسانية، بينما أشار إلى أن أسوار المدينة تشرف على الخراب



العمارة القديمة في جدة

وخديوي مصر، إلا أنه ادّعى أن تلك المبالغ لا تصل ليد المستحقين، ولا توزع بشكل عادل، وأن رجال الشريف يحصلون على نصيب الأسد منها، كما ذكر أن للشريف أموالاً طائلة، وأنه يحصل من الحكومة العثمانية على مبلغ أربعين ألف فرنك راتبًا شهريًا(ص٩٦)، ويعمل في معيته رجال من البدو في أعمال الحراسة والأمن(ص٩٧). ثم اقتبس المؤلف فقرات من رحلة الطبيب المسلم مورسلي الذي زار الحجاز عام ١٨٨٢م عن وضع الشريف عبدالمطلب الذي يعادي - حسب تعبيره - العالم النصراني، ويكره استيراد البضائع منه(ص٩٧)، كما أشار أيضًا إلى النزاعات التي كانت تنشب بين الوالي والشريف بين حين وآخر(ص١٠٣-١٠٤).

مثّل الماء مشكلة كبيرة وكانت مدينة جدة تنتظر المطر حتى تتخلص من أوساخها

المبحث الخامس: الرحلات الغربية إلى الحجاز وبعض المعلومات الإحصائية عن الحج

رحلات الغربيين ومصادر معلوماتهم عن الحجاز:

تحدث المؤلف بروست عن الرحالة الغربيين الذين توجهوا إلى الحجاز، وكتبوا رحلاتهم، ولا سيما الفرنسيين منهم، فذكر أن الأوضاع العامة في الحجاز وثرواتها والإحصاءات الخاصة بالحجاج والمعلومات الأخرى المتعلقة بالحرمين الشريفين كانت غائبة عن كثير من الناس. أما بالنسبة إلى المستشرقين أو الرحّالة الغربيين فقد كانت لديهم معلومات كثيرة - على حد تعبيره - استقوها من رحلة بوكهارت التي قام بها عام ١٨١٤م، وكانت رحلة مشوبة بكثير من المخاطر. ثم أشار إلى رحلة الملازم الإنجليزي بورتون المماثلة لرحلة سلفه المذكور الذي أحدق به خطر عظيم، ونقل من كلامه أنه قال: إن اهتمام الحاج بإحرامه دليل على تقواه وورعه(ص٦٩). وأشار إلى رحلة مورسلي التي قام بها إلى مكة المكرمة في السنوات الأخيرة برفقة طبيب جزائري، وذكر أن الطبيب (الفلمنكي) الهولندي سنوكه هورغرونيه الذي كان مرافقًا للجيش العثماني قد نجح في رؤية مكة المكرمة، وكذلك الرحالة الفرنسي «ليون روش» الذي أرسل إلى مكة المكرمة من الجنرال الفرنسي بوجو (ص٤٤). حيث عرف الإسلام، ثم دخل البلد الحرام بعد التغلب على كثير من المخاطر، غير أن الحجاج لما تعرّفوه في مكة المكرمة أرادوا قتله، لولا خدم الشريف الأقوياء الذين أبعدوه عنهم، وأوصلوه إلى جدة خلال سبع ساعات(ص٤٥). ثم أشار إلى رحلة فورتلمون إلى الحجاز عام ١٨٩٤م(ص٤٦)، وبين أن الكتاب الذي ألفه سنوكه تضمن معلومات واسعة عن الأوضاع العامة في مكة المكرمة، وطبائع الأهالي، وعاداتهم وتقاليدهم. وذكر أن الكتاب طبع عام ١٨٨٠م في ليون بفرنسا(ص٥٠). وقد اقتبس عدة صفحات عن عادات الأهالي في مكة من كتابه المذكور (من ص٥٠إلى٥٢).

بعض المعلومات الإحصائية التي ذكرها بروست في رحلته

أ- كان عدد الحجاج عام ١٨٦٥م أكثر من ١٥٠ ألفا(ص٧٣)، وفي عام ١٨٦٨م (٢٣.٣٩٣)، وفي عام ١٨٨٠م (٥٩.٦٥٩) حاجا، وفي عام ١٨٩٢م (٣٠٠ ألف). (ص١١٦).

ب - كان عددهم في عام ١٨٩٣م (٢٨٠ ألفا)، وفي العام الذي يليه (٢٦٠ ألفا). قدم ٤٥ ألفا منهم من شمال البحر الأحمر، ومثلهم قدموا من جنوبه، وكان القادمون للحج عن طريق البحر (٩٢.٦٢٥) حاجًا، ٣٢٥ر١٦ منهم مصريون، وكان عدد الواصلين إلى الحج من الجزائر وتونس في العام المذكور أي ١٨٩٣م (٩.٠٨٥) (ص١٠٩ - ١١١)، وكان عدد القادمين من جدة إلى ينبع (٥.١٦٥) (ص١١٢).

ج - كان عدد الموتى من الحجاج عام ١٨٩٢م ٣٥ ألفا. (ص١١١)

د - كان عدد الأضاحي المذبوحة عام ١٨٩٣م في منى ١٢٠ ألف رأس (ص٨٨).

بعض المآخذ على رحلة الدكتور بروست

لقد ظهر من خلال قراءة الكتاب، واستعراض ما جاء فيه أنّ المؤلف بروست قد ذكر بعض المعلومات المغلوطة، وهذا يدل على أن المعلومات التي استقاها من غيره كانت خاطئة، مع أنه كانت لديه الفرصة لتصحيحها بعدما توجه إلى مكة المكرمة، ورأى أوضاع الحج والحجاج عن كثب، ومن هذه المعلومات الخاطئة التي وردت في الكتاب ما يأتي:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فرض الحج على المسلمين(ص٥٩).

- كون الحج كان موجودا قبل الإسلام بعدة قرون، وأنه من العادات الوثنية القديمة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسرع إلى إلغائها من حياة العرب(ص٥٨).

- أنه بموجب أحكام القرآن لا يعدّ أي عمل في منى معصية(ص١٩).

- تشبيهه لأعمال الحج بالمراسم والاحتفالات الرسمية (ص٣٠).

- كما احتوى الكتاب على آراء تدل على تعصب ضد الإسلام من مثل قوله: إذا نُظر إلى الحجاج في عرفات في حج عام ١٨٩٣م (وكان الوقوف يوم الجمعة) تبين الضرر الذي يمكن أن يسببه المسلمون لأوربا.

الهوامش

١- مخطوطات عن الجزيرة العربية في مكتبة جامعة إستانبول، خليل ساحلي أغلو [دراسات تاريخ الجزيرة العربية: جامعة الرياض: ١٣٩٧هـ: ٢/١٤٦].

٢- المرجع السابق: ٢/١٥١.

٣- لقد حصلنا على صورة من هذا المقال بعد أن بذل الأخ منذر سوقير - مشكوراً - جهده في تصويره من تونس؛ لأن المجلة قديمة، ولا تتوافر، إلا في أماكن خاصة. وحسب ما لخصه لي الأخ منذر فإن المقال يتناول الأوضاع الصحية العامة في الحجاز، وكيفية انتشار الأوبئة، والتدابير التي ينبغي اتخاذها إزاء الحد من انتشارها.

٤- قام بهذه الترجمة العربية لخطاب الدكتور مورو الفرنسي الأخ محسن عقير. كما أنه الذي قام بالاتصال بالدكتور وأعد الخطابات الفرنسية الخاصة بالموضوع، فله مني الشكر والعرفان.

الفن المعماري الدانماركي والبلدان الإسلامية

هانس منك هانسين مراجعة: **إبراهيم يحيى الشهابي**

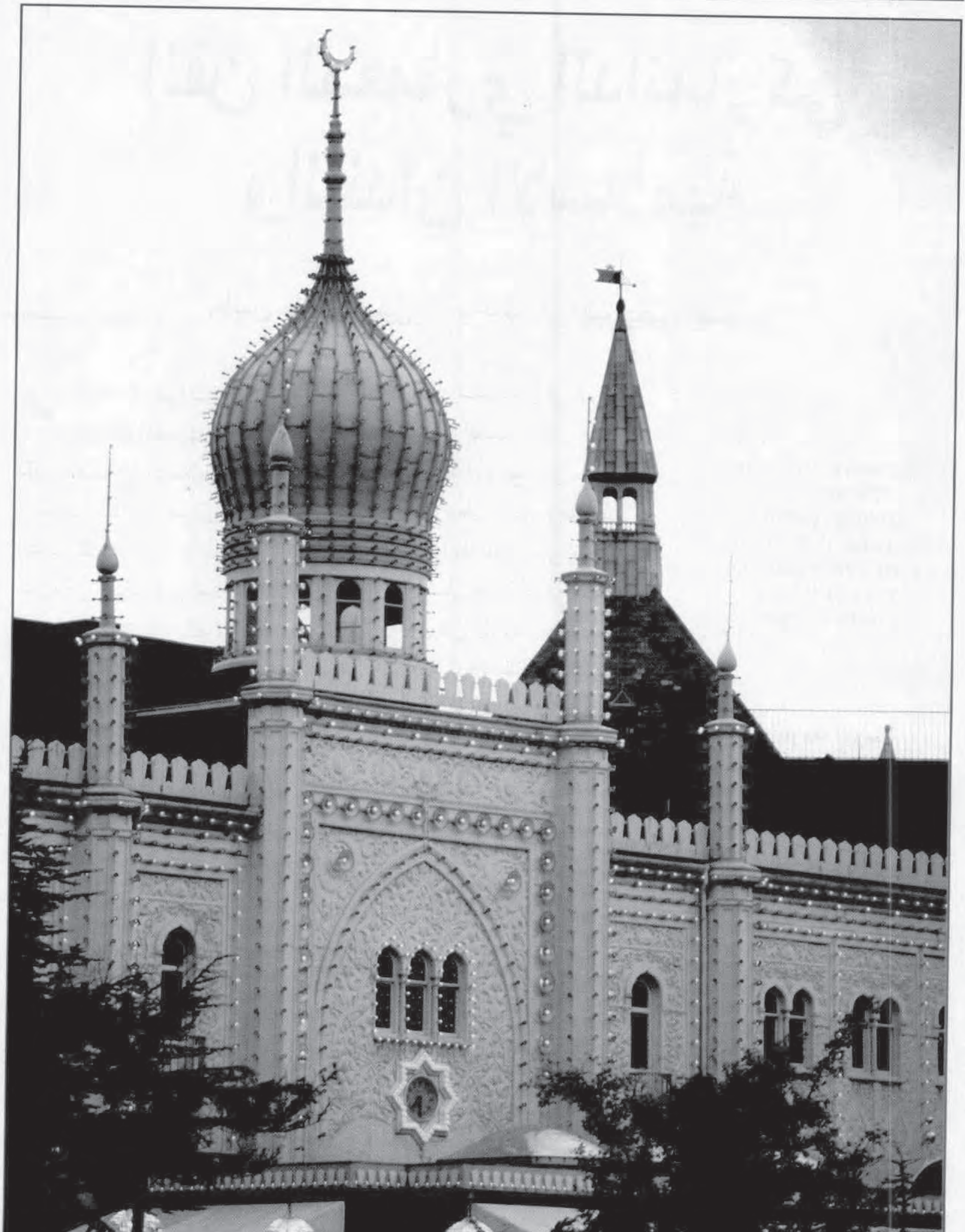
إن الأدلة المتوافرة لدينا على تأثر الهندسة المعمارية الدانماركية بالفن المعماري الإسلامي متفرقة ومتناثرة على الرغم من التأثير الكبير للثقافة الإسلامية في هذا الجزء من العالم الذي نعيش فيه في ميادين متعددة عبر القرون؛ إذ إن المهندسين المعماريين الدانماركيين لم يدخلوا العناصر الإسلامية في أعمالهم إلا في القرن التاسع عندما أخذ الاهتمام بفن العمارة يزداد، أما في العصور الأخرى والمناطق الأخرى فقد كان التأثير واضحًا في فن العمارة الأوروبي، إضافة إلى أن أهم العلاقات بين الدانمارك والعالم الإسلامي في ميادين فن العمارة لم تنشط إلا بعد الحرب العالمية الثانية، خصوصًا ما قام بتنفيذه المهندسون المعماريون الدانماركيون من مشاريع إنشائية مهمة في العالم الإسلامي.

التأثير الإسلامي في فن العمارة الدانماركي خلال العصور الوسطى

لقد بدأ التبادل الثقافي بين العالمين الإسلامي والمسيحي منذ التغلغل المبكر للمسلمين في أوربا؛ إذ يبدو أثر فن العمارة الإسلامي جليا، وعلى نطاق واسع، في مباني العصور الوسطى، خصوصًا في شمال إسبانيا وفرنسا. حتى إنه من الممكن تتبع مثل هذا الأثر في شمال أوروبا - وإن كان أقل مدى واتساعا - في المعالم الزخرفية للكنائس بوجه خاص. أما فيما يتعلق بالدانمارك فإن البحث في ميدان تاريخ فن العمارة مازال في مراحله الأولى، ومع ذلك يمكن الإشارة إلى تفاصيل في كنائس العصور الوسطى الدانماركية تمتد جذورها إلى فن العمارة الإسلامية. وخير مثال على ذلك الأقواس المدوّرة المتشابكة التي تعد سمة من سمات الفن المعماري الإسلامي، التي وصلت إلى إسكاندنافيا عبر الكنائس الرومانسيكية الفرنسية. إذ نشاهد في كنيسة بروجر BROAGER في جوتلاند الجنوبية SOUTHERN JUT-LAND أصنافًا آجُرِّيَّة من هذا النمط تحيط بالكنيسة كلها، وغاية مثل هذه

THE ARABIAN JOURNEY
DANISH ARCHITECTURE AND THE ISLAMIC COUNTRIES INFLUENCE AND COOPERATION

الرحلة العربية
العمارة الدانماركية والدول الإسلامية:
التأثير والتعاون



مسجد بالدانمارك يستلهم العمارة الإسلامية

الزخرفة كسر الانطباع برتابة الكتلة الهندسية المعمارية، بحيث يبدو المشهد كأحجية؛ إذ ترى العين أقواسًا مدوّرة حينًا، وترى أقواسًا مدببة حينًا آخر دون التمكن من الاحتفاظ بأي من الانطباعين في العين فترة من الزمن.

الفن المعماري الإسلامي في بلدان أوربا الشمالية في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر

لم يكن لدينا ما يبيّن كيفية تعرُّف بلدان أوربا الشمالية الفن المعماري الإسلامي وممارسته؛ إلاّ أن هذه المسألة قد تغيّرت في عصر النهضة، إذ إن علَمين من أعلام الرحلات في الشرق قد اكتسبا شهرة بسبب ما قدماه من وصف للفن المعماري الإسلامي، هذان العلمان هما: ميلكيور لورك MELCHIOR LORCK وآدم أولياريوس ADAM OLEARIUS، وكلاهما من جوتلاند الجنوبية من دتشي شليزويغ DUTCHY OF SCHLESWIG.

كان الفنان ميكليورلورك قد ألحق، بوصفه مصممًا، بالوفد الذي أرسله الإمبراطور فيرديناند الأول إلى إستانبول في أواسط القرن السابع عشر للتفاوض مع سليمان الكبير حول استرجاع جزء من هنغاريا التي كان يحتلها السلطان. مكث لورك في بلاط السلطان من عام ١٦٥٦م إلى عام ١٦٦٠م، ولدى عودته، حمل معه أوصافًا موجزة متعددة لمدينة إستانبول في ذلك الزمن؛ على أية حال، ليس من



جامع بيد ماردون BID MARDUN في توليدو TOLEDO، بُني عام ١٠٠٠م. تبين هذه الصورة الفوتوغرافية بوضوحا لأقواس التي تُعصّبُ واجهة المبنى. وهذه سمة نموذجية من سمات الفن المعماري الإسلامي. مثل هذه التفاصيل هي التي شقّت طريقها إلى إسكنديناڤيا عبر فرنسا حيث تشاهد كنائس العصر الوسيط

يبدو واضحًا تأثر كنائس العصور الوسطى الدانماركية بفن العمارة الإسلامية



بيت السهيمي BEIT - ES- SAHEIMY في القاهرة، أعيد ترميمه، كالمدرسة الجوهرية، من قبل مدرسة الفنون المعمارية في كلية الفنون الجميلة الدانماركية عام ١٩٨٢م. كانت الشرفات المفتوحة تستخدم غرف استقبال للزوار الذكور، حيث تستطيع النسوة سماع كل ما يدور في المكان من وراء الفسحات الموجودة بين الأعمدة، والمستورة بشباك من الخشب المخروط بطريقة جميلة.



وزارة الخارجية السعودية في الرياض . المهندس هينينغ لارسين HANAING LARSEN عام ١٩٨٤م. ومع أن هذا المبنى حديث كلياً إلاّ أنه شُيِّدَ على أسس التراث الإسلامي، ويتميز بمظهر داخلي أخاذ، وإضاءات ساطعة، وبالمواد الثمينة المستخدمة فيه.

الممكن إثبات مدى الأثر العظيم الذي حققته هذه الحادثة في أوروبا الشمالية. ومن ناحية أخرى، فإن ما قدمه أوليـاريوس من أوصاف لرحلاته في بلاد فارس قد أوحى بإنشاء الكثير من المباني ذات الطراز الفارسي في أوربا الشمالية. كان أوليـاريوس أمين سر وفد شيلزويغ الدوقي الذي سافر عبر موسكو وأستراخان ASTRAKHAN إلى مدينة أصفهان، موطن الشاه الفارسي عام ١٦٣٧م. وقد أحدثت حدائق الشاه الشاسعة، مع أمور أخرى، انطباعاً لا يمّحي في الزائرين القادمين من شمال أوربا. فقصر الشاه، مثلاً، لم يكن مؤلفاً من مبان متميّزة مثيرة للإعجاب كتلك التي كانت مألوفة في أوربا، بل من حدائق مصممة تصميماً هندسياً، ليس للمباني فيه سوى دور ثانوي، حيث يشنف الآذان صوت خرير الماء الجاري في جداول محورية متقاطعة، تزينها عند التقاطعات مقصورات رشيقة، ممّا أثّر في أوليـاريوس لدى عودته إلى شليزويغ، فصمم حديقة في قلعة غوتورب GOTTORP أبرز فيها الطراز الفارسي بما في ذلك المقصورات.

أما فيما يتعلق بهندسة المناظر، فلم تُشاهد أمثلة حقيقية على الطراز الإسلامي، خصوصاً في الحدائق الرومانسية حيث تضفي المقصورات التركية جواً خلاباً على البيئة، إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

استخدام النماذج الإسلامية في القرن التاسع عشر

بعد قرن من الزمان، في غضون عصر التأريخ، أخذ المزيد من المهندسين المعماريين الدانماركيين يتجهون نحو استكمال دراستهم التقليدية في روما، عبر رحلات إلى اليونان والأناضول ومصر. وعاد بعضهم بالفعل مثل إم. جي. بنديسبول A.M. BINDESBOL، وأتش. سي. ستيلنغ H.C. STILLING وأل. آ، وينستروب L.A. WINSTRUP وغيرهم من رحلاتهم يحملون مخططات معمارية إسلامية استخدموها في الدانمارك في مشاريع لإنشاء المباني. ويُعَدُّ القسم الداخلي الذي

صممه ستيلنغ في الكازينو المهدم الآن في شارع أماليغيد AM-ALIEGADE في كوبنهاجن مثالاً نموذجياً على ذلك.

وأكثر من ذلك، يوجد الآن في البيوت الدانماركية غرف تدخين مجهزة بأثاث تركي مثل الصوفا والديوان وسواهما حيث يستقبل صاحب البيت ضيوفه الذكور الذين يرتدون الطرابيش والزي التركي.

إلاّ أن هذا الوضع الجمالي قد فقد الكثير من جماليته الفنية عندما تنافر مع سياقه، كما حصل عندما زيّن المهندس تيفولي TIVOLI مطعم نيمب NIMB بواجهة مسجد إسلامي هندي؛ إذ كان واضحًا تمامًا أن المهندس المعماري هذا لم يأبه كثيراً بالعلاقة بين الشكل والمضمون. والأمر نفسه ينطبق على مدخنة التهوية لشبكة المجاري في

الحديقة الشتوية في مسرح كازينو أماليجيد AM-ALIEGADE في كوبنهاغن. شُيد الكازينو عام ١٨٤٦ - ٤٧م، ونفذه أتش. سي ستيلنغ H.C. STILLING يُذكرنا التصميم الداخلي ذو الأعمدة الرشيقة والأقواس الأنيقة بالمباني في البلدان الإسلامية



سفانيمولين SVANEM QLLEN في كوبنهاجن، حيث يخالها المرء مئذنة.

أنماط جديدة من المباني

كان ما أوحاه العالم الإسلامي في مجال تشييد أنماط جديدة من المباني أكثر أهمية من مجرد تبنّي عناصر زخرفية خالصة، فالمحال التجارية والأسواق المسقوفة التي يتميّز بها الشرق أصبحت شائعة في بلدان أوربا الشمالية على هيئة أروقة تَسَوّق أو مجازات لعرض البضائع مسقوفة للوقاية من المطر أو الريح، وكانت الغاية منها في الشرق الوقاية من الشمس والحر.



الشكل٧: سوق في أصفهان. إن الأسواق المسقوفة في المدن الإسلامية تأسر ألباب المهندسين الدانماركيين؛ لأنّ وظيفة مثل هذه الأسواق في الشرق حماية الناس من الشمس الحارة، ومهمتها في الغرب حمايتهم من المطر والصقيع.

وبعد ذلك بسنين كان مشروع جورن أوتزون JORN UTZON المتمثل في إقامة مركز مدني في فاروم FAR-UM لافتاً للنظر بسبب تأثره الشديد بالأسواق الفارسية، إذ كانت المحال التجارية في هذا المركز منظومة على جانبي شوارع مسقوفة مخصصة للمشاة تتخللها أعمدة الضوء الآتية من فتحات في سقوفها.

ومن الأمثلة على هذا التأثر أيضاً، الحمّامات العامة التي أُنشئت في جميع المدن كجزء من إجراء لرفع مستوى الصحة العامة. وقد شُيّدت هذه الحمامات حسب الطراز التركي. وكان المسلمون قد ساروا على نهج الرومان وتقاليدهم فيما يتعلق بالحمامات والاستحمام فيها؛ إذ ربطوا التطهير بالصحة الحسنة، والأنشطة الثقافية.

الفن المعماري الدانماركي والعالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الأولى

منذ ثلاثينيات القرن العشرين كان يُكلف بعض المهندسين المعماريين الدانماركيين بمهمات في العالم الإسلامي. بينما لم تتح الفرصة، قبل ذلك، للقيام بمهمات مماثلة إلا لمن كانت ترسلهم القوى الاستعمارية من المهندسين. من بواكير المشاريع ذات التصميم الدانماركي، التي كانت ضمن حملة واسعة من البعثات الخارجية في مهمات نُفذت في إيران وتركيا،

وتتألف أساسًا من خطوط سكك حديدية كامبساكس KAMPSAX. ومن الأمثلة على مثل هذه المشاريع محطة القطار في طهران التي صممها سيست SEEST كبير المهندسين المعماريين الدانماركيين في السكك الحديدية الدانماركية، وأتش جين كامبمان H.J. KAMP-MANN وسواهما في ثلاثينيات القرن العشرين. كان التصميم جامداً وكلاسيًا لم يستلهم الفن المعماري السائد في المنطقة؛ إذ كان الشاه يرغب في تحديث البلاد على الطراز الأوروبي فتَم التعبير عن هذه الرغبة في الفن المعماري الجديد.

ومن الجدير بالملاحظة أنه أنشئت في الوقت ذاته تقريبًا كنيسة بيت لحم في أبوليفاردن ABOU LE-VARDEN في كوبنهاغن استلهم مصممها المهندس المعماري كاري كلينت KARRE KLINT الفن المعماري السلجوقي الفارسي الشائع في مساجد أصفهان، لدى تصميم نظام الأقواس في الكنيسة.

أما تغلغل المهندسين المعماريين الدانماركيين في البلدان الإسلامية فلم يبلغ زخمه إلاَّ بعد الحرب العالمية الثانية عندما أخذ المد الاستعماري يتراجع نحو نهايته.

لقد اكتسب الفن المعماري الدانماركي سمعة دولية، وأخذت الأمم الناشئة تسعى إلى طلب العون من الدانمارك؛ وبفضل توجه المهندسين المعماريين الدانماركيين للتوافق مع مفهوم تلك البلدان الحديثة النشأة، الذي يتمثل في أن الفن المعماري لابد أن يكون تعبيراً عن الزمن الذي نعيش فيه، مع استلهام التراث المعماري للمناطق المعنيّة.

وهذا يعني عمليا مراعاة الخبرة في اختيار المواد، وتصميم الإضاءة، والتحكم بالمناخ وغير ذلك. وكانت تضاف اللمسة الفنية الإسلامية على المباني الحديثة ذات الطراز الغربي المستورد عن طريق تزيين الجزء الخارجي من المبنى بزخارف عربية وما شابهها.

تشاهد اليوم أعمال أنجزها بكفاءة مهندسون معماريون دانماركيون في معظم البلدان الإسلامية. فمنذ أواخر القرن

نقل بعض المهندسين المعماريين الدانماركيين أشكالاً من العمارة الإسلامية من غير مراعاة العلاقة بين الشكل والمضمون



حدائق قصر الشاه في أصفهان. تتألف هذه الحدائق، كأي نمط إسلامي، من حدائق منفردة تتخللها سواقي ماء جار موزعة وفق نظام هندسي بحيث تكون على هيئة محاور متقاطعة، ويقام على كل تقاطع فسطاط. ويقع على أحد هذه التقاطعات فسطاط، الشاه المعروف بـ «شيهيل سوتون» SHIHIL SATUN، وهو مبنى أنيق ورشيق.

العشرين قام جورن أوتزون، وكاتب هذا المقال بتصميم مبنى البنك القومي الإيراني.

يتألف الجزء الداخلي من المبنى من قاعة كبيرة مضاءة بصورة متقنة بفضل شرائح مموجة من الأضواء الآتية من السقف، وهي بذلك تشبه القاعات المغطاة في الخانات (النُّزل) التاريخية. كان جورن أوتزون مهتماً بالفن المعماري الإسلامي بما في ذلك بناء المدن التراثية (التقليدية). وينعكس هذا الاهتمام بجلاء في أحد أعماله الكبرى، وهو مبنى البرلمان الكويتي الذي صممه في سبعينيات القرن العشرين. وهناك مهندس معماري دانماركي آخر اسمه هينينغ لارسن HENNING LARSEN قام بتنفيذ مبنى وزارة الخارجية السعودية في الرياض. كما قام كذلك، المهندس المعماري الدانماركي آرني جاكوبسن AREN JACOBSON بتشييد مصرفين في الكويت وبغداد، وتابع العمل من بعده كل من ديسينغ DISS-ING و ويتلنغ WITLING على التوالي. ومن المباني التي لا تقل أهمية عما ذُكر: مبنى المتحف الوطني في البحرين الذي صممه كوند هولسر KUND HOLSCHER من شركة K H R للمهندسين المعماريين الدانماركيين. ويحوي هذا المعرض عدداً كبيراً من اللُّقى التي اكتشفها علماء الآثار الدانماركيون برئاسة



الشكل٦: مدخنة سفانيمولن SVANEMOLLEN، بناها المهندس الدانماركي أتش رايت H. WRIGHT عام ١٩٠٨م. هذه المدخنة التي يخالها المرء مئذنة ليست سوى مدخنة تهوية لشبكة المجاري لبلدية كوبنهاغن، وتعد مثالاً حقيقياً على المرحلة التأريخية التي كان المرء يقتبس ما يراه من الأنماط والطرز الأخرى ليضفي جمالاً وجواً لافتاً للانتباه على أمر مألوف.

حارس الآثار القومية بي. في. غلوب P.V. GALOB. وفي مجال المباني المخصصة للتربية والتعليم، قام المهندس المعماري ويليم ووهليرت WILHELM WOHLERT بالاشتراك مع كاتب هذا المقال بتنفيذ مشروع في الجزائر، وهو إشادة مبان للدراسات التقنية والبحوث، ولتدريب ألف طالب، وإسكانهم مع معلميهم.

قدمت الدانمارك إعانة لتجديد المعالم المعمارية الإسلامية ذات الأهمية التاريخية وترميمها. ومن ذلك ترميم المدرسة الجوهرية في القاهرة التي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر، وتعد هذه المدرسة مبنى ملحقًا بأهم المساجد التعليمية الإسلامية، وهو الأزهر الشريف. وقد نفذ العمل أساتذة مدرسة الهندسة المعمارية في

أكاديمية الفنون الجميلة الدانماركية وطلابُها بإشراف ويليم ووهليرت، وستين بجارنهوف STEEN BJARN-HOF، وكاتب هذا المقال وإدارتهم. وكان التعاون مع الزملاء المصريين يعد جزءاً مهمًا من المشروع، حيث أسهم تبادل الآراء ووجهات النظر في قضايا الترميم إسهاماً كبيراً في إنجاح المشروع وتنفيذه.

ولسوف تنشأ علاقة تعاون في المستقبل بين المهندسين المعماريين الدانماركيين والمهندسين المعماريين المحليين في البلدان الإسلامية لدى القيام بأي عمل في ميدان إنشاء مبان جديدة؛ لأن البلدان الإسلامية الآن غنية بالمهندسين المعماريين الأكْفاء. أما مجال الاستعانة بالمهندسين المعماريين الدانماركيين فسوف يكون غالبًا فيما يتعلق بنماذج جديدة معقدة من المباني. وتعد مسألة تزويد الزملاء المحليين المساهمين في مثل هذه المشاريع والمهمات بالمعرفة والخبرة جزءاً مهمّا من جهود المهندسين المعماريين الدانماركيين. وبالمقابل سوف تكون الدراسات التي يجريها المهندسون المعماريون الدانماركيون على خصائص الفن المعماري الإسلامي التراثي مصدر إلهام لهم.

انتشر المهندسون الدانماركيون في البلدان الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية

قرية في جيربا DJERBA في تونس، مجموعة من المساكن التقليدية المهجورة ذات قباب بيضاء، أعيد ترميمها، وجُعلت منتجعاً لقضاء العطل، كما شُيِّدت بين البيوت القديمة مبان يتلاءم تصميمها، وتتوافق مواد بنائها مع الفن المعماري المحلي. قام بالتصميم والتنفيذ المهندس الدانماركي هانس مَنْك هَنْسن HANS MARK HANSEN عام ١٩٧٠م.



الخيل العربية الأصيلة

الأمير أ.س .شيرباتوف الكونت س. أ. ستروغانوف

مراجعة: قسم التحرير



الحصان العربي يتميز بوجود خطوط سوداء بالقرب من المناخر والعيون

اشتهر الحصان العربي الأصيل في معظم بلاد العالم ماضياً وحاضراً، وعُدّ رمزًا للحيوانات الأصيلة عند كل الشعوب؛ لنقاء دمه، ورشاقته، وسرعته، ووفائه. وهذه الصفات التي امتاز بها الحصان العربي الأصيل، وحببت الشعوب الأخرى به هي نفسها التي يعتز بوجودها العرب في خيولهم، فالعرب اعتنوا بالخيل عناية شديدة، وأعجبوا بها إعجاباً منقطع النظير، وأصبحت عندهم رمزاً للشجاعة والأصالة والإخلاص والفرح والانتصار، واعتمدوا عليها في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية. لقد أكد القرآن الكريم في آيات كريمات مكانة الخيل العلية، وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بإكرامها وتهذيبها في كثير من الأحاديث النبوية، وخلدت أشعار العرب خيولهم بالآلاف من أبيات الشعر التي تصور شجاعتها وجمالها ووفاءها.

والعرب في حبهم لخيولهم لا يختلفون كثيراً عن غيرهم من الشعوب التي تعتز بخيولها وتراها رمزًا من رموزها الوطنية، إلا أن الصفات التي امتاز واشتهر بها الحصان العربي الأصيل جعلت هذه الشعوب تفكر في الكيفية التي تجعل من خيولها ذات صفات عربية. ومن الشعوب التي أرادت ذلك الشعب الروسي الذي اشتهر بحبه للخيل، ولا يقل عن العرب في الاهتمام بها لكونها جزءاً من مكوناته الحضارية.

تشير أغلب المصادر المتوافرة إلى أن المحاولة الروسية الأولى للاستفادة من الخيول العربية في تأصيل خيولها تعود إلى عام ١٧٧٧م عندما حصل الكونت إلكسياس قريقورريفيتش أورلوف على ٣٠ فحلاً و٩ أفراس عربية ، وكانت أول تجربة له هي استعمال الفحل العربي المسمى سميتانكا Smetanka لسفاد فرس هولندية، نتج منها وجود سلالة أورلوف الروسية الشهيرة التي بقيت حتى وقت قريب، من أشهر السلالات بالخبب. ومنذ ذلك التاريخ واشتهار هذه السلالة التي دخل فيها الدم العربي، انطلق بعض الروس الذين اشتهروا بتربية الخيل يبحثون عن الخيل العربية في مواطنها الأصلية في بلاد العرب، وجلبها إلى روسيا. و من أشهر الذين جاؤوا إلى بلاد العرب الشمالية عام ١٨٨٨م من مربي الخيل الروس الأمير شيرباتوف، والكونت ستروغانوف اللذان بلغ مدى شغفهما بالخيل العربية مبلغاً

جعلهما يكتبان هذا الكتاب الذي بين أيدينا عن الخيل العربية، والصادر عام ١٩٠٠م في مدينة بطرسبورغ، ويقدمانه للقيصر الروسي لإقناعه بأن لا أمل بتطوير صفات الخيل الروسية التي تسعى الدوله الروسية إلى تحقيقه إلا من خلال دم الخيل العربية الأصيلة التي يقول عنها الأمير شيرباتوف في مقدمته لهذا الكتاب: «إن الحصان العربي هو الحصان الوحيد في العالم الذي لم تحظ أي سلالة خيول أخرى بالشهرة إلا من خلاله، ومن خلال وجود دمه في دمها».

يتناول الكاتبان في كتابهما الذي قسماه قسمين كل ما يتعلق بالخيل العربية الأصيلة: تاريخها، وصفاتها، ومميزاتها، وأفضليتها على غيرها من سلالات الخيول الأخرى، والتجربة الأوروبية مع الخيل العربية، وكيفية الاستفادة منها في تربية الخيل الروسية.

يتناول القسم الأول من الكتاب، الذي كتبه الكونت ستروغانوف ، ويحمل عنوان الحصان العربي المعاصر، مفهوم الأصالة في الحيوانات، وأهمية نقاء الدم في تربية الحيوانات ولاسيما الخيل؛ وأنه، لتوليد الأنواع الجيدة من الخيل الروسية وتحسينها أو الحفاظ عليها، لا بد من الاستفادة من خيول تنتسب إلى سلالات ثابتة أو أصيلة لا يتطرق إليها الشك؛ وأنه من سلالات الخيل الموجودة كافة ليس هناك إلا السلالة العربية وحدها التي تستوفي - من دون أدنى احتمال للشك - مفهوم «الدم النقي»، وأنها الوحيدة القادرة - وبصورة لا تقبل المقارنة مع جميع السلالات الأخرى - على توريث خصائصها ومميزاتها، ومن ثم تحسين السلالات الأخرى كافة، وأن أصالة الخيل العربية لا تتطلب البراهين؛ لأنها اختبرت عملياً، فبدم الجواد العربي تم تحسين إنتاج عشرات من مختلف أنواع سلالات الخيول وإعادتها.

وبناء على هذا الاستنتاج الذي يعتقد فيه الكاتب بدأ يقدم في هذا القسم من الكتاب خلفية تاريخية عن الحصان العربي، وما يدور حوله من أساطير ومقولات وقصص، ودوره وتأثيره عند العرب، وكيف أن الطبيعة الجغرافية والسكانية للعرب ومواطنهم ساعدت على احتفاظ خيولهم بأصالتها؟ لذلك فإنه في بلاد العرب وحدها ظهرت، وتظهر سلالة واحدة من الخيول لا تستخدم إلاّ لخوض السباقات والحروب، أما للسفر والترحال فتستخدم الجمال عادة، التي هي في الوقت نفسه حيوانات عمل. و أنه خلال مئات من السنوات - إن لم يكن خلال آلاف السنين - جرى تناسل الحصان العربي بكثرة لتحقيق هدف واحد فقط، وبصفات محددة بدقة، وهكذا تم تطوير خصائص معينة لهذه السلالة.

ويعدد الكاتب في هذا القسم سلاسل النسب التي انقسمت إليها الخيول العربية، وكيفية حدوث هذا الانقسام، ويقول :«إن الخيول العربية عادة تكون جلودها أكثر قتمةً من جلود السلالات الأخرى، وتوجد في بعض النماذج منها خطوط سوداء مدهشة



الخيل العربية الأصيلة

الأمير أ.س .شيرباتوف

الكونت س. أ. ستروغانوف

مراجعة وتحرير: د. عوض عطا البادي

الرياض :مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٩٩٩م ، ٢٤٥ص.



الحصان العربي: رقبة مرسومة بأناقة، ورأس معبر وجميل، وذيل رائع الشكل

بالقرب من المناخر والعيون، ويُعرّف مثل هذا اللون القاتم بكلمة «كحيلان» (المؤنث - كحيلة). ففي السابق، وحتى الآن إلى حد ما، استعملت التسمية «كحيلان» لوصف كل حصان عربي خلافاً للسلالات الأخرى، ولكن بقدر تكاثر الخيول أصبح من الضروري تحديد بعض الفروع بكنى خاصة بها، وأطلقت الكنى إما باسم صاحب الفرس المشهور، مثلا: كحيلان نواق (نواق - لقب عائلة بدوية)، أو بسمات مميزة، مثلا كحيلان رأس الفداوي، ويعني هذا: «كحيلان ذو الرأس الجميل». وعلى هذا النحو حصلت التسمية الأصلية «كحيلان» على إضافة لازمة لها لتحديد الفروع المنبثقة منها. ومع مرور الزمن انقسمت الفروع الأولى إلى فروع لاحقة حصلت بدورها على أسماء منفصلة، وحيث إن تسمية الفروع الأصلية أصبحت معروفة للجميع في ذلك الوقت، لذا أخذوا يطلقون أسماء سلالة كحيلان، وتحديد العديد من الفروع بالاسمين الأخيرين فقط. فعلى سبيل المثال، كان اسم فرع «صقلاوي» سابقاً كحيلان صقلاوي. وعندما تكاثرت وتناسلت خيول هذا الفرع الشهير، وظهرت فروع جديدة، «كحيلان صقلاوي جدران»، و«كحيلان صقلاوي وبيران» وغيرها، استُغني عن التذكير بانتسابها إلى خيول كحيلان، وأخذوا يقولون صقلاوي جدران، وصقلاوي وبيران، وهلمّ جَرّاً». ويرجح الكاتب انقسام سلالات الخيول العربية إلى خمسة سلالات، وهي: سلالة كحيلان، وسلالة صقلاوي، وسلالة عبيّان، وسلالة هدبان، وسلالة حمداني. وينبه الكاتب على أنه لا ينبغي إيلاء أهمية خاصة لانتساب الخيول إلى السلالات الخمس المعروفة؛ لأن هناك عدداً من السلالات التي لا تدخل ضمنها، ولكنها تحظى بتقويم عالٍ على حد سواء، ولا تختلف بشيء عن خيول السلالات الخمس الرئيسة.

ويعتقد الكاتب أنه، وعلى الرغم من أن العرب يقوّمون بعض السلالات أعلى من غيرها، لا يكاد يكون هناك فارق بينها كالذي يكون أحياناً في روسيا بين مزارع تربية الخيول المتشابهة في نوعها؛ ولأنّ الانتساب إلى السلالة لا يتحدد إلاّ بالأصل من جهة الأم، وأن أصل الأب والجد وجد الجد ... إلخ لا يؤخذ في الحسبان البتة (بشرط أن تكون الخيول «أصيلة»)، فإن جميع الخيول العربية وبالضرورة هي نتاج دماء متداخلة؛ وبما أنه لا توجد مزارع تربية خيول ضخمة، فإنه لا مكان لإنتاج أنواع محددة بدقة. فالآراء التي يحملها العرب عن الحصان متشابهة في كل مكان، وكذلك عن طرق تنشئتها، وأنه لا يمكن تصنيف أنواع الخيول العربية حسب طريقة محددة بدقة، فهي ليست متشابهة كما يفترض كثير من الناس، و يعود السبب في ذلك إلى أن مختلف القبائل التي ترحل بعيداً بعضها عن بعض،



إبداء الشموخ وإباء برفع الذيل والرأس

وكثيرا مايحارب بعضها بعضاً، لا تجد مفراً من إرسال أفراسها إلى فحول ذات صلة نسب قريبة منها جداً. وفي ظل مثل هذه الطريقة للاستيلاد خلال جيلين أو ثلاثة أجيال، تتطور ذرية من نوع معين، ولكنها تفقد تميزها عندما تختلط بدماء جديدة لا تمت إليها بالقرابة. وبهذه الطريقة يمكن وجود أنواع معينة، ولكنها مؤقتة، ومختلفة بعضها عن بعض، عند مختلف القبائل، ولكن لا يمكن احتساب هذه الأنواع سلالات مختلفة؛ فالخيول العربية عند الحركة، وخاصة عندما تُستثار، يظهر على الفور الأصل المشترك لها جميعاً مهما كان النوع الذي تنتمي إليه، حيث يزداد الحصان حيوية ونشاطاً، ويرفع ذيله، ويأخذ رأسه ورقبته مظهراً تشامخاً وإباء».

ينتقل الكاتب بعد ذلك إلي إيراد صفات الخيل العربية من حيث اللون، والقامة، والطول والبدن، والقوائم، والرأس، والعنق، والشكل العام، والقوة والقدرة على الاحتمال . ويتناول الكاتب طباع الحصان العربي، ويقول: «إن الخيل العربية ذكية وطيبة الخلق، مثلها في ذلك مثل أصحابها، فهي لا تعرف المعاملة القاسية، وتعيش منذ ولادتها بين الناس، وتتعود على الراكب منذ ربيعها الأول. إن طيبة خلق الخيول العربية وثقتها بالإنسان تتحكمان فيها لصالحها، ومع ذلك فالحصان العربي جريء، وغير جافل مطلقاً، ولكن مع ما تتسم به هذه الخيول من جمال، نجد بينها كثيراً من الخيول العصبية المزاج والحادّة الطبع. ومن السهولة بمكان أن نفسد مثل هذه الخيول بالمعاملة الخشنة أو غير الحاذقة. ولم يحدث لي أن واجهت بينها خيولاً كسلى؛ فكلها نشيطة وهمّامة، وتحافظ على الهمة والنشاط حتى في حالة التعب الشديد. إن الهمة والنشاط من أثمن صفات الحصان العربي».

بعد وصف الكاتب للحصان العربي، ينتقل إلى الموازنة بينه وبين الحصان الإنجليزي الثروبريد . وبعد استعراض تاريخ الحصان الإنجليزي، وكيفية تطوره وصل الى نتيجة هي أنه لو لم تكن به دماء عربية لما تميز بسرعته التي يعترف بها الجميع، ويقول: «إن خيول السباق الإنجليزية مدينة بأصلها ليس للتأثير العرضي لعدد قليل من الفحول العربية، بل من خلال الاستمرار والانتظام بتحسين الخيول المحلية ورفع شأنها من خلال الخيول ذات الدم العربي».

وينهي الكونت ستروغانوف ما كتبه في هذا القسم من هذا الكتاب بتأكيد رمى إليه أصلاً وهو أنّ سلالة الخيل العربية هي السلالة الأصيلة الوحيدة في العالم، وهي التي يجب الاستفادة منها في تطوير تربية الخيل الروسية على أوسع نطاق.

اما القسم الثاني من الكتاب، والذي كتبه الأمير شيرباتوف، فجاء في ستة فصول. تناول في الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان «الحصان العربي وتميزه» طبيعة الحصان العربي، وما يميزه من الخيول الأخرى، وبطريقة مقاربة للطريقة التي تناول بها في القسم الأول من الكتاب هذا الحصان . فهو يحدد مفهوم الكاتب للأصالة والذي يعني «استيلادها من سلالة أصيلة من دون دماء دخيلة أيّاً كان مصدرها منذ بدايتها، بالإضافة إلى شرط وجود السلالة بصفة مستمرة، وفي الأوضاع الطبيعية نفسها التي ظهرت فيها في بدايتها لضمان استقرار صفاتها المحددة، وانتقال هذه الصفات إلى أجيالها المتعاقبة».

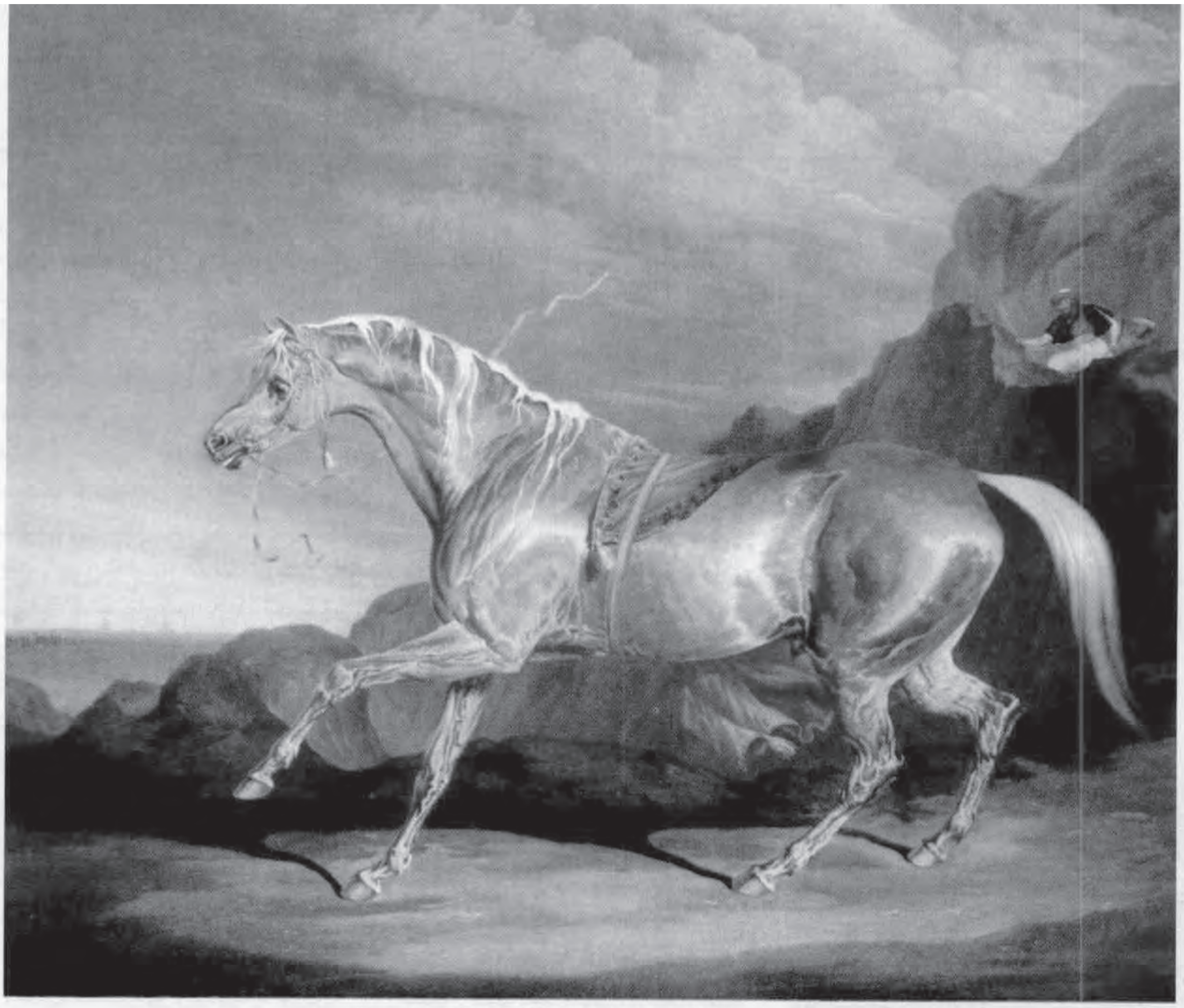
وحسب هذا المعنى للأصالة عند الكاتب، فإن السلالة العربية هي السلالة الأصيلة الوحيدة للخيول في العالم. فخيول السلالات الأخرى كافة يجب أن تسمى

يمتاز الحصان العربى بالقوة والقدرة على الاحتمال بشكل لا يتناسب مع صغر بنيته



نبالة الشكل وجماله من مميزات الحصان العربي

خيولاً مؤصلة، وليست خيولاً أصيلة ذات دماء نقية. فالحصان العربي بقي دون تغير منذ زمن النبي محمد [صلى الله عليه وسلم]، وإنه ليس ثمة أسباب للافتراض أنه قبل ذلك كان قد ارتحل إلى بلاد العرب من بلاد أخرى، أو أنه كان نتاج عملية تهجين لسلالات أخرى. إن نقاوة دم الحصان العربي تنبع أولا وقبل كل شيء من الأهمية التي يوليها العرب للدم في تربية سلالات الخيل عندهم ، فنقاوة الدم، والشغف بالخيل يصلان لدى البدو إلى حد التعصب. وإلى جانب هذا الضمان الذي يمنحه الشعور القومي تجاه نقاوة الدم وأصالته، فإن الصفات التي يتميز بها الحصان العربي وهي كرامة المحتد، وقوة الاحتمال، واستمرارهما - صنعت الشهرة لهذا الحصان، وبقيت فيه بفضل العادة المستمرة منذ قرون طويلة بحمايته من أي شوائب دخيلة، والفضل في ذلك يعود حسب



ألهب الحصان العربي خيال الفنانين الغربيين منذ عهود بعيدة

قول الكاتب، إلى الظروف الطبيعية السائدة في الصحراء العربية والطريقة التي تربى فيها. والعيب الوحيد في الحصان العربي كما يقول الكاتب هو صغر حجمه، لكن هذا الحجم الصغير مطلب أساسي لنوعيته الممتازة ، حيث تتركز، في سلالة واحدة، أحسن صفات الخيل؛ فالحصان العربي قادر على تمرير صفاته إلى عدة أجيال متعاقبة، والفضل في ذلك يعود الى طريقة الحفاظ على صفاته، والتحسين التدرج لهذه الصفات، وعلى مدى آلاف السنين، التي يتبعها شعب واعٍ بأهمية نقاء الدم. وحتى عندما يتم نقل الحصان العربي إلى بلد جديد، وبعد ان يتكيف مع الأوضاع ومتطلبات ظروف المحيط الذي يعيش فيه، أو حتى بعد اختلاطه مع السلالات الأخرى، فإن ذريته تحتفظ بصفات جمال الهيئة والشكل، والقوة والقدرة على الاحتمال، وسرعة الحركة التي يتميز بها البدو.

ويسأل الكاتب هل هناك في العالم سلالة خيل واحدة معروفة بجمال مظهرها وسرعتها، عدواً أو خبباً، ولا يوجد فيها دم عربي؟ فمما يثير الاستغراب، أنه من تزاوج مختلط واحد تم بين حصان عربي وفرس سباق روسية قبل مئة سنة، ومئتي سنة بعد ظهور أول فرس إنجليزية من أب عربي، نجد أن في السلالتين الروسية والإنجليزية وبشكل واضح علامات واضحة للدم العربي، وتولد بين حين وآخر بعض النماذج التي تشابه الأجداد من الخيول العربية في الصفات الرئيسة. وفي أوربا، عُدّ الحصان العربي، ومنذ الأيام الأولى لبدء تربية الخيل فيها، هو الأساس الذي لا يمكن تجنبه في أي محاولة لتحسين الأنواع المختلفة من الخيول من حيث زيادة الجمال، والسرعة والقدرة على الاحتمال، والمظهر الخارجي النبيل فيها.

ويحدد الكاتب الصفات الرئيسة للحصان العربي التي تميزه من غيره من سلالات الخيول الأخرى بما يلي:

- نبالة الشكل: لا توجد في أي سلالة خيل أخرى، تلك الرقبة المرسومة بأناقة، والذيل المركب بطريقة رائعة، والرأس المعبِّر والجميل، والعين الكبيرة المشرقة، مشابهة لما في الحصان العربي. ولا يحدث في أي سلالة خيل أخرى، في أثناء الانتقال من حالة السكون إلى حالة الحركة، مثل هذا التحول من جواد عادي المظهر إلى جواد مفعم بالنبالة والنشاط المتقد، مثلما يحدث في الخيل العربية.

- القوة والقدرة على الاحتمال: على الرغم مما يوحي به حجم هذا الحصان إلا أنه امتاز بالقوة والقدرة على الاحتمال، وبشكل لا يتناسب مع بنيته، وفي ظروف إعالة غير كافية. لقد حظي الجواد العربي بالشهرة لما يتمتع به من القدرة على الاحتمال منذ القدم. وليس في وسع غير الجواد العربي أن يقطع

مسافة ٨٠ ميلاً، يومياً ولخمسة أيام متصلة، وأن يقطع هذه المسافة نفسها بعد استراحة ثلاثة أيام دون أي علامة للتعب. وامتاز الحصان العربي، كأحدث مثال على التفوق في القدرة على الاحتمال في حرب القرم [١٨٥٤م-١٨٥٥م] عندما صمد جنود الفوج الخاص للفرسان الفرنسيين الذين كانوا يمتطون الجياد ذات الدم الشرقي أكثر من جنود سلاح الفرسان الإنجليزي. وخلال السباق الذي تم بين نقطتي فيينا وبرلين في عام ١٨٩٢م كانت الخيول الهنغارية والبولندية ذات الدم العربي هي الأفضل. واعترف الإنجليز في مصر في عام ١٨٩٨م بتفوق الجواد العربي على الجواد الإنجليزي، حيث امتطى فرسان الفوج الحادي والعشرين الخيول العربية بدلا من الجياد الإنجليزية للمشاركة في الحملة إلى الخرطوم. وأخيراً، في الجيش النمساوي – الهنغاري، حظيت سلالة «شاغيا» ذات الأصل العربي بالشهرة من حيث قدرتها على الاحتمال، وبصورة لا تنافسها فيها أي سلالة أخرى.

- القدرة الرائعة للفحول العربية على نقل ما تتميز به من هيئات وصفات داخلية إلى ذريتها حتى عندما تبقى من دون إضافة دماء عربية جديدة، ولمدة تصل إلى قرن كامل.

وكما يذكر الكاتب فإن هذه الصفات ستحتفظ للجواد العربي بأهميته دائما من أجل رفع مستوى تربية الخيل في سائر البلدان، وفي الحالات كافة التي يُطلب فيها تحسين الأشكال والهيكل، وزيادة القوة والقدرة على الاحتمال، وتخليص السلالة المعروفة من العيوب الموروثة.

يستعرض الكاتب بعد ذلك سلالات الخيل العربية، وهي الخمس المعروفة، ويذكر فروعها ومميزاتها، ثم يضيف إلى هذه السلالات ستة عشر فرعاً أصيلا لم تنحدر من هذه الفروع الخمسة .

وينتقل الكاتب إلى تحديد أهمية الحصان العربي لتربية الخيول الروسية ويقول :«من وجهة نظر تربية الخيول الروسية، فإنه لا يغفر أبداً عدم الاعتراف بأهمية الدم العربي لتحسين السلالات المحلية. فالحصان العربي هو الذي أنتج حصان السباق وحصان بيتيوغا Bitiuga لجر العربات الروسيين، وهو الذي أعطى لروسيا السلالة الأورلوفية - الروستوبتشينية، وهو الذي حسن سلالات الخيول الجبلية – سلالات دون Don وكاباردا""Kabarda للخيل».

وتنبع أهمية الحصان العربي بالنسبة إلى روسيا - كما يذكر الكاتب - من قدرته على نقل صفاته إلى ذريته؛ فمتطلباته قليلة في مجال الرعاية والغذاء، وقوته وقدرته الرائعة على الاحتمال، وإذا أخذنا في الحسبان حجمه، فإن هاتين الصفتين هما الأكثر قيمة في روسيا لاعتبارات الظروف المناخية القاسية، والطرق الوعرة، والمسافات الطويلة..... ويقول الكاتب: «إن تعرف الحصان العربي عن قرب، يؤكد أنه يستطيع وبمختلف نماذجه أن يستجيب لمختلف الحاجات».

ويسأل الكاتب عن كيفية الحفاظ على نقاء سلالة الحصان العربي، وعن البلد الأكثر اهتماما بهذا الأمر، وأي بلد مؤهل لتحقيق ذلك؟

يجيب الكاتب عن سؤاله بقوله: «إنه ليس هناك بلد في العالم يمكنه بحكم مصالحه، وتعلق سكانه بتربية الخيول، وظروفه الطبيعية أن يناط به مهمة الحفاظ على أصل السلالة العربية أكثر من روسيا، كما أنه لا يوجد بلد آخر كروسيا لديه ٣٠ مليون رأس من الخيول في مساحات شاسعة من الأراضي غير المأهولة، و تعد فيه تربية الخيول ضرورة ملحة لاستغلال الثروات الطبيعية وسيلة لانتقال السكان، ونقل

لم يتميّز الحصان الإنجليزي بالسرعة المعروفة عنه، إلا بوجود دماء الخيول العربية فيه



الهمة والنشاط من أثمن صفات الخيول العربية

الأثقال، وحراثة الأرض».

ينتقل الكاتب في الفصل الثاني من هذا القسم إلى الحديث عن موطن الحصان العربي، أي بلاد العرب نفسها من الناحية الجغرافية والسياسية والسكانية، وبالاعتماد على الوصف الذي قدمه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا الجزيرة العربية، مثل الليدي آن بلنت وزوجها ويلفرد بلنت، وجيفورد بلغريف، وكارلو غوارماني، والبارون ادوارد نولده، خلال القرن التاسع عشر. كما يتناول الكاتب قبائل شمال الجزيرة العربية، وتفرعات هذه القبائل، وخاصة قبيلتي عنزة وشمّر.

أما في الفصل الثالث فيعرض الكاتب آراء الرحالة الغربيين عن الخيل العربية، ويقدم بعض مشاهداتهم ووصفهم لهذه الخيول، وكيفية الحصول عليها من القبائل العربية الشمالية. كما أورد الكاتب تجربته الخاصة في الارتحال إلى مناطق القبائل العربية في سورية عام ١٨٨٨م بحثاً عن الخيل الأصيلة، والتي أكدت له كما يقول: «بعد تأمل ومراجعة محاسن ومزايا الحصان العربي، وفي ضوء تجربتنا الخاصة في استيلاد وتربية الخيول العربية ونسلها شبه الأصيل، فإننا نقتنع على نحو متزايد بقيمة السلالة العربية.... ونعترف بأنها المصدر الوحيد حقا لتحسين تربية الخيل المحلية».

ويتناول الكاتب في الفصل الرابع أسباب تميز الحصان العربي ، فهو كما يقول: «مثال الكمال للخيل، قامته ١٤ قبضة وبطول مناسب، بنيته قوية وسليمة، مع مرونة وخفة حركة خارقة للعادة. إنه مخلوق متسق على نحو رائع من كل النواحي. ويكمن جوهر صفات الخيول كافة في حجمها الصغير. ولابد من رؤية الحصان لتقدير مدى أناقة وجمال الرأس والعينين والأذنين والفكين والفم والجزء الأسفل والأوسط من قصبة الأنف. الأذنان صغيرتان، ولكنهما جميلتان جداً ومفتوحتان، الرأس قصير من الأذنين إلى الخطم، عريض في الجزء العلوي، العينان هادئتان تنمان على الوداعة والذكاء، تنثران النور والنار في حالة الهياج، لكن من دون مظهر الخوف القاسي الذي تتسم به السلالات الأخرى، المناخر مستطيلة لها شكل فتحات ضيقة، قادرة على التقلص، وبعد اتساعها ترتد على عقبها تماماً، وتنتفخ كل الانتفاخ، والعنق مثال للقوة والعظمة ومقوس بشكل رائع، الحلق كلّي مثير للعجب ومرن وطليق في الحركة، وهذا ليس علامة


صغر الحجم ورقة الملامح جوهر صفات الخيول العربية

على التنفس الجيد فقط، بل للقدرة على تحمل التوتر المتواصل بلا جهد، بين الفكين مسافة كبيرة. الكتف، نادراً ما نراه من حيث الطول عند الخيول الإنجليزية، علماً بأنه أعرض عند الجزء الملاصق للظهر، وأخف في الأسفل. للحصان العربي قفص صدري عميق جداً، لا يلاحظ إلى حدٍ ما بسبب طول الأضلاع وغلظها، الظهر قصير، المؤخرة طويلة وقوية، ذات وضعية رائعة، وضعية الذنب عالية، مقوس الشكل، الركبتان عريضتان وقويتان جداً، الجزء العلوي من القوائم طويل، والجزء السفلي قصير، متين ونظيف، الأوتار قوية، نحيلة وبارزة بحدة؛ الأرساغ طويلة لدرجة كافية، عريضة، قوية ومرنة؛ رباط الأرساغ بالحوافر عريض نسبياً لمزج الأوتار والعضلات؛ الحافر متين، صحي وعميق؛ قلب يعول عليه؛ الجلد كالحرير، الشعر كالساتان.. ولا يوجد في العالم أجمل من الحصان العربي سواء من حيث القوام أو من حيث النجابة والحسب. وبنيته على أعلى درجة من الكمال بحيث لا يمكن إضافة شيء عليه ولا إنقاص شيء منه، فكل شيء فيها يفي بالغرض منه. ومكان كاف للسرج فقط، وبقية أجزاء الجسم كلها مكيفة مع أغراض الحركة. إن الطبيعة، وهي فنان لا يخطئ، لم ترتكب في الحصان العربي، ولو خطأ واحداً، ولم يحدث للإنسان أن أفسد إنساله».

وينطلق الكاتب من هذا الوصف الجميل للحصان العربي ليقارنه بالحصان الإنجليزي وغيره من الخيول ليثبت أن الحصان العربي هو أفضل حصان سباق، وحصان فروسية، وحصان صيد.

وفي الفصل الخامس يعرض الكاتب لتجارب تربية الخيل العربية في أوربا وخاصة في ألمانيا والمجر وبريطانيا وفرنسا، وفي القوقاز؛ ويصف مبادئ التربية التي سارت عليها مزارع تربية الخيل العربية في هذه المناطق.

ويقدم الكاتب في الفصل السادس والأخير من الكتاب آراء بعض مربي الخيل في روسيا حول الخيل العربية، وجميعهم اتفقوا مع الكاتب في رؤيته للخيل العربية، وكيفية الاستفادة منها.

إن هذا الكتاب حول الخيل العربية، الذي له أهمية تاريخية، ومع العاطفة الجياشة التي تناول بها الكاتبان هذا الرمز العربي الذي أحباه، وشغفا به، يبقى مساهمة متميزة في أدبيات الخيل والفروسية العربية لما احتواه من معلومات وأفكار جديرة بالاستفادة منها في الحفاظ على رمز من رموزنا في وطننا العربي.